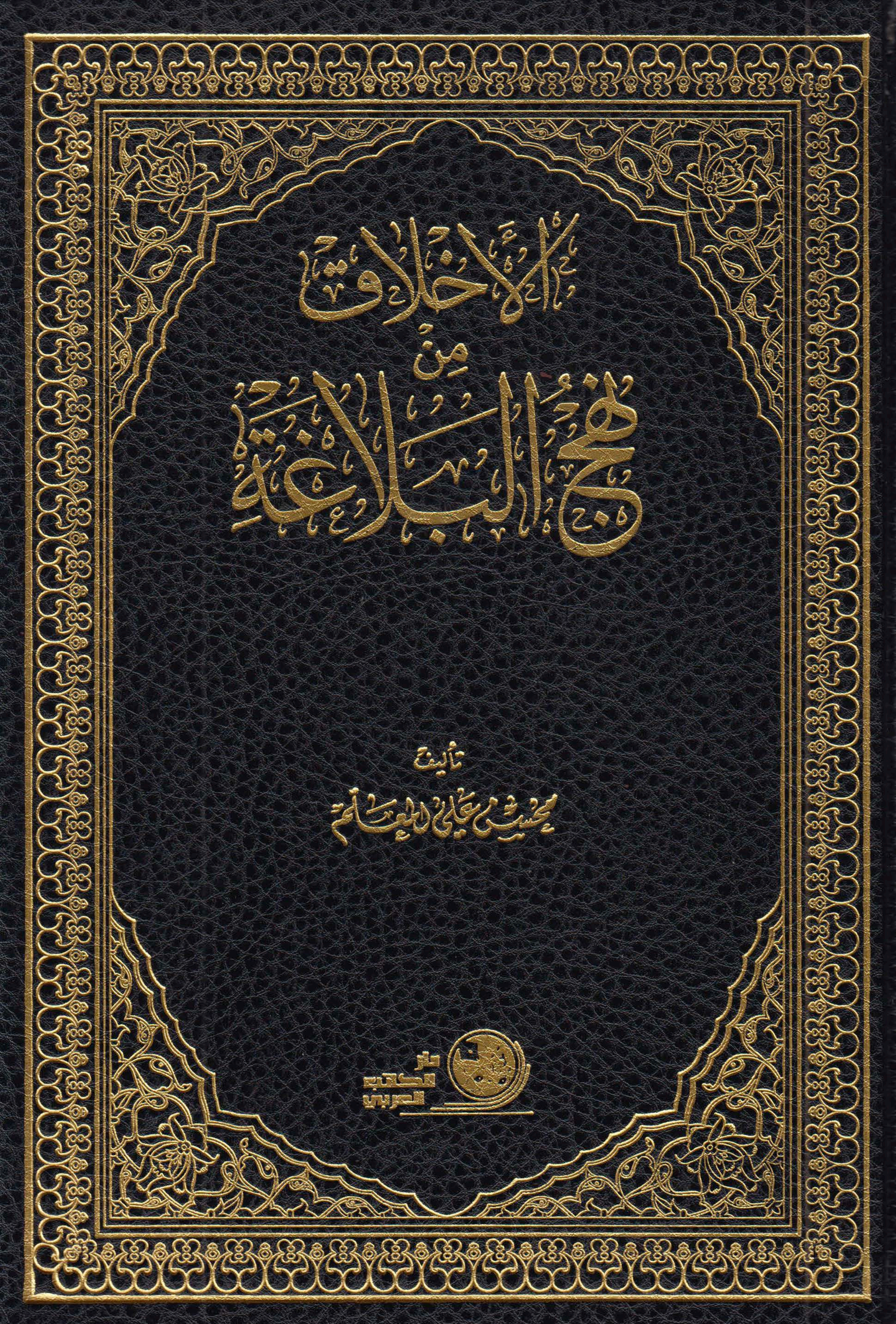
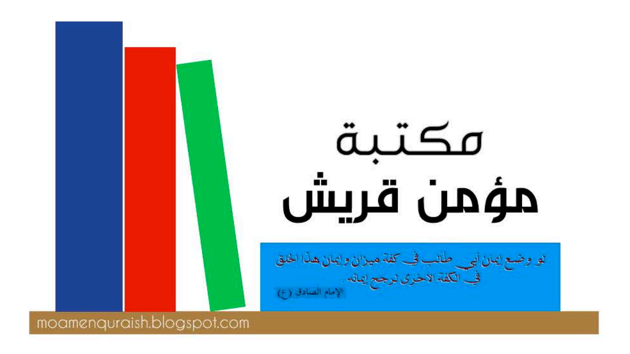

الأخلاق
من
نهج البلاغة
تأليف
محسن علي المعلم
دار
الكتاب
العربي


الأخلاق
من
نهج البلاغة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م



دار الكاتب العربي للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠٢/٢٥٧٩٨٤ - فاكس: ٠٥٥٣٤٥٦٧٠٥ /٠١/// - ص.ب: ٣٥٥/٢٥ - غبيري - بيروت
٠٢/٨٧٢٤٠٦
E-mail :darElkatebElarabi@hotmail.com



تأليف

محسن علي المعلم




بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم كن لوليك
الحجة بن الحسن
صلواتك عليه وعلى آبائه
في هذه الساعة وفي كل ساعة وليا وحافظا
وقائدا وناصرا ودليلا وعينا حتى تسكنه أرضك
طوعا وتمتعه فيها طويلا

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين المبعوث رحمة للثقلين وعلى أمير المؤمنين وقائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم وآلهما الهداة.

واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

وبعد..

فهذا الكتاب الثاني[1] حول نهج البلاغة، تناولت فيه من معارفه (الأخلاق).

ورأيت أن أصدّر له بتمهيد أعرض فيه ركائز يقوم بناء الأخلاق على قواعدها، واخترت مادتها من (نهج البلاغة) لترتبط الفروع بأصولها ريّانة من منهلها، ويتجلى فيهما عطاء المربّي الإلهي جلالاً وكمالاً وجمالاً وفكراً وخلائق وهدياً بما نمّ عنه أثره النفيس الأنفس، وسفر الخلود الأقوم، ونبراس الحياة الأهدى.

---

(١) وقد سبق لي التشرّف بكتاب (العقائد من نهج البلاغة) وقد طبع، ولله الشكر.

ومن الخير الإلمام بطرف من شؤون بحثنا قبل الوقوف عند ركائزه:

١) الخُلُق:

والخُلُق بضمتين: السجية، والجمع أخلاق... والخلق: كيفية نفسانية تصدر عنها الأفعال بسهولة، «من صفات أهل الدين حسن الخلق»[١].

وحيث أن الإنسان مركب من قوى ومودع فيه غرائز، ولكلٍّ وظائف وأدوار، واستقامة تلكم القوى في ذاتها وفي ارتباطها بنزعات الآخرين وما هم عليه من طباع وأوضاع تحتاج إلى رائد يقوم بتنظيمها وتقويم أودها، وسَوقها في منهج قويم، وصراط مستقيم، ليعتدل بذلك شأن الفرد والمجتمع.

٢) الأصول الأصيلة:

وإذا ما تأملنا في حقيقة (الإنسان) وتركيبته العجيبة الغريبة وما اشتمل عليه من ميول ونوازع وتطلع وبواعث وصراع ونزاع وحب للغلبة والأثرة وجنوح للاستبداد فلا مناص من اللجوء إلى المولى -جل جلاله- فهو الخالق العالم والمهيمن على الأمر كله وهو الحكيم الخبير.

وما سوى الله قاصر فاقد للكمال المطلق لا يقوى على إصلاح ذاته فضلاً عن إصلاح غيره ومن ثم كان أسمى الأصول الأصيلة التي يعود كل حسن وعدل وتنظيم وتقويم إليها:

---

(١) مجمع البحرين ٥ /١٥٦ـ١٥٨ بتلخيص.

أ) دعامة التوحيد:

«ثم الأخلاق لا تفي بإسعاد المجتمع ولا تسوق الإنسان إلى صلاح العمل إلا إذا اعتمدت على التوحيد وهو الإيمان بأن للعالم -ومنه الإنسان- إلها واحدًا سرمديًّا لا يعزب عن علمه شيء، ولا يغلب في قدرته من أحد، خلق الأشياء على أكمل نظام لا لحاجة منه إليها.

وسيعيدهم إليه فيحاسبهم فيجزي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته ثم يخلدون منعّمين أو معذّبين، ومن المعلوم أن الأخلاق إذا اعتمدت على هذه العقيدة لم يبق للإنسان إلا مراقبة رضاه تعالى في أعماله، وكان التقوى رادعًا داخليًّا له عن ارتكاب المحارم»[1].

وقد لطف الإله الخالق بعبده ومخلوقه فحباه (العقل) وهو أكرم ما يمنح ويحبا، يدرك بفضله الحسن والقبيح والخير والشر.

وأودع فيه (فطرة) تتجلى بصفائها حقائق الهدى والضلال ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[3].

ولكن ربما غالب (العقلَ) (الهوى) وربما طمس (نورَ الفطرة)

---

(١) الميزان ١١ /١٥٧.

(٢) سورة الروم /٣٠.

(٣) سورة الشمس /٧ـ١٠.

(حجبُ الدنيا) من سيء عادات موروثة، وبيئة ملوثة، وجهالة مردية، ومعاصٍ ترتكب، وحرمات تنتهك، فأنّى ذلك والهدى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

فلطف المولى بعباده فأسبغ عليهم نعمه وشملهم بفضله وأفاض عليهم رحمته وخيره فأقام لهم من لدنه صفوة منتجبة وخيرة منتخبة فكانوا الروّاد الهداة:

ب) الأنبياء القادة:

«ولهذا كان لابد من بعث الأنبياء ذوي النفوس المصطفاة الملهمة بالوحي ليثيروا في الناس دفائن العقول، ويزيلوا الغشاوة عن النور الفطري ويكملوا ما كانوا يحتاجون إليه في كمالهم، فكان نور الوحي الإلهي مكملاً لنور الفطرة التي أودعها الله في الإنسان فكان (نور على نور)»[2].

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[3].

وكان خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله المبعوث رحمة للعالمين مثلاً أعلى ونبراسًا أهدى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[4].

---

(١) سورة المطففين /١٤.

(٢) مواهب الرحمن ٢ /٣٥٠.

(٣) سورة آل عمران /١٦٤.

(٤) سورة الأنبياء /١٠٧.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وكان هديه ومنهاجه وشرعه وأهدافه ماحكاه عنه باعثه ومرسله عمّت رحمته وجلت حكمته: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2].

ج) إمام الأئمة هادي الأمة:

ولقد حكى (نهج البلاغة) طرفًا من آفاق صاحبه وفكره وروحه وسنن هديه وطموح آماله، وخلجات نفسه، وسريرته وسيرته.

كما تجلى فيه همه وخالص عزمه وشدة حرصه لحمل الولاة والأمة على خلائقه المثلى والمحجة البيضاء وسوقهم إلى الحق والهدى على صراط مستقيم.

وإذا ما تلونا بيّناته في نهج البلاغة وما يحياه فكره وينبض به قلبه

---

(١) سورة القلم /٤.

(٢) سورة الأعراف /١٥٦ـ١٥٨.

ويلهج به لسانه وسبرنا سيرته في كافة شؤونه وجدناهما سنخًا واحدًا لا يشذّ فيه قول عن فعل ولا يختلف فعل عن قول فكلاهما حق وصدق.

ولا غرو فمن كان (مع القرآن والقرآن معه)، (ومع الحق والحق معه) لا يكون إلا كذلك ولا يحيد عنه أبدًا.

وذلكم جلال (الإمامة) وكمال (الإمام).

فعلى روحه أجمل التحية وأتم السلام.

وإلى عشاق الحق والكمال شذرات معبرات عن إمام الخير والهدى في أدبه مع مولاه ﷻ وأدبه في رعيته، وكلاهما ينمّان عن أدبه في ذاته وخلاله وخصاله.

فأولاً: أدبه مع ربه:

قال أبو الدرداء: «شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجار، وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممن يليه واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته وبعد عليّ مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمة شجي وهو يقول: «إلهي كم من موقبة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرّمتَ عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمّل غير غفرانك، ولا أنا براجٍ غير رضوانك» فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء والبث والشكوى، فكان مما به الله ناجاه أن قال: «إلهي أفكر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من

أخذك فتعظم عليّ بليتي» ثم قال: «آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول: خذوه، فياله من مأخوذ لا تنجيه عشريته، ولا تنفعه قبيلته، يرحمه الملا إذا أذن فيه بالنداء» ثم قال : «آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزّاعة للشوى، آه من غمرة من ملهبات لظى».
قال: ثم أنعم في البكاء فلم أسمع له حسًّا ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر، قال أبو الدرداء: فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة، فحرّكته فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله علي بن أبي طالب، قال: فأتيت منزله مبادرًا أَنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته؟ فأخبرتها الخبر، فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله، ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق، ونظر إليّ وأنا أبكي، فقال: مما بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فقلت: مما أراه تنزله بنفسك، فقال: يا أبا الدرداء فكيف ولو رأيتني ودُعي بي إلى الحساب وأيقن أهل الجرائم بالعذاب. واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الأحباء ورحمني أهل الدنيا، لكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية، فقال أبو الدرداء: فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله»[1].

ثانيًا: مع أعدائه ومن لا يواليه:

أ) معاوية بن أبي سفيان:

---

(١) بحار الأنوار ٤١ /١١ـ١٢.

«إن معاوية كان يرسل يسأل عليًّا عن المشكلات فيجيبه فقال أحد بنيه: تجيب عدوك، قال: أما يكفينا أن احتاجنا وسألنا؟»[1].

ب) أبو هريرة:

«وجاء أبو هريرة -وكان تكلم فيه وأسمعه في اليوم الماضي- وسأله حوائجه فقضاها، فعاتبه أصحابه على ذلك، فقال: إني لأستحيي أن يغلب جهله علمي وذنبه عفوي ومسألته جودي»[2].

جـ) ذمّي صحبه في طريق:

«عن جعفر عن أبيه عليه السلام أن عليًّا عليه السلام صاحب رجلاً ذمِّيًّا، فقال له الذمي: أين تريد يا عبد الله؟ فقال: أريد الكوفة، فلما عدل الطريق بالذمّي عدل معه علي، فقال له الذمّي: أليس زعمت الكوفة؟ قال: بلى، فقال له الذمي: فقد تركت الطريق، فقال: قد علمت، فقال له: فلم عدلت معي وقد علمت ذلك؟ فقال له علي عليه السلام: هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه وكذلك أمرنا نبينا، فقال له: هكذا؟ قال: نعم، فقال له الذمي: لا جرم إنما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أشهدك أني على دينك، فرجع الذمي مع علي عليه السلام فلما عرفه أسلم»[3].

ثالثًا: الضيف والضيافة:

أ) «بالإسناد إلى أبي محمد العسكري أنه قال: أعرف الناس بحقوق

---

(١) إحقاق الحق ٨ /٢٤٣.

(٢) بحار الأنوار ٤١ /٤٩.

(٣) بحار الأنوار ٤١ /٥٣.

إخوانه وأشدهم قضاء لها أعظمهم عند الله شأنًا، ومـن تواضـع في الـدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين ومـن شـيعة عـلي بـن أبي طالـب عليه السلام حقًّا، ولقد ورد على أمير المؤمنين عليه السلام أَخَوَان له مؤمنـان أب وابـن، فقـام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه، وجلس بـين أيـديهما، ثـم أمـر بطعام فأحضر، فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطـست وإبريـق خـشب ومنـديل ليلبس. وجاء ليصب عـلى يـد الرجـل فوثـب أمـير المـؤمنين عليه السلام وأخـذ الإبريق ليصب على يد الرجل، فتمرغ الرجـل في الـتراب وقـال: يـا أمـير المؤمنين، الله يراني وأنت تصبّ على يدي؟! قال: اقعد واغسل فإن الله عز وجل يراك، وأخوك الذي لا يتميّز منك ولا ينفصل عنك يخدمك، يريـد بـذلك في خدمته في الجنة مثل عشرة أضعاف عدد أهل الدنيا، وعلى حسب ذلـك في مماليكه فيها، فقعد الرجل فقال له عليٌّ عليه السلام: أقسمت بعظيم حقي الذي عرفته ونحلته وتواضعك لله حتى جازاك عنه بأن تدنيني لما شرفك به مـن خدمتي لك لما غسلت مطمئنًا كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبرًا، ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الإبريق محمد بن الحنفية وقال: يا بني لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصبيت على يده، ولكـن الله عز وجل يـأبى أن يسوي بين ابن وأبيه إذا جمعهـما مكـان، لكـن قـد صـب الأب عـلى الأب فليصب الابن على الابن، فصب محمد بـن الحنفيـة عـلى الابـن، ثـم قـال الحسن بن علي العسكري عليه السلام: فمن اتبـع عليًّـا عـلى ذلـك فهـو الـشيعي حقًّا»[1].

ب) ورئي أمير المؤمنين عليه السلام حزينًا فقيـل لـه: مـم حزنـك؟ قـال:

---

(١) بحار الأنوار ٤١ /٥٥ـ٥٦.

لسبعٍ أتت لم يضف إلينا ضيف.

رابعًا: غاية النبل وكمال الشرف:

«الحارث الهمداني قال: سامرت أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- فقلت: يا أمير المؤمنين عرضت لي حاجة، قال: فرأيتني لها أهلاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: جزاك الله عني خيرًا، ثم قام إلى السراج فأغشاها وجلس، ثم قال: إنما أغشيت السراج لئلا أرى ذل حاجتك في وجهك، فتكلم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحوائج أمانة من الله في صدور العباد، فمن كتمها كتبت له عبادة، ومن أفشاها كان حقًّا على من سمعها أن يعينه»[1].

هذا ومحاسن خلائقه بل معاجز كمالاته أبعد من أن تحصى وأنأى من أن تستقصى في مختلف الشؤون ومتنوع الأوضاع، سلمًا وحربًا، عبادة ومالاً وجاهًا، سرًّا وعلانية، لمن قربت لحمته أو بعدت، قبل توليه الحكم وبعده.

ولا أدري ماذا أقرّر؟! أهو السر والعجب؟! أم ينكشف به السر والعجب؟ فإن من كان (نفسًا) لرسول الله ﷺ كما قال ﷻ عنه في محكم كتابه ﴿وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾ فهو الجدير بمقام كمقامه ونعت بوصفه، وخطاب كخطابه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) الكافي ٤ /٢٤.

٣) آهة علي وحسرته:

وعلي وقد تجسّد إيمانًا وتمثّل كمالاً يعيش همًّا ويحيا مشروعًا إلهيًّا ملأ جوانحه وجوارحه بذل كل جهده وقواه في إقامة الأمة على نهجه والسير في لاحب طريقه يقتفي في سَننه هدي ربه ومهمة مربيه ومؤدبه ومستخلفه رسول الله ﷺ ليشرق نور القرآن في القلوب، ولتعمر معارف الإسلام الحياة ولئلاّ تعود الجاهلية الجهلاء والطخية العمياء، والضلال والغواية، فتذهب تلكم الجهود وذلكم العناء سدى وضياعًا.

ولكنه مُنِيَ -وما أعظم محنته وأفدح خطبه- بمن حليت الدنيا في عيونهم فلم يبصروا سواها، وثقل عليهم الحق فعموا وصموا فضلوا عن سواء السبيل.

فطفق يبث همه، ويبعث شكواه، ويبوح بتبرمه مذكرًا ومحذرًا منذرًا كاشفًا عن وخيم العواقب، وما يخبئه الغد الأسود من كوارث الخيبة ولا فرصة لتدارك ولات ساعة مندم.

فاستعرضْ فكره وهديه وعناءه، وأعدْ النظرة والكرة ثم استمعْ عليه كيف يتقطع قلبه حسرات حيث يرى آثار جهوده وجهاده قد آلت إلى ما أعلن عنه تبرمه ويأسه من أمة لا يرجون لله وقارًا، وأصروا على الباطل واستكبروا استكبارًا.

«عن أبي صالح الحنفي قال: رأيت عليًّا
عليه السلام يخطب وقد وضع المصحف على رأسه حتى
رأيت الورق يتقعقع على رأسه، قال: فقال:

اللهم قد منعوني ما فيه فأعطني ما فيه، اللهم قد أبغضتهم وأبغضوني، ومللتهم وملوني، وحملوني على غير خلقي وطبيعتي وأخلاق لم تكن تعرف لي، اللهم فأبدلني بهم خيرًا منهم، وأبدلهم بي شرًّا مني، اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح في الماء»[1].

وما يستوقف الباحث المتأمل في هذا النص المعبر:

أ) وضع قرآن الله العظيم على رأسه الشريف.

ب) (سألتهم ما فيه، فمنعوني ذلك، فأعطني ما فيه).

فهو سلام الله عليه يحمل هديه لتزهر أحكامه وتنعم الأمة بفيض عطائه وتحيا على معارفه.

جـ) (حملوني على غير أخلاقي وطبيعتي، وأخلاق لم تكن تعرف لي).

وكان يسوسهم سياسة إلهية، ويحملهم قولاً وعملاً برفق على الجادة القويمة والمحجة البيضاء.

---

(١) الغارات ٢ /٤٤٩ـ٤٥٨، ووردت في جامع أحاديث الشيعة ١٩ /٢٢٦معقبة بـ "قلت: وروى صاحب كتاب التبر المذاب عن علماء الشافعية نظير هذا الفعل من أبي عبد الله عليه السلام في يوم عاشوراء"، وعن مستدرك الوسائل ٤ /٣٩٢.

وقد جاءت الرواية في مصادر عدة بتفاوت ما، فذكرها في أنساب الأشراف ١ /٢٠٠ وأعلام النبلاء ٣ /١٤٤ كما أورد شطراً منها ونحوها الشريف الرضي في نهج البلاغة.

وقد حكى تاريخ سياسته وإدارته ورعايته علوّ نفسه وشريف مقاصده وكريم خلائقه وإقامته العدل وإحياءه الحق، كما حكى ضيقهم وتبرمهم من ذلك وتماديهم في الغواية واستماتتهم في الانحراف والعماية وتنمرهم في الاعتراض، وصلفهم في التمرد.

وله عليه السلام في هذه المعاناة خطوب وخطب وكلمات كثيرة تحكي بلاءه المبرم ومحنة الحق وإمام الهدى مع الرعاع الغثاء عبيد الدنيا وعشاق الباطل والأهواء.

٤) خطة الكتاب:

أ) تمهيد وركائز:

عرضت لجملة من الأسس التي يقوم عليها بناء (الأخلاق) فكانت فصولاً على هذا الترتيب:

خالق الطبيعة واضع الشريعة.

النبي الأعظم المثل الأعلى للخلق الإلهي.

الإمام علي أنموذج الكمال.

الدنيا وشؤونها.

الإنسان وأطواره.

المعاد ركن الإيمان وعنصر الالتزام.

ب) موضوعاته:

جملة من الشؤون الأخلاقية عمدت إلى مادة المفردة فتتبعت مواطنها ومشتقاتها وموارد إيرادها.

و من ثم تفاوت الحديث عنها وفيها سعة وضيقًا وإجمالاً وتفصيلاً.

مع الإذعان بما يحمله وجيز كلامه ﵇ من متّسع المعارف، كما نوّه بذلك العلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية ﵀ في مفتتح شرحه للحِكم في نهج البلاغة حيث قال:

«جوامع الكلم والمعاني الكبار في الكلمات القصار»[1].

جـ) ومن خلال سيري في نهج البلاغة أدركت أني بعد لم أبرح طرفه الأول، ومداه طويل ومنحاه قرآني، فتأخذ بفكرك وقلبك الخطبةُ الطويلة مرات وكرات في معارف ولطائف كصنع وحي الله المعجز في آياته وبيناته في أصناف شتى من علم التوحيد والأخلاق وسواهما، وكم هو ثري ذلك النهج بوفرة خطبه وجلال مضمونه، وبعد غايته فطفقت معترفًا بثقل الخطى، وطول المسرى، وقلة العدة والزاد مؤملاً العون والمدد لمعاودة السَّفَر في السِّفْر الممتع، منتظرًا عناية الباحثين وإرشاد الموجهين.

وبعد...

فهذه صحائف الأخلاق من نهج البلاغة كتبتها تذكرة لنفسي سائلاً المولى الكريم أن تقع موقع القبول والإفادة، فإن حظيت بذلك وإلا فما فاتني حسن المقصد وشرف الغاية راجيًا مخلصًا أن تدوّن في صحائف

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٤ /٤٠٩.

أعمالي فأحظى بالشفاعة الكبرى من مولاي إمام المتقين أمير المؤمنين عليه السلام، محبوًّا بجواز منه على الصراط وبراءة من النار فإنه قسيم الجنة والنار.

ثبّتنا الله بالقول الثابت على ولايته والبراءة من عدوه ووفقنا للتمسك بحبله وسلوك منهجه واتباع هديه.

والحمد لله والصلاة على ساداة الأنام محمد وآله الهداة الكرام.

الفصل الأول: تمهيد ومداخل

خالق الطبيعة واضع الشريعة

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم المثل الأعلى للخُلق الإلهي

الإمام علي عليه السلام أنموذج الكمال

الدنيا وشؤونها

الإنسان وأطواره

المعاد ركن الإيمان وعنصر الالتزام

خالق الطبيعة واضع الشريعة

المبدأ الإلهي الأعلى:

وحيث أن منطلق البحث ومداره وقوامه ومحوره إنما هـو (الله) ﷻ، فمنه المبدأ واليه المعاد، وهو المهيمن على الأمر كله فمن الـضروري البـدأة بالحديث عن جملة من الشؤون الإلهية والمعارف الربانية ليقوم البحث على أساسه ويثبت على أركانه.

ومادة بحثنا هنا وفي كافة هذا الكتاب مستقاة من مـولى الموحـدين، نبعة العلم الإلهي الإمام أمير المؤمنين علي -عليه صلوات ربـه وتـسليمه- الذي فتح للأمة باب التوحيد وأوضـح مناهجـه وركـز قواعـده وأحكـم مبانيه فيما بثه كثيرًا في (نهج البلاغة).

فلنرد مورده لنغترف من كوثره وننهل من سلسله العذب.

١) عظمة ذي الجلال التي لا يُبلغ كنهها:

قال عليه السلام:

«فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ: حَيٌّ قَيُّـومٌ، لاَ تَأْخُـذُكَ

سِنَةٌ، وَلاَ نَوْمٌ، لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكْتَ الأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ الأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ، وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ، فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلى مَوْرِ المَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً»[1].

الله ﷻ حقيقة الحقائق وسرها غيب لا يوصف، وكنز لا يعرف وإنما تدرك أطراف آثارها، ويحاط ببعض أخبارها.

وعظمة الله عنوان علمه ؛ ونفوذ سلطانه، وعموم قدرته، وكمال جماله، وجمال كماله، وهيمنته -سبحانه- على الأمر كله.

فأي إدراك يبلغ ما لا حد لمداه، ولا ابتداء لأوله؟!

أجل...

إن العقل -وهو هبة العظمة- يدرك بأن واهب الحياة هو الحي وأن

---

(١) خ ١٦٠ /٢٢٤.

وقد اعتمدنا هذا الترميز للإشارة إلى إيراد نصوص نهج البلاغة:

خ تعني خطبة، وبعدها رقم الخطبة، ثم العلامة المائلة / وبعدها رقم الصفحة.

وهكذا بالنسبة للكتب والرسائل مع استعمال حرف (ك) لها، وكذلك الحكم مع استعمال حرف (م) لها.

علمًا أن النسخة المعتمدة هي ضبط وفهارس الدكتور صبحي الصالح.

مبقيها هو القيوم، وشأن القيوم أن لا تأخذه سنة ولا نوم، فالمخلوق يحتاج إلى علتين محدثة ومبقية.

وليس الله جسمًا فيصل إليه نظر بل هو مجسم الأجسام وهو -تعالى وتقدس- غيرها فلو ماثلها لشاركها في نقائصها، ولاحتاج إلى ما افتقرت إليه، لا بل هو خالقها ومدركها، مدرك ما فيها ومابه إدراكها وهو اللطيف الخبير.

ومن شأن خالقيته وقيوميته إحاطته بما خلق، فيحيط بأعمالهم وأسرارهم.

﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾[2].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[3].

وقدرته -جلّت عظمته- جامعة فهو القابض والباسط، وفي قبضته أزمة خلقه، وبيده تدبيرهم وهو المهيمن على الأمر كله.

ولئن أدرك موهوب العقل والمنعم عليه بالنظر وإمتداد البصر من بديع الخلق والصنع وعجيب القدرة وعظيم الهيمنة ونفوذ السلطان، فهو

---

(١) سورة الملك /١٤.

(٢) سورة آل عمران /٥.

(٣) سورة الكهف /٤٩.

إنما يدرك من ذلك طرفًا ويخبر شطرًا ولا يحيط بسرها خبراً، فما حيلته فيما أكتنفه الغيب، وأدوات المعرفة قاصرة برمتها عن إدراكه.

فلكل منها حد ومدى، وكافتها قاصرة متناهية فكيف تدرك ما لا يتناهى.

ودونك أيها العاقل الناظر مظهرًا من دلائل القدرة وإحكام الصنع، فأجل فيها النظر وأعمل الفكر، وسيان في ذلك ما ترى وما لا ترى وما تفاوت في الشأن من كبير وصغير فالكل جليل وخطير، بل منها أنت أنت بجسمك ولحمك ودمك وعقلك.

فما هو عرش جبّار السموات والأرض كيف أقامه مبدعه؟ وكيف ذرأ الخلق؟

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾[2].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران /٥٩.

(٢) سورة القيامة /٣٧ـ٣٩.

(٣) سورة غافر /٦٧.

﴿فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[١].

وهذه السماء معلقة في الهواء والأرض مدت على موج الماء.

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٢].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إلى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٣].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إلى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[٤].

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٥].

---

(١) سورة الطارق /٥ـ٧.

(٢) سورة الرعد /٢.

(٣) سورة الغاشية /١٧ـ٢٠.

(٤) سورة ق /٦ـ٨.

(٥) سورة لقمان /١٠ـ١١.

فمن استفرغ وسعه وتجرد وتمحض جهده بقلبه وفكره ليقف على هاتيك العلل وتلكم الأسرار فما يجني من عنائه إلاّ تعطل قواه وفقده لآلات إدراكه يتملكه الإنبهار وتأسره الحيرة فيتقهقر عقله وتضعف حواسه، فقد حمّل قواه ما لا تقوى على حمله.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1].

وبعد...

فالاعتراف بالعجز أقوم وأهدى وأبعث على الخشوع والخضوع لكبرياء ذي العظمة والجبروت والملك والملكوت.

هذا وجليٌّ عن البيان سريان الروح القرآنية في جمل مولى الموحدين وكلماته، ولا غرو فإنها ممن هو مع القرآن والقرآن معه وهو قرآن الله الناطق وترجمانه الصادق، وهي ظاهرة لافتة في كلمه غنية عن البرهان.

٢) هداية الخلق إلى الحق وإقامة الحجة:

«وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إلى الْجِنِّ وَالإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُم عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلاَلِهَا وحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ سُبْحَانَهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ

---

(١) سورة الملك /٣ـ٤.

مِنْ جَنَّة وَنَار، وَكَرَامَة وَهَوَان»(١).

ويقرر الإمام عليه السلام بعد أن صدّر خطبته بجملة من صفات الله جل جلاله أنه -سبحانه- خلق الثقلين وجعل الدنيا لهم سكنًا، ولطف بهم فلم يتركهم هملًا بل بعث إلى القبيلين رسله العالمين بمقاصده الواقفين على هديه، ومهمتهم العظمى الإرشاد إلى الحق، والكشف عن حقيقة الدنيا التي هم فيها مقيمون وعنها راحلون، والتبصير الدقيق بما انطبعت عليه واصطبغت به شؤونها، فيها ضراء فليحذروا منها، وفيها أمثال وعبر جرت على من حلّ بساحتها، وفيها معايب فليعلموها، وليتجنّبوها.

وقد مكّن الله رسله المصطفين من أدوات التبليغ وآلاته بمنطق من القول معبر يجسد للخلق عوارض الدنيا وتبدل أحوالها ومواطن الضعف والقوة فيها والضر والنفع بل وما شرع فيها ولها من أحكام فشمل كافة جنباتها وتعم الساكنين فيها.

ومن مهام هداة الخلق إلى الحق تقرير أمر المعاد ومجازاة العباد، وأن الله عدل لا يجور، فكل يقدم على ما قدّم، ولا يخرجون عن دائرة الإطاعة والعصيان، وقد أعدّ لهم خالقهم ومن له الحجة البالغة عليهم مجازاتهم على أعمالهم فلأهل الطاعة الجنة والكرامة، ولأهل المعصية النار والهوان.

ومقولة علي هي مقولة الله في قرآنه:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢).

---

(١) خ ١٨٣ /٢٦.

(٢) سورة الذاريات /٥٦.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(١).

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٢).

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٣).

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٤).

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٥).

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ

---

(١) سورة الملك /٢.

(٢) سورة الشورى /١٣.

(٣) سورة الزمر /٧١.

(٤) سورة فاطر /٢٤.

(٥) سورة الأنعام /١٥١.

عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[١].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيه ﴾[٣].

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[٤].

﴿فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ۞ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سَعَى ۞ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ۞ فَأَمَّا مَن طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[٥].

﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء

---

(١) سورة آل عمران /١٣٧.

(٢) سورة يوسف /١٠٩.

(٣) سورة الانشقاق /٦.

(٤) سورة القلم /٣٥ـ٣٦.

(٥) سورة النازعات /٣٤ـ٤١.

رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[١].

وقد جمع الإمام في كلمه البليغ وحديثه الوجيز أصول العقائد حيث أصل التوحيد المنبثق عنه تفرد الله ﷻ بالخالقية وقوامه العدل في البرية والقضية ثم عرّج على حكمة بعث المرسلين ومازوّدهم به باعثهم بقدرات أقدرهم عليها وملكات يتحلون بخصائصها ليهدوا الخلق إلى الحق؛ إلى صراط مستقيم ثم ختم قوله بعود العباد إلى ربهم يوم المعاد وتوفيتهم حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم بالنعيم الدائم والجحيم المقيم.

٣) شهود الأعمال:

«اعْلَمُوا، عِبَادَ الله، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لاَ تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلاَ يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُورِتَاجٍ»[٢].

«فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ، إِن أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِن أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بِذلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً، لاَ يُسْقِطُونَ حَقّاً، وَلاَ يُثْبِتُونَ بَاطِلاً»[٣].

الله –عمّت قدرته– بيده أزمة الأمور، ومحيط بكل شيء، ولا يغيب عنه دقيق، ولا تخفى عليه خافية، وكفى به عالمًا وحاسباً.

---

(١) سورة هود /١٠٥ـ١٠٨.

(٢) خ ١٥٧ /٢٢٢.

(٣) خ ١٨٣ /٢٦٦.

ولكنه -جلّت حكمته- أقام على من هم في قبضته ونواصيهم بيده وتصرفهم برعايته شهودًا ورقباء وكتابًا وحسّاباً من ذواتهم أنفسهم ومن غيرهم والكل يرصد ويدّون ويسجل ما يقف عليه لا فرق لديه بين سر وعلن فلا أبواب ولا حجّاب، ولا غلط ولا شطط ولا إهمال ولا إغفال ولا محاباة ولا إجحاف بل هو الحق والصدق وعين الواقع.

ويتمثل في إقامة أولئكم الرصد -وهم ذوو عدد- أمران جليلان: القدرة الجامعة، والحكمة البالغة.

فسبحان الخالق القادر الذي أبدع ما خلق وأودع فيه ما أراد فخلق من عالم آخر موكلًا بخلقٍ آخر يحصى عليه ما يقول وما يفعل بل وما أسر وأخفى لا يصده عن ذلك حاجز ولا يقف دونه مانع.

كما أقام على الإنسان رصدًا من نفسه فإذا بكل شؤونه تشهد عليه بحق وتنطق بصدق، ولئن كانت تلكم الجوارح مختارة فيما تفعل وتترك فهي الآن مسلوبة الاختيار تفصح إضطرارًا وتعلن جهارًا إجابة لمن خلقها وأقدرها على رصد الأعمال وحفظها والإدلاء بها.

وإنها لحكمة بالغة كما هي حجة دامغة حيث يعمق في فكر الإنسان ووجدانه أن الله بارئه والمحيط بشأنه كله قد وظّف ملائكته بل أقام الإنسان على نفسه عيناً ناظرة وأذاناً سامعة وقوة محيطة نافذة فذلك أدعى لكبح الجماح وحفظ الانضباط ودوام الاستقامة.

كما أنها -ويا للخجل- تظهر مدى حمق الإنسان، وعنف تمرده، وشدة انفلاته، وبالغ تنكّره للمعروف، وجحده للنعم، وقبيح إساءته

لجميل الإحسان.

قال الله العظيم:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾(١).

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾(٢).

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(٣).

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٤).

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٥).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۞ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٦).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللهِ إِلى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا مَا

---

(١) سورة الحاقة /١٨.

(٢) سورة غافر /١٦.

(٣) سورة الزخرف /٨٠.

(٤) سورة الأنبياء /٤٧.

(٥) سورة الانفطار /١٠ـ١٢.

(٦) سورة ق /١٦ـ١٨.

جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٣).

٤) العقل أنفس جوهرة إلهية موهوبة:

«ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذا أَذْهَان يُجِيلُهَا، وَفِكَر يَتَصَرَّفُ بِهَا»(٤).

وهذه الجوهرة الفريدة قوام الإنسان وكماله، وبكمالها يسمو على الملائكة كما أنه بفقدها ينحط عن البهائم العجم.

«إن الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من

(١) سورة فصلت /١٩ـ٢٢.

(٢) سورة النور /٢٤.

(٣) سورة يس /٦٥.

(٤) خ ١ /٤٢.

الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم»[١].

والعقل دليل العقائد الحقة، وتمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، ولكنه العقل الزاكي والصافي غير المشوب بالأدران والكدر.

وقد أفاض الإمام عليه السلام في حديث العقل وعظيم شأنه وريادته وإبتلائه وآفاته الطامسة لنوره والمميتة لروحه.

«وَاعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ»[٢].

«قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ»[٣].

«قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ»[٤].

«نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ»[٥].

«شَهِدَ على ذلكَ العَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الهَوَى، وسَلِمَ مِنْ عَلائِقِ الدُّنْيا»[٦].

«وكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوًى أَمِيرٍ»[٧].

وقرر بليغ دوره هاديًا، والانقياد إلى هديه شرفًا ومائزاً ممن حرم منه.

---

(١) وسائل الشيعة ١١/١٦٤.

(٢) خ ٨٦ /١١٨

(٣) خ ١٠٩ /١٦٠

(٤) خ ٢٢٠ /٣٣٧.

(٥) خ ٢٢٤ /٣٤٧.

(٦) ك ٣ /٣٦٥.

(٧) م ٢١١ /٥٠٦.

«فإِنَّ العَاقِلَ يَتَّعِظُ بالآدَابِ، والبَهائِمُ لا تَتَّعِظُ إِلّا بِالضَّرْبِ»[(١)].

وإنه الغنى كله.

«إِنَّ أَغْنَى الغِنَى العَقْلُ، وأَكْبَرَ الفَقْرِ الحُمْقُ»[(٢)].

وإنه ميزان الحق وعلى ضوئه تستقبل الأمور.

«اعْقِلُوا الخَبَرَ إذا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لا عَقْلَ رِوَايَةٍ، فإِنَّ رُوَاةَ العِلْمِ كَثِيرٌ، ورُعَاتَهُ قَلِيْلٌ»[(٣)].

بل جعله لبّ الحياة وروحها، وقدوة الأفكار.

«الرُّوحُ حَياةُ البَدَنِ، والعَقْلُ حَياةُ الرُّوحِ»[(٤)].

«العُقُولُ أَئِمَّةُ الأَفْكارِ»[(٥)].

وكم له –سلام الله عليه– في تحليل أبعاده، وعظيم خطره، وجميل أثره من قول شارح وبيان كاشف.

٥) الجوارح ووظائفها:

«جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا، وَأَشْلاَءً جَامِعَةً لأَعْضَائِهَا، مُلاَئِمَةً لأَحْنَائِهَا في تَرْكِيبِ صُوَرِهَا، وَمُدَدِ

---

(١) ك ٣١ /٤٠٤.

(٢) م ٣٨ /٤٧٥.

(٣) م ٩٨ /٤٨٥.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠ /٢٧٨.

(٥) مستدرك الوسائل ١١/٢٠٧.

عُمُرِهَا، بِأَبْدَان قَائِمَة بِأَرْفَاقِهَا، وَقُلُوب رائِدَة لِأَرْزَاقِهَا، فِي مُجَلِّلاَتِ نِعَمِهِ، وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ. وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ»[1].

تناول الإمام عليه السلام في هذا المقطع حديثاً موجزاً جامعاً عن خلق الإنسان وطرفاً من أعضائه وقواه مذكراً بوظائفها التي خلقت وأودعت من أجله في المنعم عليه بها في فترة امتحان وأجواء ابتلاء تزخر بالنعم وتنبض بالقوة والقدرة وتكتنف بالغيب والمجهول.

أ- السمع، ب- البصر، جـ- الأشلاء الجامعة للأعضاء، وهو هنا الجسد، د- البدن، هـ- القلب.

فهذه من أجزاء تركيبة الإنسان وتشكله في جوارحه وقواه.

والسمع والبصر طريقان للعلم، وقد أريد لهما أن يدرك بهما: وعي ما عنى، وجلاء ما عشى.

والهيكل البديع العجيب قد أحكم تركيبه ونفخت فيه القدرة ليقوم بأعماله جالباً لمنافعه ودافعاً لمضاره. ولئن أودعت القوة في حاستي السمع والبصر وفي بقية الحواس كافة والبدن فلا غنى لها عن رائد يسوسها ويقوم بتوجيهها وذلك هو: القلب. فإن أدى حق الريادة ووفّى بشؤونها فقد سلك بها غاياتها ووجهها مقاصدها ونعمت بمجللات النعم وسوابغ العطاء وصّدها عن التنكر وحجز عنها المكاره. هذا وهي تفعل فعلها وتقطع مداها لا تدري متى يقضى عليها فتموت فلا سمع ولا بصر ولا قلب ولا نبض ولا بدن ولا قوام، فقد لفّها الغيب وستر عنها الأجل.

---

(١) خ ٨٣ / ١١٠.

وأفاض الإمام (عليه السلام) بعد هذا في التذكير والاعتبار والتأمل في تـاريخ الأمم السالفة والأقربين الأدنين من الأهل في تقلبات العمر وتبدل القوى وتفاوت الأحوال والأوضاع.

وبعد...

فقد قال الله في محكم الكتاب:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[١].

وقال -جلّت صنعته-:

﴿واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

وقال (عليه السلام):

«ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِساناً لاَفِظاً، وَبَصَراً لاَحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً»[٣].

«فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَان، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَان، لاَ يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ، وَلاَ بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ، فَذلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءَ»[٤].

---

(١) سورة الإسراء /٣٦.

(٢) سورة النحل /٧٨.

(٣) خ ٨٣ /١١٢.

(٤) خ ٨٧ /١١٩.

«وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بَلَبِيب، وَلاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيع، وَلاَ كُلُّ ذِي نَاظِرٍ بِبَصِير»[١].

«وَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عِنْدَهُ»[٢].

وفي خطبة ١٧٦ تقرير ذلك بنحو آخر فيه قيام الموازنة بين استقامة القلب واستقامة اللسان.

«وإِنَّما الأَجْرُ في القَوْلِ بالْلِسانِ والعَمَلِ بِالأَيْدِي والأَقْدَامِ»[٣].

«أَوْضَعُ العِلْمِ ما وُقِفَ على الْلِسانِ، وأَرْفَعُهُ ما ظَهَرَ في الجَوَارِحِ والأَرْكانِ»[٤].

والأركان هي أعضاء البدن الرئيسة.

وبعد...

فهذا طرف من ركيزة التوحيد وإنبثاق كل خير وإبداع عن تجلي القدرة والحكمة في الخلق والتكوين والتشريع والتقنين، وإقامة الحجة البالغة بالهداية الإلهية، والألطاف الربانية الجلية والخفية والظاهرة والباطنة.

---

(١) خ ٨٨ /١٢١.

(٢) خ ١٥٤ /٢١٦.

(٣) م ٤٢ /٤٧٦.

(٤) م ٩٢ /٤٨٣.

والله ﷻ هو الحق تبارك ربنا وتعالى.

النبي الأعظم ﷺ المثل الأعلى للخُلُق الإلهي

وقد اقتضت الحكمة الإلهية واللطف الرباني هداية الخلق وسوقهم إلى الحق بإقامة من اصطفاهم الله بعينه واصطنعهم لنفسه مربِّين لعباده ومرشدين لبريته.

وكان نبي الإسلام خيرة الخيرة وصفوة الصفوة المنتجبة نبراس الحق ولسان الصدق وميزان العدل والصراط المستقيم كلمة الله الحسنى ومظهر صفاته العليا والكمال المجسد، ونموذج التربية الإلهية.

المقام الأجل للنبي الأكمل عند خالقه ومرسله :

وقد ترجم الله حبيبه في كتبه المنزلة على رسله، وبشرهم برسالته ونعت لهم خلاله وخصاله، كما أفاض في حديثه عنه في قرآنه العظيم وذكره الحكيم معجزته الكبرى وسفر الحياة والخلود مظهر إعجازه وقدرته في التشريع والتدوين كما محمد مظهر إعجازه وقدرته في التكوين.

وأعظم بجلال محمد أن يوليه بارئه عنايته الفذة فينشر مدحته، ويسبغ عليه من صفاته، ويقرن محبته بطاعته، ويجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

فهذه آيات الله في قرآنه وحديثه عن حبيبه ومصطفاه -صلوات الله وتسليماته ورحماته وبركاته عليه وآله- ممثلة جميل خلاله وشريف خصاله وطيب سريرته وكمال سيرته.

الرحمة الواسعة:

الآية الأولى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1].

الآية الثانية:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[2].

اللطف والحنان:

الآية الثالثة:

﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

الصلاح والإصلاح:

الآيات الرابعة والخامسة والسادسة:

---

(١) سورة الأنبياء /١٠٧.

(٢) سورة آل عمران /١٥٩.

(٣) سورة التوبة /١٢٨.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِالله وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١].

الدعوة إلى الصدق:

الآية السابعة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[٢].

الولاية والقيمومة:

الآية الثامنة:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٣].

الآية التاسعة:

---

(١) سورة الأعراف /١٥٦ـ١٥٩.

(٢) سورة الأحزاب /٤٥ـ٤٦.

(٣) سورة الأحزاب /٦.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[1].

مقياس الحب الإلهي:

الآية العاشرة:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

الآية الحادية عشرة:

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[3].

العصمة المطلقة:

الآية الثانية عشرة:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[4].

---

(١) سورة الأحزاب /٣٦.

(٢) سورة آل عمران /٣١.

(٣) سورة النساء /٨٠.

(٤) سورة النجم /٢ـ١١.

روح الحياة:

الآية الثالثة عشرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١].

الآية الرابعة عشرة:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٢].

الآية الخامسة عشرة:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

الآية السادسة عشرة:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٤].

وبعد فهذه طائفة من قول الله في رسوله بثها في سور قرآنه وأبان فيها منزلته عنده ورفيع مقامه لديه وجليل خصائصه وعظيم دوره وشريف مقاصده.

---

(١) سورة الأنفال /٢٤.

(٢) سورة الحشر /٧.

(٣) سورة القلم /٤.

(٤) سورة الجمعة /٢.

فهو ﷺ كما اصطنعه بارئه وباعثه:

رحمة للعالمين، ليّن الجانب، غير فظ، ولا غليظ القلب، رؤوف رحيم، هاد إلى الحق القويم والصراط المستقيم، بشير ونذير وسراج منير، أولى بالمؤمنين من أنفسهم أمره أمر ربه ونهيه نهيه، وإتباعه دليل محبة الله، مثال العصمة والكمال، دعوته هي الحياة، على خلق عظيم، أخرج الناس من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم وكفى له شرف مقام وجماع أمر أنه «أديب الله» ومن أدّبه ربُّه فأحسن تأديبه[١].

ترجمة الوصي للنبي - صلى الله عليهما وآلهما -

و كما عرّف الله -جلّت كلمته- خير خلقه وسيد رسله وإمام أنبيائه فقد عرّف من عرفه من عباد الله سيّد أوليائه وقدوة أصفيائه، الخبير بسره، وشريكه في أمره لحياته، واللصيق به في كافة أدواره، ومن هو قلبه وروحه ونفسه.

هذا وقد قال النبي عن الولي: «ولا يعرفني إلا الله وأنت»[٢].

فماذا قال علي عن محمد؟

لقد علق الإمام بالنبي وتعلّق به واتحد به قلبًا وقالبًا فهو فكره وعلى لسانه يلذ له الحديث فيه وعنه لهجًا بذكر تاريخه سوابقه ولواحقه وأمجاده ومآثره وإنجازه وإعجازه مستوليًا على مشاعره أمره، مهيمنًا عليه كله.

---

(١) بحار الأنوار ٢٣١/١٦.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٢٦٧/٣ـ٢٦٨.

فلنحيا مع النبي في صورته وحقيقته كما يرسمها ويصورها مجسدًا الوصي من خلال ما أودعه من صادق القول ودقيق الوصف في (نهج البلاغة).

١- الأمة التي بعث إليها النبي:

أ) العقيدة والدين:

«وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّه لله بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِد في اسْمِهِ، أَوْ مُشِير إلى غَيْرِهِ»[١].

«وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ عَلَى شَرِّ دِين، وَفِي شَرِّ دَار، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجارَة خُشْن، وَحَيَّات صُمٍّ»[٢].

ب) الأمية المميتة:

«إنَّ اللهَ سُبحانَه بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً»[٣].

ج) الوضع الاجتماعي المتردي:

الفتن المدمرة:

«وَالنَّاسُ في فِتَن انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي اليَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَتَشَتَّتَ الأَمْرُ، وَضَاقَ المَخْرَجُ، وَعَمِيَ المَصْدَرُ،

---

(١) خ ١ /٤٤.

(٢) خ ٢٦ /٦٨.

(٣) خ ٣٣ /٧٧.

فَالهُدَى خَامِلٌ، والَعَمَى شَامِلٌ. عُصِيَ الرَّحْمنُ، وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ، وَخُذِلَ الإِيمان، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَتَنكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ، وَعَفَتْ شُرُكُهُ. أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلامُهُ، وَقَامَ لِوَاؤُهُ، في فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَوَطِئَتْهُمْ بأَظْلاَفِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، في خَيْرِ دَار، وَشَرِّ جِيرَان»[١].

الدمار الشامل:

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَة مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَة مِنَ الأُمَمِ، وَاعْتِزَام مِنَ الْفِتَنِ، وَانتشار مِنَ الأُمُورِ، وَتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، والدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ، ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اصْفِرَار مِنْ وَرَقِهَا، وَإِيَاس مِنْ ثَمَرِهَا، وَاغْوِرَار مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ أَعْلامُ الْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلاَمُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ، فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ»[٢].

الضلال المطبق:

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَة، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَة، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاَءُ؛ حَيَارَى فِي

---

(١) خ ٢ /٤٦-٤٧.

(٢) خ ٨٩ /١٢١.

زَلْزَال مَنَ الأُمْرِ، وَبَلاَء مِنَ الْجَهْلِ»[١].

«لاَ يَأْوُونَ إلى جَنَاحِ دَعْوَة يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلاَ إلى ظِلِّ أُلْفَة يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا، فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُمُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلاَءِ أَزْل، وأَطْبَاقِ جَهْل! مِنْ بَنَات مَوْءُودَة، وَأَصْنَام مَعْبُودَة، وَأَرْحَام مَقْطُوعَة، وَغَارَات مَشْنُونَة»[٢].

٢- مهام النبي الكبرى:

أ) التوجيه إلى الله وحده:

«فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأُوْثَانِ إلى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إلى طَاعَتِهِ»[٣].

ب) الشهادة والبشارة والنذارة:

«حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ شَهِيداً، وَبَشِيراً، وَنَذِيراً»[٤].

ج) الهداية المستوعبة:

«وَبَعَثَ إلى الْجِنِّ وَالإنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُم عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَر مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحلاَلِهَا

(١) خ ٩٥ /١٤٠.

(٢) خ ١٩٢ /٢٩٧-٢٩٨.

(٣) خ ١٤٧ /٢٠٤.

(٤) خ ١٠٥ /١٥١.

وحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ سُبْحَانَهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّة وَنَار، وَكَرَامَة وَهَوَان»(١).

٣- دعامة الدعوة ومستندها:

أ) «إِنَّ اللهَ تَعالَى بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائمٍ»(٢).

ب) «ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي، وَالْكِتَابِ الْهَادِي أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَة، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَة، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ، عَلا بِهَا ذِكْرُهُ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّة كَافِيَة، وَمَوْعِظَة شَافِيَة، وَدَعْوَة مُتَلافِيَة»(٣).

جـ) «أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ المشْهُورِ، وَالعَلَمِ المأْثُورِ، وَالكِتَابِ المسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللاَّمِعِ، وَالأمْرِ الصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجاً بِالبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالمَثُلاَتِ»(٤).

٤- البلاء الحسن الجميل:

أ) الاستماتة في الإبلاغ والدعوة:

«فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إلى الحِكْمَةِ

---

(١) خ ١٨٣ /٢٦٥.

(٢) خ ١٦٩ /٢٤٣.

(٣) خ ١٦١ /٢٢٩ـ٢٣٠.

(٤) خ ٢ /٤٦.

وَالمَوْعِظَةِ»[١].

ب) تحمله ضروب الأذى:

«خَاضَ إلى رِضْوَانِ الله كُلَّ غَمْرَة، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّة، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَه الاَدْنَوْنَ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وَضَرَبَتْ إلى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ المَزَارِ»[٢].

٥- قمة النجاح وغاية التوفيق:

أ) الهداية والإنقاذ من الضلالة والجهالة:

«فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلاَلَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بمَكانِهِ مِنَ الجَهَالَةِ»[٣].

ب) السَّوق إلى الكمال:

«فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ»[٤].

ج) إقامة راية الحق:

«وَخَلَّفَ فِينَا رايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَق، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ،

---

(١) خ ٩٥ /١٤٠.

(٢) خ ١٩٤ /٣٠٧.

(٣) خ ١ /٤٤.

(٤) خ ٣٣ /٧٧.

وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ»[١].

د) عموم البركة وسبوغ النعمة:

«فَانْظُرُوا إلى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ، قَدْ تَرَبَّعَتِ الأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الأَرَضِينَ، يَمْلِكُونَ الأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لاَ تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَلاَ تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ!»[٢].

ومن مواطن النجاح الباهر:

إماتة الأحقاد:

«دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ»[٣].

جمع القلوب وتفريق الباطل المجتمع:

«وأَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً»[٤].

---

(١) خ ١٠٠ /١٤٦.

(٢) خ ١٩٢ /٢٩٨.

(٣) خ ٩٦ /١٤١.

(٤) خ ٩٦ /١٤١.

الإعزاز والإذلال:

«أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ»[١].

وبعد...

فهذه المقتطفات غيض من فيض لهج بها ربيب محمد وصفيه انتقيتُ منها طرفاً مما اتصل بالدعوة من مقومات ودعائم ومناخ ونجاح ولم أعرض نماذج أخرى حول بقية الشؤون النبوية مما أوردت شطرًا وأوفر من هذا في: (العقائد من نهج البلاغة) ص١٦٢-٢٣٤، ويبقى (نهج البلاغة) زاخرًا موّاجًا يمدّنا بخير تعريف وأروع توصيف.

(١) خ ٩٦ /١٤١.

الإمام علي عليه السلام أنموذج الكمال

والحكمة المقتضية لبعث النبي مضطردة في تولي الإمام الوصي لامتداد الإمامة للنبوة اتحاداً في المصدر والجعل وإجتماعاً في الهدف والمقصد.

وكان علي -بعد نبي الله- نسخة الإسلام الفريدة التي أبدعها قلم التكوين كما أبدع عدلها الآخر قلم التشريع والتدوين فكلاهما حق وكلاهما قرآن.

«عَلِيٌّ معَ الحقِّ والحقُّ معَ علي)، «عليٌّ معَ القرآنِ والقرآنُ معَ علي»، كما قال الصادق الأمين على وحي الله عن علي ولي الله.

وهل يرقى لمثل هذا تعريف أو توصيف؟!

ومن عسى أن يكون عارفاً ومعرّفاً غير خالق البشر وسيد البشر؟!

«لا يَعْرِفُكَ يا عليُّ إلّا اللهُ وأنا»، هذا وقد تبوّأ مقاماً منفرداً قال عنه: «وأنا مِنْ رسولِ اللهِ كالضَّوءِ مِنَ الضَّوءِ والذِّرَاعِ مِنَ العَضُدِ»[1].

---

(١) ك ٤٥ /٤١٨.

وقد رصد التاريخ عليًّا في كافة أدواره منذ إشراقة نوره في بيت الله الحرام وكعبته المقدسة وأيام صباه وفتوته وكهولته وشيخوخته وما حفلت به من متكاثر الأحداث ومتفاقم الخطوب وشؤون الجهاد الطويل والحروب الضروس والسلم وإدارة الحكم وتوجيه الأمة وهدايتها، وأخلاقه العمليّة مع الكافة وليّه وعدوّه، وفترتي الشدة والرخاء متتبعاً يومياته وجزئيات ممارساته حتى لحق بربه فكانت السيرة الواحدة والحياة المنسجمة التي لم يجد فيها عوجاً ولا أمتاً.

كما تحدث علي عن نفسه في وافر من شؤونه حتى طعامه ولباسه فجسّد في أقواله أخلاقه كما جسّدها في أفعاله.

فلنأخذ من علي عن علي صورة كاملة معبرة أودعها في (نهج البلاغة) وأبدع رسمها حتى أبرزته مجسداً بأبراد الجمال وقالب الكمال في فكره ونبض قلبه ونقاء نفسه وشمائله وما أسبغ عليه مبدعه من ألطاف وإتحاف تحدث بها عن نعمة ربه عليه وحظوته لديه ومنزلته عنده وقربه منه.

١) بداية الروائع خزانة الإبداع:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ الله ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ: وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إلى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ... وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَماً مِنْ أَخْلاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالاقتداء بِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صلى الله عليه وآله فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ، وَلكِنَّكَ أَوَ إِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ»[1].

وقال عن الشجرة وما ظهر من إعجاز رسول الله فيها:

«فقلتُ أنا: لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ، إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ الله، وأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ الله تَعَالى تَصْدِيقاً لِنُبُوَّتِكَ، وإِجْلالاً لِكَلِمَتِكَ»[2].

٢) مقومات شخصيته:

«فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا[3]، ونَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا[4] وَمَضَيْتُ بِنُورِ الله حِينَ وَقَفُوا، وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَأَعْلاَهُمْ

---

(١) خ ١٩٢ /٣٠٠ـ٣٠١.

(٢) م ن /٣٠٢.

(٣) تَقَبَّعُوا: اختبأوا.

(٤) تَعْتَعُوا: ترددوا في كلامهم من عِيٍّ أو حَصَر.

فَوْتـاً، فَطِـرْتُ بِعِنَانِهَـا[١]، وَاسْـتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَـا[٢]، كَالْجَبَـلِ لاَ تُحَرِّكُـهُ الْقَوَاصِفُ، وَلاَ تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُـنْ لِأَحَـدٍ فِيَّ مَهْمَـزٌ، وَلاَ لِقَائِـلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ، الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَـهُ، وَالْقَـوِيُّ عِنْـدِي ضَـعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا للهِ أَمْرَهُ. أَتَرَانِي أَكْـذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ[٣]؟ وَاللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَـذَبَ عَلَيْهِ»[٤].

٣) نبراس الحق واليقين:

أ) «وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِـنْ نَبِيِّـي، وَإِنِّي لَعَـلَى الطَّرِيـقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً»[٥].

«فَوَالَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُـوَ إِنِّي لَعَـلَى جَـادَّةِ الْحَـقِّ، وَإِنَّهُـمْ لَعَـلَى مَزَلَّـةِ الْبَاطِلِ»[٦].

«وَاللهِ مَـا أَسْـمَعَكُمُ الرَّسُـولُ شَـيْئاً إِلاَّ وَهَـا أَنَـا ذَا الْيَـوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ»[٧].

---

(١) العنان: عنان الفرس.

(٢) الرهان: الجعل الذي وقع عليه التراهن.

(٣) في المطبوع صلاة بتراء هنا.

(٤) خ ٣٧ /٨٠ـ٨١.

(٥) خ ٩٧ /١٤٢.

(٦) خ ١٩٧ /٣١٢.

(٧) خ ٨٩ /١٢٢.

ب) «(فَـأَيْنَ تَـذْهَبُونَ)؟ و(أَنَّـى تُؤْفَكُـونَ)[١]! وَالْأَعْـلَامُ قَائِمَـةٌ، وَالْأَيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَـأَيْنَ يُتَـاهُ بِكُـمْ؟ وَكَيْـفَ تَعْمَهُـونَ[٢] وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ؟ وَهُمْ أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَأَعْـلَامُ الـدِّيْنِ! وَأَلْـسِنَةُ الـصِّدْقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ[٣] الْعِطَاشِ»[٤].

٤) مؤهلات وامتيازات:

أ) «تَـاللهِ لَقَـدْ عُلِّمْـتُ تَبْلِيـغَ الرِّسَـالاَتِ، وَإِتْمَـامَ الْعِـدَاتِ، وَتَمَـامَ الْكَلِمَاتِ. وَعِنْدَنَا -أَهْلَ الْبَيْتِ- أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ»[٥].

ب) وقال عليه السلام قبل موته:

«غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي»[٦].

ج) من جملة كلامه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«بَلِ انْدَمَجْتُ[٧] عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِـهِ لَأَضْـطَرَبْتُمُ اضْـطِرَابَ

---

(١) تُؤفكون: تُقلبون وتُصرفون.

(٢) تعمهون: تتحيّرون.

(٣) الهيم: الإبل.

(٤) خ ٨٧ /١١٩ـ١٢٠.

(٥) خ ١٢٠ /١٧٦.

(٦) خ ١٤٩ /٢٠٨.

(٧) اندمجت: انطويت.

الْأَرْشِيَةِ[١] فِي الطَّوِيِّ[٢] البَعِيدَةِ!»[٣].

٥) التسليم المطلق - الاستقامة الفذة:

«وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا»[٤].

٦) الحكم وقيمته لولا...

وللإمام عليه السلام مقال واسع في أهمية الحكم وعظيم خطره وجليل أمره في ذاته وهوانه عنده بأساليب مثيرة ومعبرة تصديراً وتحليلاً وتمثيلاً.

أ) «أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ[٥] ظَالِمٍ، وَلا سَغَبِ[٦] مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ[٧]!»[٨].

---

(١) الأرشية: جمع رشاء، الحبل.

(٢) الطويّ: جمع طوية، البئر.

(٣) خ ٥ /٥٢.

(٤) خ ١٩٧ /٣١١.

(٥) الكظّة: ما يعتري الآكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن من الطعام.

(٦) السغب: شدة الجوع، والمراد منه هضم حقوق المظلوم.

(٧) عفطة عنز: ما تنثره من أنفها.

(٨) خ ٣ /٥٠.

ب) «قال عبدالله بن عباس (رضي الله عنه): دخلت على أَمِيرِالمؤمِنِين (عليه السلام) بذي قار وهو يخصِف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت: لا قيمةَ لها! قال: والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ من إمرَتِكم، إلاّ أن أُقيم حقًّا، أوأَدفع باطلاً»[1].

٧) الولي الحق:

أ) «وقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ وَالأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فتكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلاَ الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلاَ الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلاَ الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْم، وَلاَ الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ المَقَاطِعِ، وَلاَ المُعطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ»[2].

ب) «لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً. إِنِّي أُرِيدُكُمْ للهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وأَيْمُ اللهِ لَأُنْصِفَنَّ المَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً»[3].

٨) الدنيا عند إمام الدين:

أ) «فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا أَصْغَرَ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ[4]، وَقُرَاضَةِ

---

(١) خ ٣٣ /٧٦.

(٢) خ١٣١ /١٨٩.

(٣) خ ١٣٦ /١٩٤.

(٤) الحُثالة: القشارة وما لا خير فيه، وأصله كل ما يسقط من كل ذي قشر.

الجَلَمِ[١]، وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ؛ وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ»[٢].

ب) «وَاللهِ لَدُنْيَاكُمْ هذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عِرَاقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ»[٣].

٩) الموت هادم اللذات:

ومن كلامه في عمرو بن العاص:

«أَمَا واللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ المَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الْآخِرَةِ»[٤].

١٠) الأخلاق المثالية:

أ) في تريثه وتأخيره الحرب:

«فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلى ضَوْئِي، وذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا»[٥].

القَرَظ: ورق شجر السلم أو ثمر السنط يدبغ به.

(١) الجَلَم: مقراض يجز به الصوف، وقراضته: ما يسقط منه عند القرض والجز.

(٢) خ ٣٢ /٧٦.

(٣) ك ٢٣٦ /٥١٠.

(٤) خ ٨٤ /١١٥.

(٥) خ٥٥ /٩١.

ب) في النصر والهزيمة:

صدّرها ببراعة استهلال بثناء على الله تعالى عظيم ثم قال:

«إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشهَادَةَ وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ»[١].

ج) صدق الأقوال بصدق الأفعال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللهِ، مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلاَّ وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلاَ أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلاَّ وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا»[٢].

د) الاعوجاج والاستقامة:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوصِيَاءُ إِلى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا. للهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟»[٣].

هـ) منطق الصواب:

«اتَّقِ اللهَ في كلِّ صباحٍ ومساءٍ، وخَفْ على نَفْسِكَ الدُّنيا الغَرُورَ، ولا تَأْمَنْها على حالٍ، واعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كثيرٍ مِمّا تُحِبُّ مخافةَ مكروهٍ- سَمَتْ بِكَ الأهواءُ إلى كثيرٍ مِنَ الضَّرَرِ، فكُنْ لِنَفْسِكَ رادِعاً،

---

(١) خ ١٧١ /٢٤٥.

(٢) خ ١٧٥ /٢٥٠.

(٣) خ ١٨٢ /٢٣٦.

ولِنَزْوَتِكَ عندَ الحفيظةِ واقماً قامعاً»[١].

و) الاعتدال والوسطية:

«نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى[٢]، بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي»[٣].

ز) تواضعه:

أ- في إطرائه والثناء عليه:

وكان عليه السلام قد خطب بصفين خطبة أفاض فيها القول عن الحق وحقوق الوالي والرعية فأجابه رجل من أصحابه بكلام يكثر فيه الثناء عليه فقال عليه السلام هذه الوثيقة المعبرة:

«إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلاَلُ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ -لِعِظَمِ ذلِكَ- كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ ازْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً. وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالاَتِ الْوُلاَةِ عِنْدَ

---

(١) خ ٥٦ /٤٤٧.

(٢) «النُّمْرُقَةُ بضم فسكون فضم ففتح: الوسادة، وآل البيت أشبه بها للاستناد إليهم في أمور الدين كما يستند إلى الوسادة لراحة الظهر واطمئنان الأعضاء. ووصفها بالوسطى لاتصال سائر النمارق بها، فكأن الكل يعتمد عليها إما مباشرة أو بواسطة ما بجانبه. وآل البيت على الصراط الوسط العدل، يلحق بهم من قصر ويرجع إليهم من غلا وتجاوز». نهج البلاغة ص٧١٥، صبحي الصالح.

ومثل هذا التفسير لهذه اللفظة ورد في شرح أصول الكافي للمازندراني ٨/٢٤١ عند شرحه لهذه اللفظة من حديث آخر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وزاد هناك أنه يحتمل أن ذلك بحذف المضاف أي أهل النمرقة الوسطى كما هو شأن أهل الشرف والمجد.

(٣) ك ١٠٩ /٤٨٨.

صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ ـ بِحَمْدِ الله ـ كَذلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً لله سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ. وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلاَءِ، فَلاَ تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلى الله وإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لاَ بُدَّ مِنْ إِمْضائِهَا، فَلاَ تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلاَ تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلاَ تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلاَ تَظُنّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلاَ الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ»[1].

ب- في لباسه:

وقد رئي عليه إزار خَلَقٌ مرقوع، فقيل له في ذلك، فقال: «يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ»[2].

«وَالله لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلاَ تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ[3] عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى!»[4].

---

(١) خ ٢١٦ /٣٣٥.

(٢) ك ١٠٣ /٤٨٦.

(٣) اغْرُبْ: اذهب وابعد.

(٤) خ ١٦٠ /٢٢٩.

«أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأمُوم إِمَاماً، يَقْتَدِي بِـهِ، وَيَسْتَـضِيءُ بِنُـورِ عِلْمِـهِ. أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ»[١].

ج- في طعامه:

«وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ... وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَـدَيْتُ الطَّرِيـقَ، إِلى مُـصَفَّى هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْـحِ، وَنَـسَائِجِ هـذَا الْقَـزِّ، وَلكِـنْ هَيْهَـاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُـودَنِي جَـشَعِي إِلى تَخَـيُّرِ الْأَطْعِمَـةِ ـ وَلَعَـلَّ بِالْحِجَـازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لاَطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْـدَ لَـهُ بِالـشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيـتَ مِبْطَانـاً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وحَـسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيـتَ بِبِطْنَـةٍ ... وَحَوْلَـكَ أَكْبَـادٌ تَحِـنُّ إِلى الْقِـدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَـالَ: أَمِـيرُ المـؤمنينَ، وَلاَ أُشَـارِكُهُمْ فِي مَكَـارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَـيْشِ! فَـمَا خُلِقْـتُ لِيَـشْغَلَنِي أَكْـلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا،... وأَيْمُ الله -يَمِيناً أَسْـتَثْنِي فِيهَـا بِمَشِيئَةِ الله- لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَها إِلى الْقُرْصِ إِذَا قَدرتْ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً... أَتَمْتَلِيءُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ؟ وَتَـشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ؟ قَـرَّتْ إِذاً عَيْنُـهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ!»[٢].

---

(١) ك ٤٥ /٤١٧.

(٢) ك ٤٥ /٤١٧ـ٤٢٠.

١١) من صور العدالة:

«وَالله لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إلى الْبِلَى قُفُولُهَا، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا؟!»[(١)].

«وَالله لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا، مَا لِعَلِيّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَى! نَعُوذُ بِالله مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ»[(٢)].

١٢) الواقعية والإنسانية:

وصورة أخرى تحكي مخايل نفسه الشريفة وإنسانيته الفذة وتواضعه الجم ومعاني كبيرة تنبعث من ذاته المميزة

ويروي ابن أبي الحديد قوله وفعله لمّا مر عليه السلام بالأنبار وقد خرج أهلها «فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاؤوا يشتدون معه وبين يديه، ومعهم براذين قد أوقفوها في طريقه، فقال: ما هذه الدواب التي معكم؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم؟ قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء، وأما هذه البراذين فهدية لك، وقد صنعنا

---

(١) خ ٢٢٤ /٣٤٦.

(٢) خ ٢٢٤ /٣٤٧.

للمسلمين طعاماً، وهيأنا لدوابكم علفًا كثيراً.

فقال عليه السلام: أما هذا الذي زعمتم أنه فيكم خلق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء، وإنكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه؛ فإن أحببتم أن آخذها منكم، وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتم لنا؛ فإنا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بثمن»[1].

وبعد...

فهذه ملامح شخصية الإمام وشذرة من أخلاقه رويناها عنه، وأثبتها تاريخه رغم تنكره له، لكنها الحقيقة الناصعة، والحق الصراح المتجلي أنصع من الشمس.

(١) شرح نهج البلاغة ٣/٢٠٣.

الدنيا وشؤونها

والدنيا حافلة ببواعث الانشداد وتفاعل القوى، مترعة بعوامل التعلق والهوى، فيّاضة بالجمال والمغريات والمشتهى، مكمن تنزع اليه الرغائب، يحيا فيها الإنسان فتجذبه إلى حب بقائها والبقاء فيها، وتتغلغل في أعماقه فتملك عليه مشاعره، ويخلد اليها فتستهويه فلا يعقل سواها، وتأسره فتكون همه فيشتد للوله بها وامتلاك أسبابها.

وقد يرمقها عاقلاً فيحسن التعامل فيها بجميل التصرف في متعها، فتخادعه فلا ينخدع، وتغالبه فلا يغلب، بل يستولي عليها فيملكها ولا تملكه مهما فتنت وأغرت.

وحيث هي محور التنازع والصراع والافتتان والتجاذب فلا محيص للإنسان من إمداده ببصيرة نافذة، وقوة قادرة تفي له بالظفر والغلبة على كافة سبل سحرها وخداعها والركون اليها، والإنجذاب إلى مفاتنها، والسلامة من فتنها، والافادة منها دونها الافادة منه.

وهنا يتجلى دور (التربية الإلهية والهداية الربانية) فتمدانه بالحصانة وتبصرانه بمواقع الورطة والتعلق، وتنبهانه مواضع الغفلة، وتحكمان فيه

القوة والاقتدار لمعرفة أخفى السبل وأخبث الحيل للوقوع في الشراك، والاصطياد في الشباك.

والإمام علي صنيعة التربية الإلهية رائد الهداية ممنوح القوى الكاملة خبير بالدين عالم بالدنيا بصير بهما يزودنا بخير الهدي ودقيق التبصير فهو كما قال عليه السلام:

«أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا»[١].

فلنسر في (نهجه) ونسترشد ببليغ حكمه، ولنقتف خطاه فنسلك بذلك الصراط المستقيم فلا نضل ونأمن الحيرة والعثار.

١) الدنيا دار الابتلاء:

«وَأَهْبَطَهُ إلى دَارِ البَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ»[٢].

فالدنيا إنما خلقت محطة للابتلاء والامتحان ﴿الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[٣].

والذرية عامل من عوامل الفتنة فيها.

٢) حلاوتها المضلة:

«وَلكِنَّهُمْ حَلِيَتَ الدُّنْيَا في أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا»[٤].

---

(١) خ ١٢٨ /١٨٦.

(٢) خ ١ /٤٣.

(٣) سورة الملك /٢.

(٤) خ٣ /٤٩ـ٥٠.

فنكثوا لذلك بيعتهم، وتخلوا عن صفقة يمينهم، وتنكروا للحق الذي عرفوه، حباً منهم لحلاوة الدنيا، واستجابة لبريق زبرجها.

٣) مضمار العمل:

«أَلاَ وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمارَ، وَغَداً السِّبَاقَ، وَالسَّبَقَةُ[١] الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ؛ أَفَلاَ تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ! أَلاَ عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ! أَلاَ وَإِنَّكُمْ في أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ في أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ؛ وَمَنْ قَصَّرَ في أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ»[٢].

٤) الدنيا والاتعاظ بمن ركن إليها:

«فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا أَصْغَرَ في أَعْيُنِكُمْ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ[٣]، وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِ[٤]، وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ؛ وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْعَفَ بِهَا مِنْكُمْ»[٥].

ويوقفنا بيان هديه عليه السلام على أمور:

الأول: ينبغي للكيّس أن ينظر الدنيا حقيرة صغيرة فهي لا خير فيها

---

(١) السَّبَقة: بالتحريك، الغاية التي يجب على السابق أن يصل إليها.

(٢) خ ٢٨ /٧١.

(٣) الحُثالة: القشارة وما لا خير فيه، وأصله كل ما يسقط من كل ذي قشر.

القَرَظ: ورق شجر السلم أو ثمر السنط يدبغ به.

(٤) الجَلَم: مقراض يجز به الصوف، وقراضته: ما يسقط منه عند القرض والجز.

(٥) خ٣٢ /٧٦.

كالساقط من كل ذي قشر، وإن نفع فما هو إلا كورق السلم أو ما يدبغ به من ثمر السنط!

وما هي إلا ما يتساقط من صوف إذا اعمل فيه مقراض جزه.

الثاني: أن دراسة حياة من سقطوا في حب الدنيا أعظم معتبر فليربأ العاقل بنفسه ان يقع فيما وقعوا فيه، وليصن نفسه أن يعتبر به غيره.

الثالث: وما دامت حقيرة فلترفض فإن من هام بها أردته، ومن شغف بها تركته، فلا تكافئ المستهام بحبها الا تنكراً، وكلما أوغل في التعلق بها ازدادت عليه تمرداً وانقلاباً.

٥) التقييم الدقيق:

قال عليه السلام وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا:

«أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا، الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا! أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا؟ أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا، أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ؟ مَتَى اسْتَهْوَتْكَ أَمْ مَتى غَرَّتْكَ؟ أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى؟ كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ! تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ، غَدَاةَ لاَيُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ، وَلاَ يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ. لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطِلْبَتِكَ وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ! قَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ. إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا. مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ، وَمُصَلَّى مَلاَئِكَةِ اللهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ. فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ

آذَنَتْ بِبَيْنِهَا وَنَادَتْ بِفِراقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلاَئِهَا الْبَلاَءَ، وشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إلى السُّرُورِ؟! رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ وَابْتكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، ترغِيباً وَتَرْهِيباً، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً، فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فتَذَكَّرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا»[1].

والإمام عليه السلام بنظرته الثاقبة، وكشفه الواقعي لحقيقة (الدنيا) ومفهومها يقدم التصور ويصحح المفهوم الخاطئ الذي انطبع في أذهان الكثير حول (الدنيا) والقاء اللائمة عليها حتى كأنها ليس لها سمة الا الفتنة منها، والهيمنة والأسر وفي ذلك الخلط بين واقعها هي في ذاتها وبين المنشدين اليها والمتعلقين بها وعلة ذلك عدم النظر بموضوعية إلى جوهرها وواقعها، ولاسيما في فكر وعين الزاهدين فيها المعرضين عنها.

وهنا يتجلّى عمق بيان الإمام النافذ، وتحليله الدقيق، وتجليته الواقعية باستيعاب التأمل في كافة شؤونها، ولا سيما في المواطن الخفية لدى الكثير وقد أفاد عليه السلام في بيانه ما يلي:

أولاً: ضعف النفس والنظرة الضيقة:

فمن هو الذام للدنيا ولاعنها؟ انه المفتون بها، غرته فاغتر، وخدعته فانخدع، وقد علم بأباطيلها وزخرفها، فاللائمة عليه، والتبعة تخصه، فلو عقل مغرياتها لما جذبته، ولو حذر منها لما فتنته.

ثانياً: الوجه الآخر موطن التبصر والاعتبار:

---

(١) م ١٣١ /٤٩٢_٤٩٣.

فلماذا الاقتصار على الاغترار؟! وأيامها مسرح للأحزان والأشجان: ابتلاء بفقد أعز عزيز وأحب قريب. يشهد من يحيى فيها مصارع آبائه، ويودع في الثرى أمه التي ولدته، ويشقى بكرب أعز أهل مودته، ويسعى لإسعافهم جهد طاقته فلا ينفعهم همه، ولا يجديه سعيه وألمه، ولا يملك من أمره وأمرهم إلا بسخي دمعه حيث لا يعيد ميتاً ولا يشفي مريضاً.

ثالثاً: داؤك ودواؤك:

إنه الابتلاء المحيط بصاحبه في أعز الأنفس عليه وهي نفسه، فلئن كان يعالج مصائب ومصارع أمه وأبيه فهو الآن يصارع مرض نفسه، ويغص بريقه فهو المبتلى كما كانوا مبتلين والممتحن كما كانوا ممتحنين، وهو العاجز لا يدفع مرضاً ولا يمنع موتاً.

رابعاً: الصورة المشرقة:

فليست الدنيا فقط مرتعاً للغرور والأباطيل، وملعباً للشهوات والنزوات بل هي الدار المتسعة لمواطن الخيرات، الحافلة بجهات البركات، العامرة أرجاؤها بمباهج العطاء والمسرات المخصبة بمكامن القربات.

ويتحفنا الإمام -عليه صلوات ربّه- بمتنوع تلكم المناحي فيقول عنها:

أ) دار صدق:

فمن صدقها ورعى الحق أفاد منها، وعمرها بالخير عاجلاً وآجلاً.

ب) دار عافية:

ولكم لمن وعاها فسلم من بلائها وآفاتها مما يبتلى به من تعلق بأسباب الهلكة وبواعث العطب.

ج) دار غنى:

فيتزود مما فيها لآخرته زاداً، زاهداً في امتلاك بعضها أو كلها لذاتها اذ ليس هذا تزوداً وإنما هو الاكتناز وحب المال حبًّا جمًّا.

د) دار موعظة:

يمر فيها الإنسان عبر مراحل حياته وتفاوت أدواره وأطواره وليداً ويافعاً وكهلاً وشيخاً أضعفه أرذل العمر، فقيراً وغنياً وملكاً ورعية يَظلم ويُظلم، لا تستقر في أيامها أوضاع شدة ورخاء وصراع وتقلبات.

وكل هذا واعظ ومبصّر ولافت ومذكّر.

هـ) مسجد أحباء الله.

و) مصلّى ملائكة الله.

ز) مهبط وحي الله.

ح) متجر أولياء الله.

فالأرض جعلت مسجداً وطهورًا، وأحباء الله يعلمون أن أفضل القربات إلى الله مولاهم الصلاة يستكثرون منها ليلا ونهارا فهم في ذلك قد اتخذوا الدنيا مسجدا والحياة معبدا والدنيا بذلك عامرة بذكر الله وعلي القائل هذا القول هو القائل المقالة الأخرى المعبرة:

«الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة، فإن الجنة فيها رضا نفسي، والجامع فيها رضا ربي»[١].

وكما عمرها أحباء الله من البشر فكذلك عمرها أحباؤه من الملائكة وهم الأكثر عددًا والأدوم عبادة.

وفي هذا ما يأخذ بابن آدم إلى الفخر حيث يشارك خيرة الله من خلقه الذين ملأ بهم سماءه وأرضه ويحاكيهم في أنماط من عبادة مولى الخلق ورب العالمين.

والملائكة أمناء وحي الله وحملة علمه وهديه سفرة كرام بررة يهبطون به من عرش الله نسخة من اللوح والقلم صحفا مطهرة على الصفوة المنتخبة والخيرة المنتجبة فكان من ذلك التوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وموسى والقران العظيم والذكر الحكيم وشاركت الدنيا السماوات العلا حيث يتنزل من الاعلى ويهبط إلى الدنيا فيملأ أرجاء الأرض كما ملأ آفاق السماء.

وبهاذا تنال الجنة ويبلغ ماينعم فيها مما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر؟!

إن ذلك يدرك بالاتجار مع الله بصالح الأعمال، والمتجر الدنيا وأولياء الله يعملون ليل نهار فيها، «الدنيا مزرعة الآخرة»، ومن ثم فقد غنموا اكتساب الرحمة وربحوا الجنة.

وبعد...

---

(١) بحار الأنوار ٣٦٢/٨٠.

فإذا كانت الدنيا بهذه السمة وعظيم الشأن والمنزلة معمورة لصفوة الله وخالصة أوليائه مملوءة بألطافة ممنوحة باتحافه فهي ترتقي بذلك لتكون لمن عقل ووعى من شاكلة الجنة وسنخها.

خامسًا: الدنيا تحذر من نفسها:

فلا لائمة تنحى عليها بل هي على من لم ينظر إليها بعين باصرة ولم يصغِ إلى تحذيرها بإذن مستمعة كيف وقد أعلنت هي نفسها برحيلها وانقضائها وعدم بقائها على حال وأنبأت عن حياة الساكنين فيها ورحيلهم عنها بل وجسدت صورتين ناطقتين فصيحتين معبرتين إحداهما البلاء والمحنة والكربات والشدة وثانيتهما الرخاء والراحة والفرحة وقرة العين والغبطة.

وقد مثلت كذلك قائمة دائمة غدوة ورواحًا فهي ديدنها الإنذار والتذكير والتخويف والتحذير والترغيب والترهيب.

ويقرأ كلامه عليه السلام الذي قاله عند تلاوته ﴿يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾ ومنه ما يخص حديثنا هنا: «وَحَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ، وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ...»[1]، فإنها أجل من أن يقال عنها جليلة، تأخذ بمجامع القلوب وتحيي الضمائر وتهدي إلى سواء السبيل.

سادسًا: تجلي المواقف:

---

(١) خ ٢٢٣ /٣٤٤_٣٤٥.

وستتجلى النتائج غداة العواقب فلسانٌ ذامٌّ يوم الحسرة والندامة حيث لم يكن مرعويًا بالعبر متعظاً بالغِيَر يرى صنيعه سيئًا وعمله وبالاً، ولسانٌ حامد شاكر حيث كان له قلب وألقى السمع وهو شهيد، إذ أصغى لتحذيرها وادّكر لتذكيرها واتّعظ بمواعظها فسلم وغنم.

عاملا الدنيا:

«النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَامِلاَنِ: عَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يَخْلُفُهُ الْفَقْرَ، وَيأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ. وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَأَحْرَزَ الْحَظَّيْنِ مَعاً، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً، فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَاللهِ، لاَ يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً فَيَمْنَعَهُ»[١].

تصنيف دقيق وتقييم جامع لكافة من يعمل في الدنيا، ففئة همها ذاتها والدنيا، وفئة همها الله والآخرة، أما الصنف الاول فقد ملكت عليه الدنيا قلبه وجوارحه فلا ينظر إلا إليها ولا يعمل إلا لها، وأما آخرته فلا تخطر له على بال، فتراه يشقي نفسه لغير عائدة تنفعه، بل يكدح لغيره ويجمع لسواه غافلاً عن إسعاد نفسه متوهمًا بجمعه إغناء غيره فكأن بيده التوفير لمن يخلفه وكأنه بمأمن عن افتقار ذاته فيعيش شقاءه متخيرًا سعادة غيره وذلك غاية الحماقة والجهل.

وأما الصنف الثاني فإنه اعتد الدنيا ممرًا والآخرة مقرًّا.فهو عامل فيها لا لذاتها فليست هي بدار بقاء لا له ولا لمن يخلفه وإنما كل همه وغاية

---

(١) م ٢٦٩ /٥٢٢.

سعيه المنزل الأسمى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم فهو على بينة ويقين بأن ما اكتسب فهو من عطاء الله وتقديره وتدبيره وليس بحوله وطوله وتعبه ونصبه فنال بذلك الحظين وأدرك السعادتين وملك الدارين بل وأصبح عند الله وجيها يدعو فيجاب ويسأل فيعطى.

وأي مقام أسمى يتبوأه العبد فيكون عند المولى مرموقًا منظورًا إليه بالعطف وكمال اللطف، هذا وللإمام عليه السلام حديث مستفيض شمل كثيرًا من شجونها وشؤونها بثه في نهج بلاغته ومنه ما جاء في الصفحات التالية: ٩٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٦٤، ١٩١، ٥٣٩، ٥٤٤.

الإنسان وأطواره

والإنسان إبداع الله المعجز وخلقه العجيب بدأ خلقه من طين ثم من سلالة ماء مهين ثم كساه لحما وعظما ثم أنشأه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

أودع فيه جم القوى ومنحه كثر القابليات فاتجهت لصنوف الرغائب ومتعدد الميول.

وهبه خير الهبات وشرّفه بأنفس السمات.

فكرّمه بـ (العقل) وهو الجوهرة المقدسة.

كما زوّده بـ (النفس) وهي النعمة الكبرى.

والإنسان -وهو إبداعة التكوين- يزخر في جرمه الصغير التحامًا وارتباطا اللحم والدم والعظم والحواس الظاهرة والحواس الباطنة وما ينبعث من ذلك من ميول وأهواء وقدرات وطاقات وطباع وأوضاع.

وحينما تزدحم القوى فينجم عنها التصارع والتغالب والتنازع فيسمو الإنسان طورًا، وطورًا يخلد إلى الأرض وربما إلى مهوى سحيق.

وللإمام عليه السلام وهو صنيعة الإبداع الإلهي وأنموذج التربية الربانية

مقال مستفيض حول (الإنسان) خلقةً وتركيبًا ونظامًا وتربيةً، من خطب طوال وجمل قصار أحاطت بالمهم من شؤونه تشخيصا وعلاجًا وعلى نسق الفصول السابقة نسلك (نهج البلاغة) سائرين في صراطه المستقيم لنبلغ الغاية.

أولاً: خلق الإنسان:

أ) «ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ[١] إِنْساناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا[٢]، وأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، ومَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، والأَذْوَاقِ والمَشَامِّ، وَالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، والْأَخْلاطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ والْبَرْدِ، وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ»[٣].

ب) «أَمْ هذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ، وَشُغُفِ[٤] الأستارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً[٥]، وَعَلَقَةً مِحَاقاً[٦]، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً وَيَافِعًا[٧]. ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِساناً لافِظاً، وَبَصَراً لاحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، وَيُقَصِّرَ

---

(١) مَثُلَتْ: قامت منتصبة.

(٢) يَخْتَدِمُهَا: يجعلها في خدمة مقاصده.

(٣) خ ١/٤٢.

(٤) الشغف: غلاف القلب، وهنا استعارة للمشيمة.

(٥) الدهاق: المتتابع، المصبوب بقوة، الممتلئة.

(٦) المحاق: الخفيّ.

(٧) اليافع: الغلام راهق العشرين.

مُزْدَجِراً»[١].

ج) «أَيُّهَا المَخْلُوقُ السَّوِيّ، وَالْمُنْشَأُ[٢] الْمَرْعِيُّ[٣]، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الاستارِ، بُدِئْتَ ﴿مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾، وَوُضِعْتَ ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ[٤] فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لاَ تُحِيرُ دُعَاءً[٥]، وَلاَ تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إلى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا؛ فَمَنْ هَدَاكَ لِإجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ!»[٦].

د) «اعْجَبُوا لِهـذَا الإنسان يَنْظُرُ بِشَحْمٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ، وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ!!»[٧].

ثانيًا: هوان الإنسان وضعفه:

أ) «مَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرِ: أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ، وَلاَ يَرْزُقُ نَفْسَهُ، وَلاَ يَدفَعُ حَتْفَهُ»[٨].

---

(١) خ ٨٣ /١١٢.

(٢) الْمُنْشَأ: الْمُبْتَدَع.

(٣) المرعيّ: المحفوظ المعنيّ بأمره.

(٤) تمور: تتحرك.

(٥) لا تحير: لا تستيطع ردّ الجواب.

(٦) خ ١٦٣ /٢٣٣_٢٣٤.

(٧) م ٨ /٤٧٠.

(٨) م ٤٥٤ /٥٥٥.

ب) «مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ: مَكْتُومُ الْأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تَؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ وَتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ»[١].

ثالثًا: جوارح ووظائف:

«جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشَاهَا، وَأَشْلاَءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا، مُلاَئِمَةً لِأَحْنَائِهَا فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا، وَمُدَدِ عُمُرِهَا، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا، وَقُلُوبٍ رائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا»[٢].

رابعًا: النعمة والهداية:

«سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ، خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً، وَزُرُوعاً، وَثِمَاراً. ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا»[٣].

خامسًا: تمرد الإنسان وشقوته:

وبعد أن صوّر الإمام عليه السلام الفصل ببديع خلق الإنسان وتدرجه وبيان حكمة ماوهب من جوارح عقب ذلك بقوله:

أ) «حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ، وَاسْتَوَى مِثَالُهُ[٤]، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً، وَخَبَطَ

---

(١) م ٤١٩ / ٥٥٠.

(٢) خ ٨٣ / ١١٠.

(٣) خ ١٠٩ /١٥٩.

(٤) اسْتَوَى مِثالُهُ: بلغت قامته حدّ ما قدّر لها من النماء.

سَادِراً[١]، مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ[٢]، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ، وَبَدَوَاتِ[٣] أَرَبِهِ؛ لاَيَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، وَلاَ يَخْشَعُ تَقِيَّةً؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً»[٤].

ب) وفي خطبة أخرى صدّر فصلا منها بحسن بلاء الله وجميل صنعه بخلقه وكريم دعوته لمأدبته في جنته فإذا بمن اكرموا وعلى لسان المبلغ عن الله دعوا.

«فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إِلى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدْ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا»[٥].

سادساً: تذكرة وعبرة:

أ) «إِنَّمَا المَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ[٦] تَنْتَضِلُ[٧] فِيهِ المَنَايَا وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ

---

(١) خبط البعير: إذا ضرب بيديه الأرض لا يتوقّى شيئًا، والسادر: المتحيّر والذي لا يهتمّ ولا يبالي ما صنع.

(٢) الماتح: الذي ينزل البئر إذا قلّ ماؤها فيملأ الدلو، والغَرْبُ: الدلو العظيمة.

(٣) بَدَوات: جمع بدأة وهي ما بدا من الرأي.

(٤) خ ٨٣/١١٢_١١٣.

(٥) خ ١٠٩/١٥٩_١٦٠.

(٦) الغَرَض: ما ينصب ليصيبه الرامي.

(٧) تَنْتَضِلُ فيه: تصيبه وتثبت فيه.

المَصَائِبُ، وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ. وَلاَ يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلاَ يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ. فَنَحْنُ أَعْوَانُ المَنُونِ وَأَنْفُسُنَا نَصْبُ الحُتُوفِ فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً[1]. إِلاَّ أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا؟!»[2].

ب) «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ[3] مُوبِىءٌ[4] فَتَجَنَّبُوا مَرْعَاهُ! قُلْعَتُهَا[5] أَحْظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا[6] وَبُلْغَتُهَا[7] أَزْكَى مِنَ ثَرْوَتِهَا، حُكِمَ عَلَى مُكْثِرٍ مِنْهَا بِالْفَاقَةِ وَأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ. مَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُهَا[8] أَعْقَبَتْ نَاظِرَيْهِ كَمَهاً[9] وَمَنِ اسْتَشْعَرَا لشَّغَفَ بِهَا مَلأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجاناً لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ هَمٌّ يَشْغَلُهُ، وَغَمٌّ يَحْزُنُهُ، كَذلِكَ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ[10] فَيُلْقَى بِالْفَضاءِ، مُنْقَطِعاً أَبْهَرَاهُ[11]، هَيِّناً عَلَى الله فَنَاؤُهُ، وَعَلَى الْإِخْوَانِ

---

(١) الشرَف ما علا من مكان وغيره.

(٢) م ١٩١/٥٠٣.

(٣) الحُطَام: ما تكسّر من يبس النبات.

(٤) مُوبِئ: ذو وباء مهلك.

(٥) القُلْعَة: عدم السكون للتوطّن.

(٦) طُمَأْنِينَتِهَا: سكونها وهدوؤها.

(٧) البُلغة: مقدار ما يُتبلّغ به من قوت.

(٨) الزِّبْرِج: الزينة.

(٩) الكَمَهُ: العمى.

(١٠) الكَظَم: مخرج النفس.

(١١) الأبهران: وريدا العنق، وانقطاعهما كناية عن الهلاك.

إِلْقَاؤهُ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ إلى الدُّنْيَا بَعَيْنِ الْإعْتِبَارِ وَيَقْتَاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الْأَضْطِرَارِ وَيَسْمَعُ فِيهَا بِأُذُنِ الْمَقْتِ وَالْإِبْغَاضِ، إِنْ قِيلَ أَثْرى قِيلَ أَكْدَى[١]! وَإِنْ فُرِحَ لَهُ بِالْبَقَاءِ حُزِنَ لَهُ بِالْفَنَاءِ! هذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ فِيهِ يُبْلِسُونَ[٢]»[٣].

سابعًا: كرامة النفس والانضباط:

«مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ»[٤].

وما أجلّ هذه الموازنة وأدق هذه المعادلة والمقارنة فالعاقل يصون نفسه ويحوطها بسياج من المنعة فلا يدنو منها ما يلوثها، وحينما تتربى وتترعرع في أحضان التنزيه تسمو في ذاتها وتتعالى بطبعها أن ترمق من الشهوات أوتهفو إلى الرغبات أو تخطر في افقها النزوات التي لاتنسجم وكرامتها ولا يليق بشرفها.

ثامنًا: إصلاح النفس منطلق الاستقامة:

أ) «عِبَادَ اللهِ، زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِنَاقِ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ

---

(١) أَكْدَى: افتقر.

(٢) أَبْلَسَ: يَئس وتحيّر، «يَوْمٌ فِيهِ يُبْلِسُونَ» أي يوم القيامة.

(٣) م ٣٦٧/ ٥٣٩.

(٤) م ٤٤٩/ ٥٥٥.

لَهُ مِنْ غَيْرِهَا زَاجِرٌ وَلاَ وَاعِظٌ»[١].

ب) «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ»[٢].

وكانت هذه الفقرة خاتمة كلامه الذي قاله عند تلاوته ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ والْآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله ﴾.

أوجزها جامعة للنهج القويم في التركيز على الاهتمام والبدءة باصلاح الذات وعلى إهمال الانشغال بفعل الاخرين وعلى عمق التعليل فعائدة محاسبة النفس للنفس ولا شئ لدى المرء أعز عليه من نفسه وهي التي يرجو لها الدنيا والآخرة فما أجدره بالعناية بها ومراقبتها ومحاسبتها.

---

(١) خ ٩٠ /١٢٣.

(٢) خ ٢٢٢ /٣٤٣.

المعاد ركن الإيمان وعنصر الالتزام

واستكمالاً لركائز (الأخلاق) وأثافيه نختم هذا التمهيد بحديث (المعاد) ودوره الفاعل في تقويم السلوك وسبيل الاستقامة.

فالإنسان إذا وقر في قلبه أنه بعد دنياه هذه وما حفلت به وما اجترح فيها واقترف قادم على ربه فيوفيه حسابه فإما السعادة أو الشقاء فلابد له من مراقبة ما يصدر عنه من قول أو فعل أوترك.

ومادة بحثنا هذه هي مادة الكتاب المستقاة من هدي إمام الأمة ورباني الأئمة في (نهج البلاغة).

وقد أفاض عليه السلام المقال في ذلك وبثّه درراً في كلمه وجواهر حكمه في خطبه الطوال ونبذه القصار.

ولا يسعني استيفاء ذلك كله ولا توفيته حقه من الشرح، فهو من الكثرة والوفرة مالو جمع ورتب لكان السفر النفيس والمعدن الثر ولكني ملتقط منه شذرات ومن بحره لآلئ.

وتنوعت جهات حديث الإمام عليه السلام وأساليبه فترغيب، وترهيب، ودقة تصوير لمراحل ومواقف ومشاهد يعيشها ابن آدم وينتقل عنها إلى

أشد منها حتى يقر في مأواه بعد العرض الأكبر على مولاه.

أعاننا الله على لقاه وجعلها ساعة رضاه.

١) وإلى الله ترجع الأشياء:

«أَنْتَ الْأَبَدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى فَلَا مَحِيصَ عَنْكَ وَأَنْتَ الْمَوْعِدُ فَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ»[١].

٢) يوم القيامة:

«وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ»[٢].

٣) هول الموت:

ويصور الإمام عليه السلام بأدق تصوير وأبلغ تعبير هول سكرات الموت وتصرم الحياة الأولى الدنيا وغصص انتقال المرء إلى مشارف الحياة الثانية وبرزخها في هموم وغموم وكمد وأحزان مما لا يوصف كنهه ولا تعرف حقيقته.

والإمام عليه السلام ممنوح المواهب ممدود بالغيب محيط بالأسرار مطلع على الحقائق، «وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا»[٣].

---

(١) خ ١٠٩ /١٥٨.

(٢) خ ١٠٢ /١٤٧.

(٣) خ ٢٢١ /٣٤١.

وذلك ما امتاز به خاصة أولياء الله ﷻ ومن ثم لا يقوى على الإنباء بتلكم الأحوال والأهوال والعالم سواهم.

وهو القائل -سلام الله عليه- ضمن الإشادة بنجباء عباد الله: «وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ»[(١)].

وقال عليه السلام في خطبة كهذه: «وَاذْكُرْ قَبْرَكَ فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»[(٢)].

«أي ولا يخبرك أحد على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها»[(٣)].

فلنصغ إلى كشفه ووصفه بأرواحنا وعقولنا وقلوبنا، يقول عليه السلام:

«فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ: اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ

---

(١) خ ٢٢٢ /٣٤٢_٣٤٣.

(٢) خ ١٥٣ /٢١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ /١٦٠.

الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ. ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ المَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبءُ عَلَى ظَهْرِهِ. وَالمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ! فَلَمْ يَزَلِ المَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ: يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ. ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ. لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً. ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ»[١].

وكم له -سلام الله عليه- من بيان معبّر، وتصوير يجسّد تلكم النقلة المفزعة.

«دَهِمَتْهُ فَجَعَاتُ المَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ وَسَنَنِ مِرَاحِهِ فَظَلَّ سَادِراً وَبَاتَ سَاهِراً فِي غَمَرَاتِ الْآلاَمِ وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ وَوَالِدٍ

(١) خ ١٠٩ / ١٦٠ـ١٦١.

شَفِيقٍ وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً وَلَادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ»[١].

٤) البرزخ والقبر ووحشته:

أ- ذوو الميت يسلمونه إلى قبره ويعودون:

«ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ وَنِضْوَ سَقَمٍ تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ وَحَشَدَةُ الْإِخْوَانِ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ»[٢].

ب- حساب القبر:

«حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ وَعَثْرَةِ الِامْتِحَانِ»[٣].

وحكايته عن هول ذلك العالم تأخذ بالألباب ومجامع القلوب:

«سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ»[٤].

إلى آخر ما بلغ به من معالم دار الكربة والغربة وضيقها وشدة محنها وفجائع شجونها.

---

(١) خ ٨٣ /١١٣.

(٢) خ ٨٣ /١١٣.

(٣) خ ٨٣ /١١٣.

(٤) خ ٢٢١ /٣٣٨.

وهي الخطبة العجيبة التي قالها بعد تلاوته ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[١].

ويعجبني جدًّا نقل ما قاله الشارح ابن أبي الحديد لكشفه عن الحقيقة وبيان الحق الصراح:

«من أراد أن يعظ ويخوف ويقرع صفاة القلب ويعرف الناس قدر الدنيا وتصرفها بأهلها فليأت بمثل هذه الموعظة في مثل هذا الكلام الفصيح وإلا فليمسك فإن السكوت أستر والعي خير من منطق يفضح صاحبه، ومن تأمل هذا الفصل علم صدق معاوية في قوله فيه (والله ما سن الفصاحة لقريش غيره)، وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس وتلي عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرقاع:

قلم أصاب من الدواة مدادها

فلما قيل لهم في ذلك، قالوا: إنا نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن.

وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أن طبعه مناسب لطباع الأسود والنمور وأمثالهما من السباع الضارية ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظة بكلام يدل على أن طبعه مشاكل لطباع الرهبان لابسي المسوح الذين لم يأكلوا لحما ولم يريقوا

(١) سورة التكاثر /١ـ٢.

دمًا...»[١].

ولا يعنيني هنا دقة تشبيهه من ذكر الفُتّاك الشجعان والنُّسّاك الرهبان أو مقاربته بالمسيح بن مريم الإلهي.

ثم أردف قائلاً: «وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفًا وعظة وأثرت في قلبي وجيبًا وفي أعضائي رعدة ولا تأملتها إلا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي وأرباب ودي وخيلت في نفسي، فقال: إني أنا ذلك الشخص الذي وصف عليه السلام حاله»[٢].

وختم حديثه بتجلي الإمام وامتيازه على كافة الوعاظ وفصحاء الخطباء وعلل تفاعله وانبهاره:

«وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى وكم وقفت على ما قالوه وتكرر وقوفي عليه فلم أجد لشئ منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي فاما أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله أو كانت نية القائل صالحة ويقينه كان ثابتا وإخلاصه كان محضا خالصا فكان تأثير قوله في النفوس أعظم وسريان موعظته في القلوب أبلغ»[٣].

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١ /١٥٢ـ١٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١ /١٥٣.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١ /١٥٣ـ١٥٤.

٥) الصراط وخطر الانزلاق:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ»[١].

والتقوى عدة السلامة:

«فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَفَ[٢] الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ وَأَوْجَفَ[٣] الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ»[٤].

والعاقبة للمتقين:

«ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى وَرَاحَةِ النُّعْمَى فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ وَقَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً وَقَدَّمَ زَادَ الْآجِلَةِ سَعِيداً وَبَادَرَ مِنْ وَجَلٍ وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ وَنَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالًا وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالًا وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً»[٥].

---

(١) خ ٨٣ /١١١-١١٢.

(٢) ظلف: منع.

(٣) أوجف: أسرع، كأن الذِّكْر لشدة تحريكه اللسان موجف به كما توجف الناقة براكبها.

(٤) خ ٨٣ /١١١-١١٢.

(٥) خ ٨٣ /١١٢.

٦) البعث والنشور:

«حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الْأُمُورُ وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ وَأَزِفَ النُّشُورُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ وَأَوْجِرَةِ السِّبَاعِ وَمَطَارِحِ المَهَالِكِ سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ رَعِيلًا صُمُوتاً قِيَاماً صُفُوفاً يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الِاسْتِكَانَةِ وَضَرَعُ الِاسْتِسْلَامِ وَالذِّلَّةِ قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ وَهَوَتِ الْأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً وَأَلْجَمَ الْعَرَقُ وَعَظُمَ الشَّفَقُ وَأُرْعِدَتِ الْأَسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ وَمُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ وَنَكَالِ الْعِقَابِ وَنَوَالِ الثَّوَابِ»(١).

وصور قدرة الجبار يوم تبدل الأرض غير الأرض وبرز الخلق لخالقهم جميعاً فقال عليه السلام:

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَالْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا وَأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ»(٢).

ويوفّيهم جزاءهم فمنهم شقي وسعيد:

«ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ

---

(١) خ ٨٣ /١٠٨_١٠٩.

(٢) خ ١٠٩ /١٦١.

فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النُّزَّالُ وَلَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ وَلَا تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ وَلَا تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ وَلَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ وَلَا تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ وَغَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ وَلَهَبٌ سَاطِعٌ وَقَصِيفٌ هَائِلٌ لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا وَلَا يُفَادَى أَسِيرُهَا وَلَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى وَلَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى»[1].

وقال عليه السلام في أهوال الطامّة وشدائد يوم القيامة بعد وصيته بالاعتصام بالتقوى وأمره بمبادرة الموت وغمراته وبيانه لروعات الفزع وظلمة اللحد:

«فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا عَالٍ لَجَبُهَا سَاطِعٍ لَهَبُهَا مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا بَعِيدٍ خُمُودُهَا ذَاكٍ وُقُودُهَا مَخُوفٍ وَعِيدُهَا عَمٍ قَرَارُهَا مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا حَامِيَةٍ قُدُورُهَا فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا»[2].

٧) تربية وهداية وتذكير وإصحار بالحقائق:

وقد أفاض إمام الأمة وربانيها وهاديها -صلوات الله على روحه الطيبة- المقال في كافة شؤون المعاد وإعداد العبد للقاء الرب فأخذ في إثارة كل ما يحقق الغاية ويهدي السبيل من التبصير بالدنيا واغتنام الفرصة

---

(١) خ ١٠٩ / ١٦١.

(٢) خ ١٩٠ / ٢٨١-٢٨٢.

واستثمار العمر العزيز والفرصة المتاحة بالتماس ما يقرب العبد بمولاه في دنياه وأخراه.

وهديه -كما أسلفت- ممتد واسع في كلمه وثنايا خطبه مما لا يسعني استيعابه لضيق مجال البحث وخطته عن ذلك:

ولكنّي آخذ بطرف منه وجامع من شذراته:

فأولاً: بذل العمر فيما يجمل لئلا يكون حجة:

أ- «فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ الْمُدَّةِ وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ الْجَدِيدَانِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بِالْفَوْزِ أَوِ الشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ نَصَحَ نَفْسَهُ وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ

غَايَةٌ وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ المَوْتِ نَدَامَةٌ وَلَا كَآبَةٌ»[١].

ب- وقال ﷺ في خطبة أخرى: «فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلًا فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ وَتُقْطَعَ أَسْبَابُهُ وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ»[٢].

وثانياً: الطباع السوء وإضلال الشيطان ودعوة الرحمن:

«آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخَّرُوا آجِلًا وَتَرَكُوا صَافِياً وَشَرِبُوا آجِناً كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ وَبَسِئَ بِهِ وَوَافَقَهُ حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَا يُبَالِي مَا غَرَّقَ أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لَا يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ للهِ وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ وَتَشَاحُّوا عَلَى الْحَرَامِ وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا»[٣].

---

(١) خ ٦٤ /٩٥.

(٢) خ ٢١٤ /٣٣١.

(٣) خ ١٤٤ /٢٠١-٢٠٢.

وثالثاً: الدنيا والآخرة ضدّان ما قرّب من إحداهما أبعد عن الأخرى:

أ- «إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الْآخِرَةَ وَعَادَاهَا وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الْآخَرِ وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ»[١].

ب- «مَرَارَةُ الدُّنْيَا حَلَاوَةُ الْآخِرَةِ، وَحَلَاوَةُ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الْآخِرَةِ»[٢].

ج- «وَرُوِيَ أَنَّهُ عليه السلام قَلَّمَا اعْتَدَلَ بِهِ الْمِنْبَرُ إِلَّا قَالَ أَمَامَ الْخُطْبَةِ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ فَمَا خُلِقَ امْرُؤٌ عَبَثاً فَيَلْهُوَ وَلَا تُرِكَ سُدًى فَيَلْغُوَ وَمَا دُنْيَاهُ الَّتِي تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ الْآخِرَةِ الَّتِي قَبَّحَهَا سُوءُ النَّظَرِ عِنْدَهُ وَمَا الْمَغْرُورُ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَعْلَى هِمَّتِهِ كَالْآخَرِ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الْآخِرَةِ بِأَدْنَى سُهْمَتِهِ»[٣].

ورابعاً: أبناء الدنيا والآخرة:

أ- «أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا، أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ»[٤].

---

(١) م ١٠٣/ ٤٨٦.

(٢) م ٢٥١/ ٥١٢.

(٣) م ٣٧٠/ ٥٤٠.

(٤) خ ٤٢/ ٨٤.

ب- «رَائِدُ أَهْلَهُ وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ»[1].

ولافت تعبيره ؑ: «فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ»، فما معنى ذلك والحال أن ابن آدم مخلوق الدنيا؟.

وقد فسر الشيخ مغنية ذلك بـ (أي خلق من أجلها كما قال الإمام في مكان آخر: «فما يصنع بالدنيا من خُلق للآخرة» ولا يستقيم المعنى إلا إذا فسرنا (قدم) بـ (خلق) »[2].

أما ابن أبي الحديد المعتزلي فقد شرح ذلك: «قد قيل: إن الله تعالى خلق أرواح البشر قبل أجسادهم، والخبر في ذلك مشهور والآية أيضاً، وهي قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ويمكن أن يفسر على وجه آخر، وذلك أن الآخرة اليوم عدم محض، والإنسان قدم من العدم وإلى العدم ينقلب، فقد صح أنه قدم من الآخرة ويرجع إلى الآخرة[3].

وما ذكره لا يخلو من تعسف وتكلف، ويبدو من ارتكازه على القول (بعدم خلق الجنة).

أما الميرزا حبيب الله الخوئي فقد رأى: «لأن الإنسان مبدؤه الحضرة الإلهية وهو سبحانه المبدء وإليه المنتهى وهو غاية مراد المريدين ومنتهى

---

(١) خ ١٥٢ /٢١٥.

(٢) في ظلال نهج البلاغة ٢ /٣٨٩.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ /١١٧.

سير السايرين»[١].

وهو الرأي الوجيه معتضداً بأن الروح من أمر الله ولها النعيم الباقي بعد فناء الجسد والنعيم الخالد في جنة الله فقد خلقت للبقاء لا للفناء فاللائق بها استكمالاً لغايتها كما بدأت نفحة ونفخة من روح الله.

وقد شرح ذلك السيد محمد تقي النقوي وذكر رأي المشائيين والإشراقيين في هيمانية النفس وروحانيتها، وقرر أن مجيء الإنسان من عالم الغيب هو مجيء نفسه وروحه لا مجيء بدنه فإنه من عالم المادة ومبدئه التراب[٢].

ج- «قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ وَصَارُوا إِلَى مَصَايِرِ الْغَايَاتِ لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ»[٣].

وخامساً: الخلق للآخرة لا للدنيا:

أ- «عِبَادَ اللهِ، اللهَ اللهَ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ وَتَبْقَى عَلَيْهِ

(١) منهاج البلاغة ٩ /٢٤٣.

(٢) مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١١ /٢٦-٢٩ ملخصاً.

(٣) خ ١٥٦ /٢١٩.

تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!»(١).

ب- التقوى: «أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَّاهاً وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا»(٢).

ج- الزهّاد: «كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ تَقَلَّبُ أَبْدَانِهِمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ»(٣).

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لله آبَاؤُكُمْ فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً وَلَا تُخْلِفُوا كُلًّا فَيَكُونَ فَرْضاً عَلَيْكُمْ»(٤).

هـ- «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ»(٥).

---

(١) خ ١٥٧ /٢٢١_٢٢٢.

(٢) خ ١٩٢ /٢٨٤.

(٣) خ ٢٣٠ /٣٥٢_٣٥٣.

(٤) خ ٢٠٣ /٣٢٠_٣٢١.

(٥) ك ٣١ /٤٠٠.

و- «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا وَقَدِ ابْتَلَانِي اللهُ بِكَ وَابْتَلَاكَ بِي فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ فَعَدَوْتَ عَلَى الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ فَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلَا لِسَانِي وَعَصَيْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ فَاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ وَاصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ»[١].

ولله جلال ابن أبي طالب فما أحلى كلمه وأروع حكمه، يعالج الموضوع الواحد مراراً وتكراراً بمنتهى الدقة وروعة التفنن وبكر القول ووجيز اللفظ ومتسع المعنى وعمق المضمون.

فأعمل عقلك واصغ بقلبك إلى حكمة الحق وفصل الخطاب.

ز- «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا وَلَا يُنْجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ»[٢].

سادساً: مناجاة النفس ومحاسبتها:

أ- «عِبَادَ اللهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ الْخِنَاقِ وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ

---

(١) ك ٥٥ /٤٤٦.

(٢) خ ٦٣ /٩٤.

مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ»[1].

ب- وقال عليه السلام في رجال الله الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره: «فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ فَضَعُفُوا عَنِ الِاسْتِقْلَالِ بِهَا فَنَشَجُوا نَشِيجاً وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ»[2].

وختم خطبته الغراء بالقول الجامع:

«فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غيرَها مِنَ الأَنْفُسِ لها حَسِيبٌ غَيْرُكَ».

سابعاً: العجب من الركون إلى حقير الدنيا:

وأطال الإمام عليه السلام الحديث عن الدنيا الفانية وأفاض في شؤونها المقال فيما بّصر به وأوقف على حقيقته:

«وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا دَارُهَا هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا لَمْ يُصْفِهَا اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ وَمُلْكُهَا

---

(١) خ ٩٠ /١٢٣.

(٢) خ ٢٢٢ /٣٤٢.

يُسْلَبُ وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ».

«قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْآجَالِ وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الْآمَالِ فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ».

ويشرح جنوح الغافلين إليها، وقلقهم من فواتها:

«مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ وَلَا يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ»[١].

ثامناً: المتقون جيران الله شرفهم بكرامته:

«وَاعْلَمُوا عِبَادَ الله أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ الله غَداً فِي آخِرَتِهِمْ»[٢].

«وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً وَلَا يُثْبِتُونَ

---

(١) خ ١١٣ /١٦٧ـ١٦٨.

(٢) ك ٢٧ /٣٨٣ـ٣٨٤.

بَاطِلًا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ ظِلُّهَا عَرْشُهُ وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ فَبَادِرُوا الْمَعَادَ وَسَابِقُوا الْآجَالَ»[1].

تاسعاً: حذار من الرصد ورقباء الأعمال:

«اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ وَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ»[2].

عاشراً: مثلان رائع ومُروّع:

فقد جاء كتابه الكريم وهديه القويم إلى ولده الإمام الحسن المجتبى حافلاً بالتربية الروحية العالية والحكم الراقية في كافة الشؤون المتراميـة، ومن جملة ما حفل به بيانه الحكيم وحكايته عمّا خبره وأحاط به من أمر الدنيا والآخرة فقال عليه السلام في ذلك تمهيدًا:

«يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا».

ثم ذكر المثل الرائع لمن كان على بصيرة من أمره وبينة:

---

(١) خ ١٨٣ /٢٦٦.

(٢) خ ١٥٧ /٢٢٢.

«إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلًا خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ وَخُشُونَةَ السَّفَرِ وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ».

وعن المثل المروّع:

«وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ»[1].

وبعد...

فقد أوقفنا وليّ الله والقائم بأمره وخازن علمه وترجمان قرآنه على حقيقة الدنيا وأوضاعها وتقلبها وأنها دار المكاره والغصص وموطن العمل والتدارك ومزرعة الآخرة، وبيّن -سلام الله عليه- ارتحال من فيها إلى عالم آخر ممتد لا ينقطع عبر مراحل وأهوال وسكرات وقبر وبرزخ حتى الوفود على جبار السموات والأرض يوم العرض الأعظم الأفظع على الله في ساحة عدل قضائه وحسابه وثوابه وعقابه وجسّد عليه السلام بفضل علمه وبلاغته الغيب شهوداً والبعيد قريباً والحقيقة عياناً ملموساً.

ولقد أطال وأطنب وكرّر وأوضح وشدد وأعذر وبشّر وأنذر، وخير ختام إيراد ما كان كثيراً ما ينادي به أصحابه:

---

(١) ك ٣١/ ٣٩٦-٣٩٧.

«تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللهُ فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَئُوداً وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ وَمُعْضِلَاتُ الْمَحْذُورِ. فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى»[1].

جعلنا الله ممن يستمع لدعوة الحق، ويعمل بالصدق، وختم بالصالحات أعمالنا، ورحمنا برحمته الواسعة، إنه الرب الكريم الغفور الرحيم.

والصلاة والسلام على خيرة الخلق محمد وآله الطاهرين الأبرار.

---

(١) خ ٢٠٤ /٣٢١.

الفصل الثاني: الأخلاق والسلوك

التقوى

المال ومتسع شؤونه

قيمة الإمرة لولا العدل

الاستماتة في الحق وصدق التضحية لنصرة الدين

الزهد

الورع

السرّ

الأدب العلوي في علاقة الوالي برعيته

الشكر

المغنم واغتنام الفرصة

اللسان

مقدمة

قال عليه السلام: «رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا رَاقَبَ رَبَّهُ وَخَافَ ذَنْبَهُ قَدَّمَ خَالِصاً وَعَمِلَ صَالِحاً اكْتَسَبَ مَذْخُوراً وَاجْتَنَبَ مَحْذُوراً وَرَمَى غَرَضاً وَأَحْرَزَ عِوَضاً كَابَرَ هَوَاهُ وَكَذَّبَ مُنَاهُ جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاءَ وَلَزِمَ المَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ اغْتَنَمَ المَهَلَ وَبَادَرَ الْأَجَلَ وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ»[1].

وفيما افتتحناه مقدمة لعرض جملة من فضائل الأخلاق التي ثبّتها الإمام المربي العظيم -عليه صلوات الرب- ركائز قويمة، ودعائم راسخة يقوم عليها الخُلق الكريم، وتنبعث من مراعاتها سجايا الخير، وتصدر عنها خلال الملكات وحسن السجايا.

وفي ما يلي بيان لتلكم الأسس المحكمة:

الأولى: الحكمة ضالة المؤمن:

فالمرء الواعي والعاقل الحصيف إذا ما طرق سمعه الحق استوعبه

---

(١) خ ٧٦ /١٠٣.

قلبه ووعاه لبّه فتعلّق به ولزمه ولم يحد عنه.

الثانية: ضل من ليس له حكيم يرشده:

فلا مندوحة للمرء من تمسّكه بمن يبصّره ويهديه ويرشده إلى سواء السبيل ولا سيّما إذا ادلهمت الخطوب وغمّت الأمور واضطربت الأقوال والأحوال.

الثالثة: إلى الله المرجع والمآب:

فالأمر خطير والحساب عسير، وغداً يجمع الله الخلائق ويوقفهم وإنهم مسؤولون، وهو -سبحانه- لا تخفى عليه خافية. فهو الحاضر والناظر، فلا محيص من المراقبة الدائمة بإرضاء الربّ واجتناب مواطن سخطه وغضبه.

الرابعة: الهوى والمنى:

يعيش ابن آدم والهوى متصارعين، ويحيا والمنى تغريه، ولا تقف عند حد حتى تهلكه فليكن لهما آسراً ولا يضحى لهما أسيراً، فيمسي لهما ضحية بعد ما كان مطية.

الخامسة: الصبر محمودة عواقبه:

فالدنيا موطن المحن، وفي كل شأن من شؤونها ذات الشجون تكاليف، والمال والمغريات والشيطان تعصف بالإنسان وترديه، فأين النجاة وبم الاعتصام، وكيف الخلاص؟ أجل إنه الصبر: صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر على المصيبة، فإذا ما امتطى الصبر نجا وخلص

إلى السلامة والأمان.

السادسة: خير الزاد التقوى:

والتقوى جماع كل خير، فطوبى لمن ختمت حياته بالتقوى، ونعمت الزاد إلى رب العباد فـ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(١).

السابعة: التقوى جُنة من بلاء لا يطاق:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا أَ فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ ضَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينَ شَيْطَانٍ...»(٢).

السابعة: الدنيا مزرعة الآخرة:

قدرة على الطاعة وفرصة مواتية وإن كانت معلومة الانقضاء إلا أنها مجهولة التحديد فلربما فاجأ الأجل، والعاقل من اغتنم الفرصة ولا سيّما إذا كانت حتمية الفوت طالت أو قصرت – فلم يخدع بالمهل فتزوّد من العمل ما يقرّبه إلى مولاه زلفى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾(٣).

---

(١) سورة المائدة /٢٧.

(٢) خ ١٨٣ /٢٦٧.

(٣) سورة الانشقاق /٦.

مكارم الأخلاق

وقد حفل (نهج البلاغة) الشريف بمتكاثر الخلال وجوامع الخير ومعالي صفات الفضيلة ومجامع الكمال فلنقتفِ أثر الإمام ولنسلك دربه في نهجه اللاحب.

التقوى

قال عليه السلام: «التُّقى رئيسُ الأخلاق»[1].

تنبيه:

من مميزات لغة القرآن إعجازه المتمثل في أسلوبه (جوامع الكلم وفصل الخطاب) فتختزن الكلمة المفردة والقول الوجيز المعاني الكبار وتكتنز في مادتها وهيئتها جم الشؤون.

فـ (الاستقامة) مفردة جامعة واسعة تمتد فتستوعب شؤون الخالق جل جلاله تكوينًا وتشريعًا وعللًا وآثارًا في ضروب من البلاغة والبراعة والإيجاز والإعجاز.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[3].

---

(١) م ٤١٠ /٥٤٨.

(٢) سورة هود /٥٦.

(٣) سورة الإسراء /٩.

﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[(١)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[(٢)].

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[(٣)].

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٤)].

وبعد فهي الكلمة المقدسة مقياس الحق وعنوانه، وغاية هدي الدين ومقاصده، جمعت فأوعت وتمّت وعمّت.

و(التقوى) من ذلكم المعدن جارية على ذلك المنهج لاتجد فيه عوجاً ولا أمتاً تمد (الإنسان) روحاً تنفذ فتستبطن شغاف قلبه وتلافيف فكره، وخلجات نفسه، وتتجلى من مكنون الجوانح مهيمنة على كافة الجوارح فلا ينطق لسان ولا تمتد يد ولا تخطو رجل ولا تتحرك جارحة إلا بهدي من سناها وإيحاء من سماها.

«فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللهِ- تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ»[(٥)].

---

(١) سورة الشورى /١٥.

(٢) سورة فصلت /٣٠.

(٣) سورة الجن /١٦.

(٤) سورة الأنعام /١٥٣.

(٥) خ ٨٣ /١١١.

التقوى عند الإمام:

ولقد أفاض في حديث التقوى فيما أفصح به لسانه أو خطه بنانه تعريفاً وتوصيفاً ودوراً وأثراً. وفيما يلي نماذج من تلكم المواطن:

١) التقوى الحقيقية:

أ) «فَاتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ، وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ، وَحُذِّرَ فَحَذِرَ، وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ، وَرَاجَعَ فَتَابَ، وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى، وَأُرِيَ فَرَأَى، فَأَسْرَعَ طَالِباً، وَنَجَا هَارِباً، فَأَفَادَ ذَخِيرَةً، وَأَطَابَ سَرِيرَةً، وَعَمَّرَ مَعَاداً، وَاسْتَظْهَرَ زَاداً لِيَوْمِ رَحِيلِهِ وَوَجْهِ سَبِيلِهِ، وَحَالِ حَاجَتِهِ، وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ، وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ. فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ، وَاحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَاسْتَحِقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعَادِهِ، وَالْحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ»[١].

ب) «أُوصِيكُمْ، عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ، دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ، فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا، وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ؛ فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ، وَاسْتَقْرَبُوا الأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الأَمَلَ

---

(١) خ ٨٣ /١٠٩ـ١١٠.

فَلاَحَظُوا الأَجَلَ»[1].

وفي هذين النصين الجليلين مبنى ومعنى تركيز على حقائق ثلاث:

الأولى: التفاعل الصادق:

فالإنسان ملؤه جوارح ومشاعر وأهواء وعواطف تختلف فتتخالف، فتتنازع فتتصارع، تضطرب فلا تستقر على حال.

وهي مع شدّة صخبها ليست مجبورة ولا مضطرة فيما تمارس وتهوى، فالقادر على الفعل مختار في الترك، والهابط في دركات الخطيئة يقوى على إرتقاء درجات الطاعة.

إذن فهو في مختبر دقيق يتجلى فيه الجوهر، وتتمايز فيه القوى.

الثانية: خير داع ومجيب.

وذلكم شأن الكمالات العالية، يبثها المربي الرؤوف، ويدأب على تعميقها الراعي الرحيم خير حكمة ممن (له دعوة الحق) ليحيا العباد على هدي قويم وأدب رفيع فيسمعها الفرد والأمة في الندي والمجمع والجامع فكأنها لم تقل ولم تسمع فلم تمر حتى تقر، وتتمكن من أسماع، وتقر في قلوب فقد وافت موطنها وألفت مقرها (فالقلوب أوعية وخيرها أوعاها).

الثالثة: عناء وعاقبة نعيم:

فالتقوى حصن حصين وسياج منيع، صان المتزودون بها أنفسهم

---

(١) خ ١١٤ /١٦٩-١٧٠.

عن ارتكاب محارم واكتساب مآثم، أهمتهم (التقوى) فأستولت على جوانحهم وجوارحهم، فقلوبهم من ربهم خائفة، وعيونهم ساهرة باكية، **وبطونهم صائمة، وأبدانهم بالعبادة قائمة، على هذا عمرهم فنالوا بذلك** الراحة بعد النصب، والهناء بعد العناء ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٢) التقوى نصح النفس:

«فَاتَّقَىٰ عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، قَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وغَلَبَ شَهْوَتَهُ»[١].

إن أحب شيء وأعزه على الإنسان نفسه، يوفر لها الكرامة، ويأبى عليها المهانة والهوان باذلًا في ذلك وسعه وجهده.

والإمام عليه السلام يهدي إلى السر الذي اذا وقف عليه المرء وكشفه وأخذ به حقق لذاته السعادة التي يكدح ويشقى لنيلها أو طرف منها.

ألا وإن السر العميق والمحور الدقيق هو: (نصحه لنفسه).

ونصحه الواقعي هو ما شرحه الإمام في بقية كلامه فليتأمل فيه بما يستحقه.

وبذلك يصدق وصف (العبودية) لمن اتخذه ربًا.

إذن فمدار التقوى على محبة المرء لنفسه متجليًا في نصحه لها، وجوهر ذلك خالص العبودية، والدينونة بالربوبية لله جل جلاله وإلا فهو التمرد والأباق وأفضع ما يسيء به الإنسان لذاته، ويجر به البلاء والشقاء لنفسه.

---

(١) خ ٦٥ /٩٥.

٣) نعم المخرج من الحرج:

أ) «وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْد رَتْقاً، ثُمَّ اتَّقَى اللهَ، لَجَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجًا»[١].

ب) «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ ﴿مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَار اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلاَئِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ»[٢].

وقال الإمام علي عليه السلام مقولته الأولى لأبي ذر -رضوان الله عليه- لما أُخرج كرهاً إلى نائي الديار في الربذة في حمأة المواقف العصيبة والخطوب التي عصفت بالأمة الإسلامية وكان رجل الصدق وبطل الحق أبوذر الغفاري فقد جهر بما يرضي الله ويغضب الحاكمين فشردوا به طريدًا بين الشام وأميرها والمدينة وحاكمها حتى مات غريبًا وحيدًا بأرض قفراء بعيدة المدى قليلة الزوار فبعين الله ما لقي حتى يبعث ويحشر أمة وحده كما قال النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وقد بقيت سيرته وتاريخه خير أحدوثة ومقتدى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

وجماع الأمر هو ما قاله الإمام -صلوات الله عليه-: «إِنَّكَ غَضِبْتَ للهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ، إِنَّ القَوْمَ خَافُوكَ عَلى دُنْيَاهُمْ، وخِفْتَهُمْ عَلى دِينِكَ،... فاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ ما خَافُوكَ عَليهِ، واهْرُبْ مِنْهُمْ بِما خِفْتَهُمْ عَليهِ،

---

(١) خ ١٣٠ /١٨٨.

(٢) خ ١٨٣ /٢٢٦.

فما أَحْوَجَهُمْ إلى ما مَنَعْتَهُمْ، وما أَغْناكَ عمَّا مَنَعُوكَ، وسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَدًا، والأَكْثَرُ حُسَّدًا»[1].

هذا وكما قال الله -سبحانه-: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ويؤكد الإمام في النص الثاني ما تكفل الله - جلت عظمته - لمن إتقاه من فتح المخرج في مدلهمات النوازل فيأمن المتقي من لوابس الفتن ومعترك الظلم فالمتعلق بحبل الله لا يكبو، ونور الله لا يخبو، فمن أستضاء به هداه إلى جنان الخلود ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2].

٤) صنائع تقي المصارع:

«وَصَنَائِعُ المَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ»[3].

فللمؤمن تكريم وكرامة عند ربه، وفي ذاته، فيربأ به المذلة ومساقط الهنات والهوان، وخير ما يقيه الانزلاق في تلكم المداحض اصطناع الخير والبر فيسمو به ذلك إلى أوج العز والكرامة.

٥) اللسان والتقوى:

«وَلْيَخْتَزِنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ، وَاللهِ مَا

---

(١) خ ١٣٠ /١٨٨.

(٢) سورة القمر /٥٤_٥٥.

(٣) خ ١١٠ /١٦٣.

أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْتَزِنَ لِسَانَهُ»(١).

إن لكل جارحة تقواها، وكلما عظم دورها وأشتد خطرها أضطرت إلى سياج منيع ورباط وثيق.

وقد اعتدها الإمام في تشبيهه البليغ بالخيل الجموح يدور بصاحبه ويأبى عليه حتى يطرحه هالكاً.

وفي بقية كلامه -عليه صلوات الله وسلامه- منهج التفكير السليم الذي يتجه بسالكه إلى بسط اللسان في موطنه وقبضه في محله فيستقيم القول والصمت.

٦) الخصومة والتقوى:

«مَنْ بَالَغَ فِي الخُصُومَةِ أَثِمَ، ومَنْ قَصَّرَ فيها ظَلَمَ، ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِي اللهَ مَنْ خَاصَمَ»(٢).

الحق مركب صعب، وحب الغلبة والاستئثار جبّلة في النفوس، فمن خاض غمار الخصومة فقد أرتطم، وعبثت به الأهواء، فلا يذعن للحق، ولا يركن إلى الأنصاف ولا يرضى بالصلح، بل ينغمس في إشباع النفس بالإختلاق واليمين الغموس والشهادة الزور، وكل هذه الشؤون تقتضيها طبيعة الخصومة والنزاع ولا يسلم من آفاتها وبلائها إلا من عصم الله وسدد، ومن ثمّ قال الإمام عليه السلام: «ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِي اللهَ مَنْ خَاصَمَ».

---

(١) خ ١٧٦ /٢٥٣.

(٢) م ٢٩٨ /٥٢٨.

٧) المراقبة الدائمة:

«اتَّقِ اللهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ، وَلاَ تَأْمَنْهَا عَلَى حَالٍ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ، مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ، سَمَتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ. فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً، وَلِنَزْوَتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً[1]»[2].

فالوصية وإن كانت لشريح بن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام إلا أنها عامة شاملة فخصوص المورد لا يخصص الوارد.

إن الدنيا مسرح الحياة، وفيها مواطن الإثارة وبواعث الإغترار، والنفس بطبيعتها ميالة لا يشبع نهمها متع الحياة وإن توافرت، فما لم يحد من غلوائها ويكبح من جماحها بشديد المراقبة ودقيق المحاسبة سمت به الأهواء وعصفت وألقت من أخلد إليها في مهوى سحيق، ولا منجا من ذلك ولا معتصم إلا بتقوى الله على كل حال وفي كل آن.

٨) التقوى عند تواتر النعم:

«فاتقُوا سكراتِ النعمةِ»[3].

فللملك سكر، وللنصر شهوة وزهو، والمال مادة الشهوات،

---

(١) الحفيظة: الغضب.

وقمه فهو واقم: قهره.

قمعه: ردّه وكسره.

(٢) ك ٥٦ /٤٤٧.

(٣) خ ١٥١ /٢١٠.

والشباب شعبة من الجنون، فمن رفل في نعيم نسي ماسواه من ماضيه وعمي عن حاضره ولم يفكر في مستقبله، لا يحيا إلا لذته، ولا يعيش إلا ساعته غير ملتفت لتبدل الأحوال وتقلب الأمور، وصروف الدهور، فحذار من سكرات النعمة فربما جرّت إلى النقمة، فتذهب اللذة وتبقى التبعة.

٩) التقوى في البلاد والعباد:

«اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ»(١).

ولئن نص الإمام في قول سابق على عموم التقوى في الزمان فهو ينص هنا على العموم من الأعيان إنسانًا وحيوانًا وجمادًا وسواها، فجمع بذلك ما للتقوى من آفاق، وقرر واقعية التعامل وجميل التفاعل مع كافة أطراف الحياة ومرافقها، وهو -سلام الله عليه- يكشف في مقولته هذه أبعاداً مهمة من رؤى الدين وتغلغله في شؤون ما يحياه الإنسان ويعايشه.

ولقد أفصحت النصوص الشرعية وشرحت ما يجب القيام به إزاء تلكم الموارد ونظائرها.

١٠) رابطة التقوى بين الله وعباده:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللهِ حَقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللهِ، فَإِنَّ التَّقْوَى

---

(١) خ ١٦٧ /٢٤٢.

فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إلى الْجَنَّةِ»[(١)].

فبين الألوهية المقدسة والعبودية رباط وثيق، والله ﷻ الكمال المطلق، ومن كماله وجلاله ما أوجبه على نفسه من الرحمة ومحبته لخلقه، والعبد فقير مطلق، وإذا صدقت العبودية بحق إرتبطت بمولاها، وسر الصدق يتمحور في انقياد مطلق من العبد لمولاه ﴿اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٢)].

وحيث أن السر دقيق وشأنه عميق فهو لا ينفك عمّا يوجبه ويبقيه والركيزة هي إستعانة العبد الفقير بالله الغني والناقص بالكامل.

وبفضل ذلك يقوى العبد على نيل مرضاة الرب، فالخير من الله وإليه يعود، والتقوى في ذلك سعادة في الدنيا وفوز في الآخرة، وللخطبة الشريفة تتمة مهمة تأتي في موضعها.

١١) التقوى ميزان التفاضل:

«وَلاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا»[(٣)].

ولعمر الحق إنه ميزان الحق، ومقياس العدل، منهج الله في قرآنه، ميّز فيه عباده وفاضل بينهم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فلا أنساب ولا ألوان ولا أموال ولا جاه ولا دنيا، وإنما بالتقوى شرف من تحلى بها

---

(١) خ ١٩١ /٢٨٤.

(٢) سورة آل عمران /١٠٢.

(٣) خ ١٩١ /٢٨٤.

وامتاز عن سواه وفضل من عداه وإن أعتد وضيعًا مهينًا تقتحمه العيون وتحتقره الرجال ويضيق به أهل الدنيا.

١٢) الصحة والتقوى:

«وَأشدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ. أَلاَ وإِنَّ مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَى الْقَلْبِ»[1].

وقد عرض الإمام عليه السلام أولًا في صدر حكمته صورًا من البلاء والعناء، وتفاوت شدتها فقال: «أَلاَ وإِنَّ مِنَ الْبَلاَءِ الْفَاقَةَ وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ».

والقلب يمثل مركز الحياة ومحور البقاء سواء أريد بالقلب العضو الصنوبري فهو يمد البدن بالقدرة والحركة، أو أريد به العقل فمرضه مرض صاحبه وحامله وتعطيل حيويته وموت نشاطه وإن عد في الأحياء.

١٣) الصلاة والتقوى:

«الصَّلاَةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ»[2].

فالعبادات تعني خضوع العبد الذليل للرب الجليل، وكل من أصنافها يمثل دورًا مهماً له شأنه وخاصيته.

والصلاة عبادة مميزة يتجلّى أسمى خضوع وانقياد، وفكر واعتقاد، في مفتتحها وختامها وما بينهما من تلاوة قرآن، وقراءة أذكار وأفعال

---

(١) م ٣٨٨ /٥٤٤ـ٥٤٥.

(٢) م ١٣٦ /٤٩٤.

وحركات.

وهي وجه الإسلام ومعراج المؤمن، وخير موضوع وأفضل ما يتقرب به المتقربون إلى الله ﷻ فلا غرو لو كانت قربان كل تقي فهي ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1].

١٤) ولو بعض التقى:

«اتَّقِ اللهَ بَعْضَ التُّقَى وَإِنْ قَلَّ، وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سِتْراً وَإِنْ رَقَّ»[2].

ولاشك أن التقوى حقيقة تامة وكلٌ لا يتجزئ ﴿اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]، إلا أن وميض النور يمكن أن ينبعث فيشعّ نوراً في قلب حامله ووجدانه فيرجى خيره، ويستدرك ما فرط من تقصيره ويتوب ويؤوب ويستأنف العمل بعدما يخالطه الوجل فينتقل إلى خير مرتحل فهو مدعاة للخير ورجاء الإيمان وأمل الالتزام ومعقد الحياء والتراجع.

وإذا ما هتك السر وجاهر بالمعاندة فقد تعرض للسخط والطرد من حمى الرب وأستولى اليأس وذلك هو الخسران والكفر المبين وبالله المستجار وبه المعاذ.

---

(١) سورة العنكبوت /٤٥.

(٢) م ٢٤٢ /٥١١.

(٣) سورة آل عمران /١٠٢.

١٥) التقوى المجسمة:

ونورد من كلمات الإمام عليه السلام وخطبه ما يجسّد التقوى ويحيط بأطرافها وكافة جوانبها المتمثلة في الجوانح والجوارح، وكذا ما يقابلها من خلود إلى الدنيا وإنغماس في لذاتها وشهواتها، ومدى فعلها وتأثيرها في القلوب الواعية والنفوس الزاكية.

نورد من حكمه الجم نصين لنرى دور التربية الإلهية التي كان الإمام يتولى ريادتها والقيام بشؤونها وحمله الخلق على جادة الحق.

النص الأول:

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ الله بِتَقْوَى الله، فَإِنَّهَا حَقُّ الله عَلَيْكُمْ، وَالمُوجِبَةُ عَلَى الله حَقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِالله، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى الله، فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الحِرْزُ وَالجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلى الجَنَّةِ، مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ، لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الأُمَمِ المَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَى، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى.

فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ الله سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وأكظّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَف خَلَفاً، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِف مُوَافِقاً.

أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، واقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الأَسْقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا الحِمَامَ، وَاعْتَبِرُوا

بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلاَ يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا.

أَلاَ وصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُو عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً، وَإِلَى الآخِرَةِ وُلاَّهاً. وَلاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا، وَلاَ تَشِيمُوا بَارِقَهَا، وَلاَ تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلاَ تُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَلاَ تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلاَ تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا، فَإِنَّ بَرْقهَا خَالِبٌ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَعْلاَقَهَا مَسْلُوبَةٌ.

أَلاَ وَهِيَ المُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُون، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ. حَالُهَا انْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ، دَارُ حَرَب وَسَلَب، وَنَهْب وَعَطَب، أَهْلُهَا عَلَى سَاق وَسِيَاق، وَلَحَاق وَفِرَاق. قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا، فَأَسْلَمَتْهُمُ المَعَاقِلُ، وَلَفَظَتْهُمُ المَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمُ المَحَاوِلُ: فَمِنْ نَاج مَعْقُور، وَلَحْم مَجْزُور، وَشِلْو مَذْبُوح، وَدَم مَسْفُوح، وَعَاضّ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِق لِكَفَّيْهِ، وَمُرْتَفِق بِخَدَّيْهِ، وَزَار عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِع عَنْ عَزْمِهِ، وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ، ﴿وَلاَتَ حِينَ مَنَاص﴾.

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، ومَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾»[1].

النص الثاني:

«روي أنّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همّامٌ كان رجلاً عابداً،

(١) خ ١٩١ /٢٨٤ـ٢٨٥.

فقال له: يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين كأني أنظر إليهم ،فتثاقل عن جوابه، ثم قال عليه السلام: يا همّامُ، اتقِ اللهَ وأحْسِنْ فـ ﴿إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

فلم يقنع همّامٌ بِذَلِكَ القول حتّى عزم عليه.

قال: فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سبحانه خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ.

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ، نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ. لَوْ لاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إِلى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ.

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ.

قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُم، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا وَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً،

يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَة فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلى اللهِ فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض، وَيَقُولُ: قَدْ خُولِطُوا! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ.

إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي! اللهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِين، وَحَزْماً فِي لِين، وَإِيمَاناً فِي يَقِين، وَحِرْصاً فِي عِلْم، وَعِلْماً فِي حِلْم، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَة، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَة، وَصَبْراً فِي شِدَّة، وَطَلَباً فِي حَلاَل، وَنَشاطاً فِي هُدىً، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَع، يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَل، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ

فِيما لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ، الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ.

إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ. بَعِيداً فُحشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ.

لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ، يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ.

لاَ يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، ولاَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَة، أَتْعَبَ نفسه لِاخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْر وَعَظَمَة، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْر وَخَدِيعَة.

قال: فصعق همّام رحمه الله صعقةً كانت نفسُه فيها.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ: هكَذَا تَصْنَعُ المَوَاعِظُ البَالِغَةُ بِأَهْلِهَا؟»[١].

ورعى الله من أدّى حق النظر والتأمل في كل مفردة وجملة من هذا المقال النفيس والجوهر الفريد الذي أحاط وأفاض دقة وتحليلاً تزهيداً في الدنيا الفانية وترغيباً في الآخرة الباقية وكشفاً لنوازع النفس وبياناً لحقائق الإيمان وصدق العبودية وموجبات رضا الرب وكيف صنعت بمن وعاها ورعاها حق الدراية والرعاية.

ولا غرو فقد صدع بها إمام المتقين ويعسوب الدين والهادي إلى جنات النعيم مولانا أمير المؤمنين وسيد الموحدين علي -عليه أفضل صلوات المصلّين- وكفى بها برنامجاً ومنهجاً ومصدراً ومرجعاً، وهي أجل من التوصيف وأكمل من التعريف.

---

(١) خ ١٩٣ /٣٠٣-٣٠٦.

المال ومتسع شؤونه

وللإمام عليه السلام حديث مستفيض حول المال بثه في خطبه الطوال وحكمه القصار وأحاط بجوانب عدة من متعدد مسائله وقضاياه.

«الْفَقْرُ المَوْتُ الأَكْبَرُ»[1].

«يا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ، فاسْتَعِذْ بِالله مِنْهُ»[2].

«والفَقْرُ يُخْرِسُ الفَطِنَ عن حُجَّتِهِ»[3].

وفي التعامل بالمال تتجلى خلائق أربابه والمحرومين من بريقه ورنينه، ويمثل مركزاً من الابتلاء والمحنة والافتتان، ويجر وراءه ذيلاً طويلًا من التبعات العاجلة للآجلة.

وقد ابتلي الإمام العظيم في عهد حكمه بمحنة المال وما ورثه من تركة ثقيلة غب ما كان يمارسه من سبقه من سياسة مالية تربت عليها الأمة، وقد استأثرت تلكم التركة والتربية بوافر من كلمه جسد فيه

---

(١) م ١٦٣ / ٥٠٠.

(٢) م ٣١٩ / ٥٣١.

(٣) م ٣ /٤٦٩.

منهاجه وخلائقه كما عكس منهاج أولئك وخلائقهم.

وسنعرض صوراً من نظرة الإسلام الدقيقة ونظامه القويم كما رسمتها ريشة الإبداع في كف الإمام أو حكى عنها قوله في نهج بلاغته.

١) الله هو الغني والعبد هو المبتلى:

«وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ،... وَلاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا،... وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾،...، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ،... وَاسْتَقْرَضَكُمْ ﴿ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾، وَإِنَّما أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً»[1].

ومن كلام له في هذا المجال ما قاله عليه السلام:

«لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ الْفِتْنَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ، وَلكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾، وَمَعْنَى ذلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِط لِرِزْقِهِ وَالرَّاضِي بِقِسْمِهِ، وإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلكِن لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ وَيَكْرَهُ انْثِلاَمَ الحَالِ»[2].

وكان خطابه عليه السلام دائراً بين الأجسام والأموال، اقتطعنا منه موطن

(١) خ ١٣٨ /٢٦٧ـ٢٦٨.

(٢) م ٩٣ /٤٨٣ـ٤٨٤.

حديثنا وقد أدمج قوله في خطابه مع نص الله في كتابه، مقررًا بذلك حقيقة وقاعدة فالمال ملك من وهبه وأعطاه وهو الغني المطلق، والعبد فقير مطلق مُلّك فملك والمالك المعطي -وهو في غناه- يستقرض عبده ما أعطاه مختبراً شكره لما أنعم عليه به ليبلو خلقه وقد كان به عليماً خبيراً.

٢) المال والمرزوق منه والمحروم وأدبهما:

أ) «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأَرْضِ كَقَطرِ المَطَرِ إلى** كُلِّ نَفْس بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَة أَوْ نُقْصَان، فإذا رَأَى أَحَدُكُمْ لأَخِيهِ غَفِيرَةً[١] في أَهْل أَوْ مَال أَوْ نَفْس فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً، فَإِنَّ المَرْءَ المُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ، وَيُغْرَى بهَا لِئَامُ النَّاسِ، كانَ كَالفَالِجِ اليَاسِرِ[٢] الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَة مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ المَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ عَنْهُ بها المَغْرَمُ، وَكَذلِكَ المَرْءُ المُسْلِمُ البَرِيءُ مِنَ الخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ الله إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ: إِمَّا دَاعِيَ الله فَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ الله فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْل وَمَال، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ، إِنَّ المَالَ وَالبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، والعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ لِأَقْوَام»[٣].

وتمثل هذه الفريدة هدياً في الاعتقاد، ونبراساً في السلوك، فإذا كمل اعتقاد المخلوق بأن الخالق هو الرازق بحكمة وتدبير ومصلحة وتقدير

---

(١) غفيرة: زيادة وكثرة.

(٢) الفالج: الظافر الفائز.

الياسر: اللاعب بقداح الميسر، المقامر.

(٣) خ ٢٣ /٦٤.

أيقن بجميل اختيار الله وحسن صنعه بعبده فتطمئن بذلك نفسه ويصبر ويشكر في مواطن الصبر والشكر ويسلم تسليماً.

هذا وهو يعي أن لا حيلة للمخلوق فيما قُسم له فربما حظي بالدنيا الغبي وحرم منها العبقري.

كم عاقلٍ عاقلٍ أَعْيَتْ مذاهبُهُ ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقا

هذا الذي تَرَكَ الأوهامَ حائرةً ... وصَيَّرَ العالِمَ النحريرَ زِنديقا

فلا يكونن ذلك فتنة له في دينه، وتمرداً على بارئه، وقنوطاً من خيره وعطائه فربما تبدل الحال وأنتقل المال فيعود إلى المحروم غير مثلوم الدين، مرضي الخلق، والمال وإن عظم خطره وأعتده الناس كل شيء أو أهم شيء فإنما هو متاع الدنيا وحرثها ولا ضير ولا هوان على فاقده بل ربما كان خفيف المؤنة قليل التبعة في الآخرة.

إذا المرءُ لم يدنسْ من اللُؤْم عرضهُ ... فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ

ب) التواضع للغني:

«وَمَنْ أَتى غَنِيّاً فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ»[1].

ج) تواضع وترفع:

«مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللهِ! وأَحْسَنُ مِنْهُ تِيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ اتِّكَالاً عَلَى اللهِ»[2].

---

(١) م ٢٢٨ /٥٠٨.

(٢) م ٤٠٦ /٥٤٧.

فثمت تواضعان مذموم ومحمود، وترفع ممدوح، وكلٌّ يوصف بما يستحقه.

فالتواضع للغني لا لصفات كريمة وخصال حميدة يتحلى بها يعني التقديس للمال والتذلل له وتملكه للقلب وصرفه عن الرب، فماذا يبقى بعد من دين هذا الخاشع المتواضع؟!

أمّا من ملك رفاه المعاش والتقلب في الرياش وفي ذلك بواعث الزهو والفخر والتعالي ولكن لم يشمخ بأنفه ولم يختل في عطفه بل رق قلبه وخضعت جوارحه لمن هو دونه في حساب أهل الدنيا فهو على ذكر من ربه، ورجحان في عقله وموازينه.

ومن كابد فقراً وعاش مرًّا يرى الأغنياء في نعيمهم يرفلون، يبذّرون ويسرفون وهو مالك إرادته فلا يُقَبِّل يداً طمعاً، ولا يذوب جزعًا بل وكأنه لم يعش فقراً ولم يرَ واجداً بل تعلق قلبه بربه فبيده الإعطاء والمنع فذلكم هو الترفع الشريف والخلق العفيف.

ولعل لدقة الموقف والتمرد على الفقر ومكابداته اعتده الإمام عليه السلام ببليغ قوله: (تيهًا) بل وأحسنَ من ذلكم التواضع المحمود.

٣) البخل والسخاء:

«وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ»(١).

---

(١) م ٣٨/ ٤٧٥.

«السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وتَذَمُّمٌ»[١].

«عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ، وَيَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِى إِيَّاهُ طَلَبَ، فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ، وَيُحَاسَبُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ»[٢].

وقال ﷺ وقد مر بقذر على مزبلة:

«**هذا مَا بَخِلَ بِهِ الْبَاخِلُونَ**»[٣].

وروي في خبر آخر أنه قال:

«هذَا مَا كُنْتُمْ تَتَنَافَسُونَ فِيهِ بِالْأَمْسِ»[٤].

«طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ، وَطَابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إلى الْبِدْعَةِ»[٥].

«الْجُودُ حَارِسُ الْأَعْرَاضِ»[٦].

وقال ﷺ لجابر بن عبدالله الأنصاري:

---

(١) م ٥٣ /٤٧٨.

(٢) م ١٢٦ /٤٩١.

(٣) م ١٩٥ /٥٠٤.

(٤) م ١٩٦ /٥٠٤.

(٥) م ١٢٣ /٤٩٠.

(٦) م ٢١١ /٥٠٦.

«يَا جَابِرُ، قِوَامُ الدِّينِ والدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: ... وَجَوَادٍ لاَ يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لاَ يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ... وَإِذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ. يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ الله عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ لله فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ»[(١)].

«اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ الله كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ الله وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ المَوَاعِظِ وَقْراً! أَيْنَ خِيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ؟! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ»[(٢)].

«وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلاَ جَبَاناً يُضعِّفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلاَ حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِالله»[(٣)].

«الْبُخْلُ عَارٌ»[(٤)].

«الْبُخْلُ جَامعٌ لِمَسَاوِىءِ الْعُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ»[(٥)].

---

(١) م ٣٧٢ /٥٤١.

(٢) خ ١٢٩ /١٨٧.

(٣) ك ٥٣ /٤٣٠.

(٤) م ٣ /٤٦٩.

(٥) م ٣٧٨ /٥٤٣.

«وقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ وَالأحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ»(١).

وهكذا رأينا الإمام -صلوات الله على شريف ملكاته- يمدّنا برؤيته الإلهية الثاقبة حول الفقر والغنى، وأدب الفاقد والواجد، ومدى تغلغل المال في حياة الإنسان وانعكاسه على الخلائق، وانعكاس الخلائق عليه والياً ورعية وصاحباً ومستشاراً، وعمق ارتباط ذلكم التفاعل إيجاباً وسلباً مع وثوق الإيمان بالله وجميل الثقة به وحسن التوكل عليه.

٤) شؤون مالية أخرى:

«الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ»(٢).

«المَالُ مَادَّةُ الشَّهَوَاتِ»(٣).

«يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ المَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ المَالَ. وَالمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ المَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الإنسان الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ. يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيادٍ، هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ»(٤).

---

(١) خ ١٣١ /١٨٩.

(٢) م ٥٦ /٤٧٨.

(٣) م ٥٨ /٤٧٨.

(٤) م ١٤٧ /٤٩١.

وقال لرجل سأله أن يعظه:

«اللَّهْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ»(١).

«اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ»(٢).

«ومَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ»(٣).

«مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ»(٤).

«سُوسُوا إيمانكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ»(٥).

«إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلاَّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِي، وَاللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذلِكَ»(٦).

«كُنْ سَمَحاً وَلاَ تَكُنْ مُبَذِّراً، وَكُنْ مُقَدِّراً وَلاَ تَكُنْ مُقَتِّرًا»(٧).

ودخل على العلاء بن زياد الحارثي -وهو من أصحابه- يعوده، فلما رأى سعة داره قال:

«مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هذِهِ الدارِ فِي الدُّنْيَا، أَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟ وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ، تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا

(١) م ١٥٠/ ٤٩٨.

(٢) م ١٣٧/ ٤٩٤.

(٣) م ١٣٨/ ٤٩٤.

(٤) م ١٤٠/ ٤٩٤.

(٥) م ١٤٦/ ٤٩٥.

(٦) م ٣٢٨/ ٥٣٣.

(٧) م ٢٣/ ٤٧٤.

الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ»[١].

«وَلَيْسَ لِوَاضِعِ المَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الحَظِّ فِيمَا أَتَى إِلاَّ مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ، وَثَنَاءُ الأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ، مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ!.

فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأَسِيرَ وَالْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ؛ فَإِنَّ فَوْزاً بِهذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ»[٢].

«لاَ تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ»[٣].

«مَاءُ وَجْهِكَ جَامِدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤَالُ، فَانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ»[٤].

«لاَ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثِقَ بِخَصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةِ، وَالْغِنَى :بَيْنَا تَرَاهُ مُعَافىً إِذْ سَقِمَ، وَغَنِيّاً إِذِ افْتَقَرَ»[٥].

«إِنَّ أَعْظَمَ الْحَسَرَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ، فَوَرِثَهُ رَجُلٌ فَأَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَدَخَلَ بِهِ الْجَنَّةَ، وَدَخَلَ

(١) خ ٢٠٩ /٣٢٤.

(٢) خ ١٤٢ /١٩٨.

(٣) م ٦٧ /٤٧٩.

(٤) م ٣٤٦ /٥٣٥.

(٥) م ٤٢٦ /٥٥١.

الْأَوَّلُ بِهِ النَّارَ»[١].

«إِنَّ أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً وَأَخْيَبَهُمْ سَعْياً، رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ مَالِهِ، وَلَمْ تُسَاعِدْهُ الْمَقَادِيرُ عَلَى إِرَادَتِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ، وَقَدِمَ عَلَى الْآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ»[٢].

وقال عليه السلام لغالب بن صعصعة أبي الفرزدق، في كلام دار بينهما: «مَا فَعَلَتْ إِبِلُكَ الْكَثِيرَةُ؟ قال: دَغْدَغَتْهَا الْحُقُوقُ يا أميرَ المؤمنينَ، فَقَال عليه السلام: ذَاكَ أَحْمَدُ سُبُلِهَا»[٣].

وبعد...

فهذا خير الحكم، وأجل الهدي، وأجلى التبصير للعاقل بما يليق به أن يحياه من دقيق الفكر وصالح العمل فيما يرزق ويحرم.

والأمر لما لم يكن هيناً فقد أولاه الإمام العناية والتركيز لترتاض عليه النفوس ويتربّى على نهجه الفرد والمجتمع والأمة.

(١) م ٤٢٩/ ٥٥٢.

(٢) م ٤٣٠/ ٥٥٢.

(٣) م ٤٤٦/ ٥٥٤.

قيمة الإمرة لولا العدل

أ) "قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصِف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمةَ لها! قال: والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ من إِمرتكم، إِلاّ أَن أُقيم حقّاً، أَوأَدفع باطلاً، ثمّ خرج عليه السلام فخطب الناس"[1].

وظرف هذا الحديث عند خروجه لقتال أهل البصرة، وإطفاء فتنة الأمة الخارجة، ويحكي خلائقه -صلوات الله على ملكاته- فهو يتولى إصلاح نعله البالية التي لا قيمة لها بنفسه الشريفة، وهو لا يعتد الإمرة تساوي قيمتها الزهيدة بل هي أحب إليه منها.

أجل إن يكن للولاية قيمة فهي لشرف ما أنيط بدورها من إقامة الحق وإفشاء العدل وإزهاق الباطل وإخماد الفتنة وتسوية الحقوق.

وهكذا تكون الخلائق الفاضلة والنفوس العالية والهمم الشامخة.

وله حديث مماثل ختم به خطبته الجليلية الدائرة حول عظمة الله وأنبيائه مفيضاً القول في صفوتهم وخاتمهم -صلى الله عليه وآله وعليهم-

---

(١) خ ٣٣ /٧٦.

فقال عليه السلام:

«وَاللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلاَ تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى!»(١).

ب) مهمة الحكم ووظائف الحاكم:

«اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلاَ الْتِمَاسَ شَيءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَآلِهِ وسَلَّمَ بِالصَّلاَةِ»(٢).

وهذا المقطع أشبه بالمناجاة والضراعة إلى الله جل جلاله منه بالخطاب لأمة أختلفت نفوسها وتشتت قلوبها، وعصفت بها الأحداث والتقلبات، وغيرت وبدلت مسيرتَها مسيرةُ الحاكمين قبله وتربيتُهم التي ألفوها واستمرؤها، فلما أراد حملهم على جادة الحق ونهج الصدق نفروا نفور المعزى من وعوعة الأسد.

وتكشف هذه المناجاة بواطن المبتهل بها وسرائره كما برهنت على عمقها وصدقها أفعالُه وانفعالاتُه كافة أيامه ومختلف أدواره.

فعلي الحق وممثل الحق جسّد الواقعية والموضوعية بمنتهى الدقة

---

(١) خ ١٦٠ /٢٢٩.

(٢) خ ١٣١ /١٨٩.

وكمال الانضباط فهو -سلام الله عليه- مع ما يرى (تراثه نهبًا) وأقام الحجة على حقه إلا أنه لم يثرها حربًا شعواء ولا جنح إلى فتنة بل أعلن شعاره:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَاسَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وزِبْرِجِهِ»[1].

وعاش الصبر وكابد المحنة طويلًا من الدهر محتسبًا، فلما فاء الحق والناس إليه كشف لهم عن سر قبوله وإستجابته لانثيالهم عليه وما هو قائم به فيهم.

وقد سجل في هذا المقطع شؤونًا ذات شجن وشجون من السنن المضاعة والحدود المعطلة والفساد المستشري في البلاد والعباد.

كما أبان عن دوره الطبيعي في القيام بأعباء الإمامة، فعلي الإمام المرتضى صنو النبي المصطفى -صلى الله عليهما وآلهما- أول من أناب وسمع وأجاب وثاني اثنين صليا لله تبارك وتعالى.

هذا وبقية الخطبة في شروط والي الأمة وسماته وسلبيات فاقدها على الدين والرعية.

وفي خطبة ١٥٢ / ٢١٢ حديث حول دور الأئمة وموقعهم من دين الله دنيا وآخرة في غرر من جوامع الكلم ودرر الحكمة وشامخ

(١) خ ٧٤ /١٠٢.

المقامات مع بوح وتلويح لمكنون النفس وفيء الخلافة إليه.

جـ) التفاوت في البيعة منهجاً وهدفاً:

«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً. إِنِّي أُرِيدُكُمْ لله وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وأَيْمُ الله لَأُنْصِفَنَّ المَظْلُومَ، مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً»(١).

فبيعته نص الله وتبليغ رسوله ولم تك من الناس، ومن كان توظيفه إلهياً فأهدافه إلهية، فلا مطمع فيه لأهل الدنيا الذين اتخذوها دون الله بدلًا وإن للمقياس الدقيق البليغ المحير الجامع المانع «أريدكم لله، تريدونني لأنفسكم»، ولا ختلاف البواعث والمنطلقات تختلف المقاصد والغايات، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾.

د) ميدان السباق:

وقال عليه السلام:

«الْوِلاَيَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ»(٢).

ففيها يتجلى السابق واللاحق والفائز والخاسر، والجلد والرخو.

والولاية على الأمة وبما تستوجبه من مقومات وملكات وبما تشتبك فيه شؤونها في مختلف القضايا والمجالات فهي المضمار الأعظم والسباق

---

(١) خ ١٣٦ /١٩٤.

(٢) م ٤٤١ /٥٥٤.

الأطول والميدان الأرحب.

وحكمة الإمام وإن عمّت كافة من امتطى وأجرى خيله في المدى **إلا أنه فيما يعني بالأولوية: ولاية الإسلام والمسلمين وهي الأجدر** بالمؤهلات الأعلى، والكفاءات الأرقى علماً وإيماناً وسياسة وشجاعة وإنسانية وخلقاً.

حق الراعي والرعية:

أ) الحقوق المتقابلة المتكافئة:

«أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي المَشْهَدِ وَالمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ»[1].

إذاً فليست قضية حاكم ومحكوم وقيام أمرهما بالتعالي والاستعباد، والأنانية والاستبداد بل هي الحق والحقوق لكل منهما وعليه، وهذه ركيزة قويمة وإنطلاقة مستقيمة.

ويشد الانتباه إلى بدأته ﵇ ببيان حق رعيته ومن تولى أمره فإذا به يمثّل الإنسانية الفذة والروح الكريمة والخلال الجامعة للخير والهدى دينًا ودنيا.

إرشاد أبوي، وعاطفة حنان، وسعي لتوفير الحياة الكريمة، وهدي

(١) خ ٣٤ /٧٩.

للمعرف، وحمل على مناهج الحق، وكلها جماع الفضائل الآخذة بأسباب الاستقامة.

ب) حقّ الوالي وحقّ الرعية:

"ثُمَّ جَعَلَ -سُبْحَانَهُ- مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلاَ يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ، عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ -سُبْحَانَهُ- لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِصَلاَحِ الْوُلاَةِ، وَلاَ تَصْلُحُ الْوُلاَةُ إِلاَّ بِاستقامة الرَّعِيَّةِ. فَإِذا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إلى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إِلَيْهَا حقَّهَا، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلاَلِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ. وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ، وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلاَ يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلاَ لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ. فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ ـ وَإِنِ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ ـ بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ امْرُؤٌ -وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ

فَضِيلَتُهُ- بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ.وَلاَ امْرُؤٌ ـ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ ـ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلى ذلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ»(١).

وهذه الوثيقة الدقيقة جمعت وأوعت حقائق الحق وركائز العدل، وقواعد النظام الذي أقامه الله لعباده وأراد لهم إتباعه

وقد جسدت الوثيقة الشريفة صفاء الإسلام ونقاءه وأشاعت الوضوح و(الشفافية) كما يعبر بها الآن.

ثم كشف الإمام عليه السلام في بقية الخطبة التي خطبها بصفين عن سرائر ذاته ومكنون نفسه وجوهر دخيلته حين انبرى رجل من اصحابه مبهورًا يكثر الثناء عليه ويعلن سمعه واطاعته له فقال عليه السلام:

«إنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلاَلُ الله سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ ـ لِعِظَمِ ذلِكَ ـ كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ الله عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ الله عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ ازْدَادَ حَقُّ الله عَلَيْهِ عِظَماً. وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالاَتِ الْوُلاَةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ -بِحَمْدِ الله- كَذلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً لله سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ. وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلاَءِ، فَلاَ تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلى الله وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لاَ بُدَّ مِنْ

---

(١) خ ٢١٦ /٣٣٣ـ٣٣٤.

إِمْضائِهَا، فَلاَ تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلاَ تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلاَ تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلاَ تَظُنّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلاَ الْتِمَاسَ إِعْظَام لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَل عَلَيْه. فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلاَ آمَنُ ذلِكَ مِنْ فِعْلِي، إلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لاَ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلاَلَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى»[١].

أجل... ولا غرو فإن من ارتضاه الله ورسوله للإمامة وحمل الأمانة لا يليق به إلا الكمال.

ج) الحمل على منهاج رسول الإسلام:

«وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الاعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الأَعْنَاقِ»[٢].

وهي حقيقة قرّرها الله في قرآنه وعلى يد رسوله ﷺ ومحورها الذي لا تنضبط إلا بثبوته وفلكها الذي تدور حوله هو الانقياد إلى الداعي ولكنه الداعي إلى الحق من قبل الحق جلّ وعلا.

وقد كان متمثلاً في شخص النبي المصطفى، وهو الآن في ذات

---

(١) خ ٢١٦ /٣٣٥.

(٢) خ ١٦٦ /٢٤١.

الوصي المرتضى وهو ما حكاه القرآن:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وهو واقع وشأن خليفة النبي والقائم مقامه الذي قال في نعته:

«عليٌّ مع القرآنِ والقرآنُ مع عليٍّ»، و«عليٌّ مع الحقِّ والحقُّ مع عليٍّ».

د) أدب الوالي وجميل أثره:

«وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسِطْ لَهُمْ وَجْهَكَ وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لاَ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلاَ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ، وَالسَّلاَمُ»[2].

وبعد...

فالسفر النفيس مثقل بجواهر كلمه ولئالئ حكمه في هذا المضمار وسواه من الميادين على نهج قويم من البلاغة والبراعة

ومن تلكم الدرر الغرر:

---

(١) سورة الأعراف /١٥٧.

(٢) ك ٤٦ /٤٢١.

١) كتابه لواليه محمد رضي الله عنه بن أبي بكر[١]:

٢) وكتابه إلى بعض عمّاله[٢].

٣) وكتابه الطويل الجليل إلى عثمان بن حنيف الأنصاري - عامله على البصرة - وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها[٣].

٤) كتابه للأشتر النخعي لما ولاه مصر[٤].

وهو أجلّ من أن يقال عنه جليل، فهو النفيس النادر، والعهد الجامع للحسن، وأمثولة الهدي الرباني، وجوهر الإسلام الأصيل، وخلقه العظيم، وأدبه الرفيع.

---

(١) ك ٢٧ /٣٨٣ـ٣٨٥.

(٢) ك ٣١ /٤١٢ـ٤١٤.

(٣) ك ٤٥ /٤١٦ـ٤٢٠.

(٤) ك ٥٣ /٤٢٦ـ٤٤٥.

الاستماتة في الحق وصدق التضحية لنصرة الدين

«وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوانَنَا وَأَعْمامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ[1] وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ[2] الْأَلَمِ وَجِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتخَالَسَانِ[3] أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ[4] وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ»[5].

وفي هذ النص المصور المعبر وقفات تأمّل ومواطن اعتبار.

---

(١) اللقم: معظم الطريق أو جادته.

(٢) المضض: لذعته وبرحائه.

(٣) التخالس: طلب كل واحد اختلاس روح الآخر.

(٤) الجران: مقدم العنق من المذبح إلى المنحر.

(٥) خ ٥٦ /٩١-٩٢.

الأولى: ظرف المقال:

فقد كان هذا الخطاب المفعم بروح الفداء ونبض الجهاد أيام صفين العصيبة حيث دب الوهن في صفوف جيشه فمالوا إلى الصلح وارتاحوا إلى الدعة.

الثانية: لابد للحق من قوة:

فلما صدع رسول الله ﷺ بدعوة الحق قام في وجهه الأقربون والأبعدون وتظافر الكل على وأده في مهده. فلولا نصرة الخلّص الأوفياء لما نهض وقام. إذن فلابد له من قوة تحمي حماه وترد عنه عوادي الكفر، وتعز أولياء الحق.

الثالثة: التضحية بالنفس برهان الإيمان العميق:

فالمقدسات تفوق كل اعتبار، والحقائق تسمو على وشائج القربى ولحمة الدم والنسب.

وذلكم مبدأ أصّله القرآن الكريم في تربيته الروحية:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة المجادلة /٢٢.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۞ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۞ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

هذا والكافر مستميت في نصرة ما يؤمن به حقاً -وهو في واقعه باطل- فجدير بالمؤمن أن يكون فداؤه لما يؤمن به حقاً أصدق وقعًا وأشد مضاءً وأمضى أثرًا.

الرابعة: ولينصرن الله من ينصره:

وقد تجلى النصر المؤزر وجاء الفتح المبين من الله لدينه ورسوله وحماة شرعه، وتاريخ الإسلام في حروبه وغزواته وسراياه تشرق صفحاته بأبعاد ذلك وأمجاده ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾(٣).

---

(١) سورة الممتحنة /١ـ٣.

(٢) سورة التغابن /١٤.

(٣) سورة البقرة /٢٤٩.

الخامسة: وبذلك ثبتت أركانه وقامت دعائمه:

وإنه لمن المعجز حقًّا ذلكم التحول العجيب مما كان عليه أمر الإسلام في نشوئه في مكة إلى ارتقائه في المدينة خلال فترة قصيرة فإذا الفتح يستتبع فتحاً والنصر يعقب نصراً وتدور الدائرة على أولئك الأسياد عتاة قريش ومردة أهل النفاق فإذا بهم الأذلاء تقتلهم غلمانهم وعبيدهم المعذبون بأيديهم، وإذا بمن طَرَدُوا رسول الله ﷺ من مأمنه وموطنه يعودون اليوم في مأمنهم وموطنهم تحت قبضته أرواحُهم وأنفاسُهم، ورأوا من عزّ الإسلام ما أذلّهم وحطّ كبرياءهم وإنه العفو عند المقدرة فيعيد لهم الحياة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وذلكم في ملحمة الفتح المبين.

«وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمان عُودٌ وأَيْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً»[١].

ويقرر الإمام عليه السلام في هذا المقطع الأخير حقائق:

الأولى: يقسم جازماً بأن الدين العظيم ما كان ليضرب جرانه لولا صدق التضحية وخالص الفداء من ذوي البلاء الحسن الجميل ممن بذلوا أرواحهم في إقامة دين الله وإحياء أمره، ولو كان من آمن به يصنع كما تصنعون اليوم لوئد في مهده ولم تثبت له قدم.

الثانية: الإجلال والإكبار لأولئك الحماة المجاهدين والغيارى الباذلين فقد صدقوا ما عاهدوا عليه فحازوا الفخر والإعظام وتاج

---

(١) خ ٥٦ /٩٢.

الكرامة.

وقفة:

ولئن كان لأولئك المخلصين فضلهم ودورهم في حياطة أمر الإسلام وإقامة بنائه، فللإمام المقام الأسمى والقدح المعلّى والشأن الأتم والجهد الأكمل حيث لا يسبقه سابق، ولا يجري في مضماره سواه فهو مفرداً جيش الإسلام، وقوامه وعدته، كاشف الكرب وهازم الأحزاب.

لقد قال علي عليه السلام في ذلك:

«وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا»[1].

وأحال الشاعر السؤال فقال:

إن كنت لجهلِكَ بالأيام ... جَحَدْتَ مقامَ أبي شُبّرْ
فاسألْ بدراً واسألْ أحداً ... وسل الأحزابَ وسلْ خيبرْ
من دبّرَ فيها الأمرَ ومن ... أردى الأبطالَ ومن دَمّرْ
من هدّ حصونَ الشركِ ومن ... شادَ الإسلامَ ومن عَمَّرْ[2]

وكما ابتدأ جهاده من يوم الإسلام الأول فقد أمتد حتى آخر يوم في حياته فأيامه كلها جهاد وحياته كلها فداء.

---

(١) خ ١٩٧ /٣٦١.

(٢) من القصيدة الكوثرية العصماء، لشاعر أهل البيت عليهم السلام السيد رضا الهندي ـ رضوان الله عليه.

«أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِيَ اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ وَرَجَّةُ صَدْرِهِ وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ وَلَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً»(١).

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية:

«وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي»(٢).

وبعد...

فليس من القصد استعراض بطولات الإمام وجميل بلائه وإنما هو استطراد اقتضته المناسبة وإلا فحديثه شهير وفير مثير، وبكلمة: ما قام الإسلام إلا بسيفه.

فقد جاء في رواية أبي سعيد الخدري:

«أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله الراية فهزّها فقال: من يأخذها بحقّها؟ فقال فلان: أنا، فقال: أمط، ثم جاء رجل آخر فقال: أمط، فقال: والذي كرّم

---

(١) خ ١٩٢ /٢٩٩_٣٠٠.

(٢) ك ١٠ /٣٧٠.

وجه محمدٍ لأعطينّها رجلاً لا يفرُّ، هاك يا علي، فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر، جاء بعجوتها وقديدها»[1].

الثالثة: وخيم العواقب:

أجل إن في الجهاد قطع الأيدي وتطاير الرؤوس وإزهاق النفوس وثكل الأولاد وترمّل الأزواج، ولكنه محمود العواقب، كيف لا وهو عنوان الإيمان وبرهان التصديق والمشاطرة في إقامة دولة الحق وباب مشرع إلى الجنة.

أما الفرار من الزحف وحب السلامة والميل إلى الدعة فإن وفر في الحياة مدّة ومن الأيام عدّة فقد أذهب عزًّا وأبقى ذلاً، وفارق حقاً ووافق باطلاً وأعقب خسراناً دنيا وآخرة.

وكان عاقبة أولئك الناكصين الخاذلين المتخاذلين سوءاً، فقد مُزقوا تمزيقاً، وتولى عليهم من لم ينلهم حظاً من الدنيا، وأما الدين فقد آثروا تلكم الدنيا واستبدلوه بها، و﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[2].

---

(١) فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لأحمد بن حنبل /١٥٦.

(٢) سورة الكهف /٥٠.

الزهد

وهو من أمهات الفضائل الأخلاقية، والكمالات الإنسانية، والملكات العالية.

وللإمام عليه السلام في الحديث عنه سبح طويل وسبر عميق، ما انفكّ لهجًا بذكره في خطبه الطوال وجمله القصار وكتبه وعهوده، كاشفًا عن دقيق مدلوله ومواطن تجلّيه، مبيّنًا الصدق فيه من الكذب، والحق منه والباطل.

وكما صوّر وأبدع في استقراء مصاديقه ومظاهره، فقد جسّده بنحو أروع، ومثّل الزهد محسوسًا تقمّص به الإمام وتقمّص هو بالإمام، ولم ينزع أيٌّ منهما عن ظهره رداءه.

وفيما يلي عرض لشذرات من كلمه، ثم أعقبه بصور من زهده:

١- تعريف الزهد:

أ) «الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾. وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى المَاضِي وَلَمْ

يَفْرَحْ بِالْآتِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ»[١].

وطريف جدًّا هذا الانتزاع القرآني، ولا غرو فإنه ممن هو مع القرآن والقرآن معه، بل هو القرآن الناطق والترجمان الصادق.

والحدّ دقيق، وموضوعه الدنيا وزينتها ومتاعها ومتعها، وليس ناظرًا لعمر ضيّع وذنب ارتكب، أو خير صنع ومكروه دفع، فإنها من مواطن الحسرة والحزن والندامة، والأخرى من مواطن السرور والسعادة.

وأما الدنيا وعوارضها (خيرًا يظن وشرًّا يحسب) فهي مورد الابتلاء والامتحان وجودًا وفقدًا وسعة وضيقًا وشدة ورخاءوإقبالاً وإدبارًا.

وفي مثل ذلك يتجلّى العقل الحصيف والإيمان الراسخ بالإذعان لقضاء المولى والتسليم المطلق لتدبيره وتقديره، فلا حزن ولا رثاء لما فات، ولا فرح وثناء لما هو آت، بل هو الرضا بما حكم به القضا.

ب) «أَيُّهَا النَّاسُ الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ فَإِنْ عَزَبَ[٢] ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ وَلَا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ»[٣].

وفي هذا النص تفصيل لما أجمله النصّ السابق، فقد جمع الإمام عليه السلام فيه جهات عدة تمثل مجتمعة الزهد الحقيقي حيث يحيى الزاهد أملاً لا

---

(١) م ٤٣٩/ ٥٥٣_٥٥٤.

(٢) عَزَبَ: بَعُدَ.

(٣) خ ٨١/ ١٠٦.

استرسال فيه ولا امتداد، بل هو الأمل المحمود المملوك في حدوده، ولا بطر عند تواتر النعم، بل الامتنان والشكر، ولا جنوح للمحرمات مهما بلغ إغراؤها، وتلوّن خداعها واشتدّت فتنتها.

وثنّى عليه السلام مركّزًا، وكرّر مؤكّدًا على خلقين شريفين مؤثّرين: على الصبر والشكر، فبهما يستعان على الصمود أمام عادية استرسال الآمال وكفران النعمة، ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[١].

الدنيا وإغراء ما فيها:

والدنيا مسرح مترع بما تهوى الأنفس، تنوّع ألوان، وتفنّن إغراء، وخبث احتيال، ومراوغة واستغفال.

وذلكم سِمَتُها الماثلة، وعنوانها البارز، أو قل ذلكم شأن الكثرة الكاثرة والسواد الأعظم والأعمّ الأغلب من الناس.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٢].

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ

---

(١) سورة إبراهيم /٧.

(٢) سورة آل عمران /١٤.

الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[١].

وهذا وجهها الكالح القبيح، وهي وعشّاقها المرتمون في أحضانها المتوحّلون في أدرانها موطن الذمّ ومعقد الحقارة.

أما الدنيا لدى عارفيها فهي (مزرعة الآخرة) و(الممرّ للمقرّ)، وقد مرّ حديث ذلك مفصلاً في مقدمات الكتاب.

وعلى ضوء فهم وجهتيها ومعرفة صورتيها يُترجم كلام الإمام عليه السلام ويُفسّر مدلوله، ويُدرك معقوله.

أ) «أَيُّهَا النَّاسُ انْظُرُوا إِلَى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا الصَّادِفِينَ[٢] عَنْهَا فَإِنَّهَا وَاللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ[٣] السَّاكِنَ وَتَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الْآمِنَ...»[٤].

ب) الدنيا: «خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ[٥] وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ...»[٦].

الزاهدون المخلصون:

أ) «إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ

---

(١) سورة الحديد /٢٠.

(٢) الصادف: المعرض.

(٣) الثاوي: المقيم.

(٤) خ ١٠٣ /١٤٨.

(٥) العتيد: الحاضر.

(٦) خ ١١٣ /١٦٧ـ١٦٨.

وَإِنْ فَرِحُوا وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبَطُوا[١] بِمَا رُزِقُوا»[٢].

ب) «كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ تَقَلَّبُ أَبْدَانِهِمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ وَيَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ»[٣].

ج) «وَاعْلَمُوا عِبَادَ الله أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ الله غَداً فِي آخِرَتِهِمْ»[٤].

ويتجلّى في هذا النص الكشف عن التقوى والزهد الحقيقيّين، وجميل التعامل ودقيق التفاعل مع الدنيا، كما يحكي النص الآتي طرف الموازنة الآخر.

د) «وَعَنْ نَوْفٍ الْبَكَالِيِّ، قَالَ: رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ

---

(١) اغتبطوا: بالبناء للمجهول: أي غبطهم غيرهم على ما عندهم.
وبالبناء للمعلوم: أي ارتاحوا لما أنعم الله عليهم.

(٢) خ ١١٣ /١٦٨.

(٣) خ ٢٣٠ /٣٥٢_٣٥٣.

(٤) ك ٢٧ /٣٨٣_٣٨٤.

خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لِي: يَا نَوْفُ أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ[١]، فَقُلْتُ بَلْ رَامِقٌ، قَالَ: يَا نَوْفُ طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا الرَّاغِبِينَ فِي الْآخِرَةِ أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطاً وَتُرَابَهَا فِرَاشاً وَمَاءَهَا طِيباً وَالْقُرْآنَ شِعَاراً وَالدُّعَاءَ دِثَاراً ثُمَّ قَرَضُوا[٢] الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ»[٣].

هـ) المتقون:

«قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى».

«أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ»[٤].

الزاهدون الكاذبون:

أ) «يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ»[٥].

ب) عند فناء الأجل: «فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ[٦] عِنْدَ

---

(١) الرامق: المنتبه.

(٢) قرضوا: مزّقوا كما يمزّق الثوبَ المقراضُ، ويحتمل أنهم أخذوا منها قليلاً يرفع ضرورتهم كما يؤخذ اليسير بالمقراض.

(٣) م ١٠٤ /٤٨٦.

(٤) خ ١٩٣ /٣٠٦-٣٠٧.

(٥) م ١٥٠ /٤٩٧-٤٩٨.

(٦) أصحر له: ظهر له وانكشف.

المَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ»[١].

ج) للضعف والهوان: «وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدًى[٢]»)[٣].

ومن حديث الزهد:

«أَحْيِ قَلْبَكَ بِالمَوْعِظَةِ وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ»[٤].

«وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ»[٥].

ولافت للنظر أن يكون القلب محورًا ومدارًا للحياة والموت في آن واحد، نعم إنه الفناء بالبقاء، والبقاء بالفناء، تلك هي دقة المعادلة وانضباط الموازنة.

والزهد كما يبدو ويتراءى فقد وعدم، ولكنه في جوهره وجود وتوفّر، كالزكاة مال يؤخذ فتنقصه النفقة ولكنه النماء، والله يُرْبِي الصدقات.

---

(١) خ ١٠٩ /١٦٠ـ١٦١.

(٢) المراح: الذهاب في العشي، المغْدى: الذهاب في الصباح.

(٣) خ ٣٢ /٧٥.

(٤) ك ٣١ /٣٩٢.

(٥) م ٤ /٤٦٩.

«أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ»[١].

ومن دعائم الصبر:

«وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ عَلَى الشَّوْقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ»[٢].

«وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ»[٣].

ومن آثاره المباركة:

«وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ»[٤].

«ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُبَصِّرْكَ اللهُ عَوْرَاتِهَا وَلَا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ»[٥].

ومن الزهد في مجاله الاجتماعي:

«زُهْدُكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلُّ نَفْسٍ»[٦].

«وَلاَ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذلِكَ

---

(١) م ٢٨ /٤٧٢.

(٢) م ٣١ /٤٧٣.

(٣) م ١١٣ /٤٨٨.

(٤) م ٣١ /٤٧٣.

(٥) م ٣٩١ /٥٤٥.

(٦) م ٤٥١ /٥٥٥.

تَزْهِيداً لِأَهْلِ الإحسان فِي الإحسان، وتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَـاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ»[١].

«وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ»[٢].

«لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي المَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَـنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ»[٣].

الإمام الزاهد الحقيقيّ:

أ) «أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَـوْ لَا حُـضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَـامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[٤].

ب) «وَاللهِ لَدُنْيَاكُمْ هَـذِهِ أَهْـوَنُ فِي عَيْنِـي مِـنْ عِـرَاقِ خِنْزِيـرٍ فِي يَـدِ مَجْذُومٍ»[٥].

ج) «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِـنْ غَـيْرِي وَوَ اللهِ لَأُسْـلِمَنَّ مَـا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ

---

(١) ك ٥٣ / ٤٣٠ـ٤٣١.

(٢) ك ٣١ / ٤٠٣.

(٣) م ٢٠٤ / ٥٠٥.

(٤) خ ٣ / ٥٠.

(٥) م ٢٣٦ / ٥١٠.

وَفَضْلِهِ وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»[١].

وبعد...

فهذه حقيقة الزهد، وواقعيته، مثّلها الإمام عليه السلام عملاً، وجسّدها وصوّرها قولاً وحكمًا وتربية، وبعثها فكرًا وروحًا، تُستجلى من مجموع كلمه الناظر في كافّة النواحي والأطراف.

فصلوات الله ورضوانه على مجسِّم كمالاتها ونبراس فضائلها وشريف خلالها.

(١) خ ٧٤/ ١٠٢.

الورع

«وَلَا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ»[١].

«وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ»[٢].

«وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ»[٣].

«وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ»[٤].

«الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ»[٥].

«ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، والوَرَعَ الوَرَعَ»[٦].

وقال عليه السلام في خطبته في ذكر المكاييل والموازين:

---

(١) م ٣٧١ / ٥٤٠.

(٢) م ١١٣ /٤٨٨.

(٣) م ٤ /٤٦٩.

(٤) م ٣٤٩ /٥٣٦.

(٥) خ ٨١ /١٠٦.

(٦) خ ١٧٦ /٢٥٢.

«وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ»[١].

وذمّ أصحابه بعدما برم بهم وضاق بهم ذرعًا:

«أَصْبَحْتُ وَاللهِ لَا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ وَلَا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ مَا بَالُكُمْ مَا دَوَاؤُكُمْ مَا طِبُّكُمْ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ أَ قَوْلًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ»[٢].

وأراد من الأمة الاقتداء به وهو إمامها، وعلم أنهم لا يقدرون على مشاركته، فحملهم على ذلك بما يقوون:

«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»[٣].

وأمر الوالي بأن يلتحم بأهل الورع التحامًا:

«وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ»[٤].

---

(١) خ ١٢٩ /١٨٧.

(٢) خ ٢٩ /٧٣.

(٣) ك ٤٥ /٤١٧.

(٤) ك ٥٣ /٤٣٠.

السرُّ

والإنسان فيما يحياه في وجوده، ويقوم به في ذاته، ويحمله في فكره، ويمارسه في فعله، ويتعامل به مع سواه يعيش بين الجهر والخفاء، والكتمان والإعلان، فما كل شيء يشاع ويذاع، وما كل شيء يستر ويصان، فلكلٍّ مقتضٍ ومانع، وباعث ودافع.

وإن أمراً له هذا الشأن والخطر، وجلال الموقع، ودقيق المنزلة، لجدير أن تدرك أبعاده، ويحاط بخصوصياته، وتسبر منطلقاته وغاياته.

ولا يقف على تلكم الحدود، ولا يخبرها بتلكم الجهات إلاّ الخبير البصير الواقف على الحقائق.

فماذا يقول هادي الأمة وأبو الأئمة في تحليل هذا الخلق الرفيع الدقيق؟

الله المحيط بالجهر وما يخفى:

أ) «فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ،

إِن أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِن أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ»[١].

فالمولى لطيف وخبير، ومن شأن لطفه علمه بالنوايا ودقيق الخفايا، ومن لطفه ستره ذلك عن الحفظة الكرام، ورحمته بعبده فلا يفضحه ولا يؤاخذه بما أخفى ما لم يكن ذنباً لا يغفر ولم تأت عليه توبة مُكَفِّرة.

ب) «عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمِرِينَ، وَنَجْوَى الْمُتَخَافِتِينَ[٢]، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ[٣]، وَعُقَدِ[٤] عَزِيمَاتِ الْيَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيمَاضِ[٥] الْجُفُونِ، وَمَا ضَمِنَتْهُ أَكْنَانُ الْقُلُوبِ وَغَيَابَاتُ[٦] الْغُيُوبِ»[٧].

ج) «وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ...
كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ»[٨].

د) «وَلاَ تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُم»[٩].

---

(١) خ ١٨٣ /٢٦٦.

(٢) التخافت: المكالمة السرّية.

(٣) رجم الظنون: ما يخطر على القلب أنه وقع أو يصح أنه وقع بلا برهان.

(٤) العقد: ما يرتبط القلب بتصديقه.

(٥) المسارق: مكان أو زمان مسارقة النظر والبواعث عليها.

الإيماض: اللمعان.

(٦) غيابات: أعماق.

(٧) خ ٩١ /١٣٤.

(٨) خ ١٠٩ /١٥٨.

(٩) خ ٢٠٣ /٣٢٠.

هـ) «أَلاَ إِنَّ اللهَ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً[١]، لاَ أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونَ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ، وَلكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً[٢]»[٣].

فخالقهم عالم بهم وبإفعالهم قبل خلقهم، ولكنه الابتلاء ومن ثّم الحجة ولله الحجة البالغة.

و) «تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ»[٤].

ز) «الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّة، الْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ»[٥].

ح) «قَدْ عَلِمَ السَّرائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ»[٦].

ط) «خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ[٧]، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ»[٨].

سِرِّية القدر الإلهي:

---

(١) كشف الخلق: علم حالهم في جميع أطوارهم.

(٢) بواء: من باء فلان بفلان أي قُتل به.

(٣) خ ١٤٤ /٢٠٠ـ٢٠١.

(٤) خ ٢٢٧ /٣٤٩.

(٥) خ ١٣٢ /١٨٩ـ١٩٠.

(٦) خ ٨٦ /١١٦.

(٧) السُتُرات: جمع سترة ما يستتر به.

(٨) خ ١٠٨ /١٥٥.

«وسئل عن القدر، فقال: طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلاَ تَسْلُكُوهُ، وَبَحْرٌ عَمِيقٌ فَلاَ تَلِجُوهُ، وَسِرُّ اللهِ فَلاَ تَتَكَلَّفُوهُ»[1].

والطريق لا يشق ظلامه إلا بنور العلم، وعمق البحر مظنة الهلكة والعطب تتقاذف براكبه أمواجه ولا نجاة إلا بركوب سفينة غير معيبة يقودها ربّان ذو بصيرة ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وسر الله من شؤون غيبه، ومكنون أمره، فهو الخفاء المصون لا تدركه عقول ولا تبصره عيون، إلاّ لمن أحبه مولاه وإجتباه فأطلعه على سره وأئتمنه عليه، وعلم رضاه بما يبدي منه أو يخفيه ولا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى.

وصدق ولي الله في ما وصف وعرّف، وشدد وأكد من خطر القدر وغامض السر فحيث خاض بحر القدر البعيد الغور من لا نور له يهديه في اللجج ولا سفينة تنجيه من العطب يزعم واهماً أنه يلتقط اللئالي فآب خائباً مضطرب الفكر مرتعش اليدين خالي الوفاض إلا من الحيرة والتردد.

الإيمان الحق سره كعلانيته:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلاَنَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ»[2].

«وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ وَبَعِيثُهُ، شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا

---

(١) م ٢٨٧ /٥٢٦.

(٢) خ ١٠١ /١٤٦.

السِّرُّ الْإِعْلاَنَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ»[1].

مستودع سرّ الله (آل محمد ﷺ):

«هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجَأُ أَمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، وَمَوْئِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِناءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ»[2].

من خالف سرّه علانيته منافق:

وكتب عليه السلام إلى بعض عمّاله على الصدقات:

«أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي سَرَائِرِ أُمُورِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لاَ شَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلاَ وَكِيلَ دُونَهُ. وأَمَرَهُ أَلاَّ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيما ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلى غَيْرِهِ فِيما أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ عَلانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدّى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ»[3].

وقال عليه السلام في محاربيه:

«فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ»[4].

طلحة والزبير وقد كتب إليهما:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُما، وَإِنْ كَتَمْتُما، أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي،

---

(١) خ ١٣٢ /١٩٠.

(٢) خ ٢ /٤٧.

(٣) ك ٢٦ /٣٨٢.

(٤) ك ١٦ /٣٧٤.

وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي. وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي، وَإِنَّ العَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ، وَلاَ لِعَرَضٍ حَاضِرٍ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ، فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ، فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ، وَإِسْرَارِكُمَا المَعْصِيَةَ»[١].

وإلى معاوية:

«وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الأُمْنِيَّةِ، مُخْتَلِفَ الْعَلاَنِيَةِ والسَّرِيرَةِ»[٢].

وكتب إلى الحارث الهمداني:

«وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلاَنِيَةِ»[٣].

وكان مما يتعوّذ منه:

«اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ تَحْسُنَ فِي لاَمِعَةِ الْعُيُونِ عَلاَنِيَتِي، وَتَقْبُحَ فِيمَا أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي، مُحَافِظاً عَلَى رِيَاءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ مَا أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي، فَأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي، وَأُفْضِيَ إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إِلى عِبَادِكَ، وَتَبَاعُداً مِنْ مَرْضَاتِكَ»[٤].

---

(١) ك ٥٤ /٤٤٥-٤٤٦.

(٢) ك ١٠ /٣٧٠.

(٣) ك ٦٩ /٤٥٩.

(٤) م ٢٧٦ /٥٢٤.

صون السر وكشفه:

«وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ»[١].

«صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ»[٢].

«مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ بِيَدِهِ»[٣].

«اَلظَّفَرُ بِالْحَزْمِ واَلْحَزْمُ بِإِجَالَةِ اَلرَّأْيِ واَلرَّأْيُ بِتَحْصِينِ اَلْأَسْرَارِ»[٤].

وقد قيل:

كل سر جاوز الاثنين شاع.

وقد فسر (الاثنين) بالشفتين.

من مواطن كتمان السر:

أ) «أَلاَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلاَّ أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلاَّ فِي حَرْبٍ، وَلاَ أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلاَّ فِي حُكْمٍ»[٥].

ب) «ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ،

---

(١) ك ٣١ /٤٠٢.

(٢) م ٦ /٤٦٩.

(٣) م ١٦٢ /٥٠٠.

(٤) م ٤٨ /٤٧٧.

(٥) ك ٥٠ /٤٢٤.

وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ»[١].

ج) «وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صَالِحِ الْأَخْلاَقِ مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِىءَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلاَفٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلاَءٍ، وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوابِ عَنْكَ، وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلاَ يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلاَ يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاَقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفسِهِ فِي الْأُمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ»[٢].

السر وثماره الخيرة:

«وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ»[٣].

«وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ»[٤].

«طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ، وَطَابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ»[٥].

«مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عَلاَنِيَتَهُ»[٦].

---

(١) ك ٥٣ /٤٣٥.

(٢) ك ٥٣ /٤٣٧.

(٣) خ ١١٠ /١٦٣.

(٤) م ٤٢ /٤٧٦.

(٥) م ١٢٣ /٤٩٠.

(٦) م ٤٢٣ /٥٥١.

حذار من خبث الشيطان:

«حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إلى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ»[١].

تجلي الحقائق بعد فوات الأوان:

وقال عليه السلام قبل موته:

«غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي»[٢].

وتحمل حروف هذا الكلم وكلماته يقينه بصدقه وحقه، وعمق إستيائه وشدة تبرمه ومرارته مما عانى وقاسى في حمل الأمة على محجة الحق وإباءهم عليه وعصيانهم له، وكشفًا لما يعقب ذلكم النور من ظلمة دهياء وطخية عمياء ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾، نتيجة كفر النعمة بدل شكرها، والنعمة إذا ولّت عرفت[٣].

وقد كان قد قطع على نفسه يوم تولى حكم الرعية أن يصلح المفاسد التي عشعشت وفرّخت منذ دهر فاصطبغت بها الحياة فكراً وفقهاً ودنياً:

---

(١) خ ١٩٢ /٢٨٨.

(٢) خ ١٤٩ /٢٠٨.

(٣) عن الإمام المجتبى عليه السلام: «تُجهل النعم ما أقامت فإذا ولّت عُرفت». بحار الأنوار ٧٥ /١١٥.

«لَوْ قَدِ اسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هذِهِ المَدَاحِضِ[١] لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ»[٢].

فأصلح ما أمكنه، وأقام سنن الحق، وأبان المنهج الأبلج والمحجة البيضاء وحملهم على ذلك ما أستطاع سبيلاً، وحذرهم وأنذرهم ما تخبئه الأيام وما يعقب النور من ظلام.

يوم انكشاف الأستار والأسرار:

«اعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ»[٣].

أهل السرّ قريبون من علاّم الغيوب:

«اللهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الْآنِسِينَ لْأَوْلِيَائِكَ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ. تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ المَصَائِبُ لَجَؤُوا إلى الاستجَارَةِ بِكَ، عِلْماً بَأَنَّ أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ»[٤].

فهؤلاء صفوة منتجبة وخيرة منتخبة، سرائرهم مكنونة بحب الله مولاهم فهو سبحانه أنسهم ومن سواه مستوحشون، وضمائرهم معقودة على الأذعان والتعلق بمن زكّاها وصفّاها، وبصائرهم ممدودة متصلة إلى من كشف عنهم الغشاوة فلا يبصرون إلا إياه، ولا يرجون إلا رضاه وسر

---

(١) المداحض: المزالق.

(٢) م ٢٧٢ /٥٢٣.

(٣) خ ١٢٠ /١٧٦.

(٤) خ ٢٢٧ /٣٤٩.

ذلك وكنهه طيب السرائر ونقاء الضمائر وجلاء البصائر ومن ثم تعلق المحب بمحبوبه.

الأدب العلوي في علاقة الوالي برعيته

حول النص الآتي:

وهو مقطع من خطبة له عليه السلام في صفين، وموضوعها الحقوق المتقابلة بين الوالي والرعية، وبعد استيفائه غرضه «أجابه رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له».

ثم وصل حديثه بالمقطع الباهر والكلم الساحر الآسر، وهو سبيكة من نفائس لا يصوغها إلا ابن أبي طالب وجوهر من معدن كنوزه الثرة الآخذة بمجامع القلوب المحيرة للألباب وجلال المعنى وجمال الصورة والمبنى فهي الكمال متجسداً روحاً وتركيباً في تجانس فريد في عالم الروائع وآفاق الإبداع.

فقال عليه السلام:

«إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلاَلُ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ ـ لِعِظَمِ ذلِكَ ـ كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ ازْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً. وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالاَتِ الْوُلاَةِ عِنْدَ

صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ ـ بِحَمْدِ الله ـ كَذلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً لله سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ .وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلاَءِ، فَلاَ تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إلى الله وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لاَ بُدَّ مِنْ إِمْضائِهَا، فَلاَ تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلاَ تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلاَ تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلاَ تَظُنّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلاَ الْتِمَاسَ إِعْظَام لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلاَ آمَنُ ذلِكَ مِنْ فِعْلِي، إلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لاَ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلاَلَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا الْبصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى»[١].

وبعد إيراد هذه الفريدة القدسية والنظر إلى ذلكم النسيج الروحي المحير ببديع خيوطه ودقيق حروفه وتناثر الجمال في جمله وصوره، فلنعد إليه متأمّلين في لطف يد أدارت قلمها وريشتها فصوّرت، وفي لوحتها التي أبدعت في أدواتها وأعجزت في مقاصدها، فكلما كررت نظراً وأعملت فكراً كشفت كنزاًو سراً، وأدركت معنى سامياً وفكراً.

(١) خ ٢١٦ /٣٣٤ـ٣٣٥.

يزيـــدُكَ وجهُـــهُ حُـــسْنًا إذا مـــا زِدْتَـــهُ نَظَـــرا

النقطة الأولى: جلال المولى وخالص خضوع العبد:

أ) وهي الركيزة الأسمى فمن عظم الله في ذاته وتمكن موضـعه مـن قلبه جل شأنه لديه وصغر كل ما سواه «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ب) ومن غمرته نعم مولاه وعمته ألطافه فلقـد لزمـه شـكر نعمتـه وتواتر عليه عظيم حقه.

الثانية: والوالي وانضباطه:

فالإمرة والسلطان والنفوذ والحكم عوامـل تغـري وبواعـث تـدفع بالزهو والكبرياء وحتى لو ملك جماح نفسه، وملك عواطفه وراقب ذاتـه فإن الرعية ترمقه بأنه يطمح إلى الفخر ويطربـه الثنـاء والإطـراء وتتعامـل معه من منطلق عبوديتها وسيادته فهي تلبي رغباته وتشبع نهمه وتتـصرف بما يلتقي مقامه.

الثالثة: علي ولي الله:

أ) ولئن كانت تلكم الخلائق سمة الحاكم والمحكـوم والـوالي والرعية فإن ولي الله الحق والراعي الصدق له مـن صـفاء الـسريرة ونقـاء الذات وكمال السيرة ما يجعله أمة وحـده، واسـتقامة فـذة يحياهـا ويحمـل رعيته على شريف خلائقه وكريم ذاته وطباعه.

ب) فلا يتوهمنّ فيه ما يهواه ويحياه سواه، لإباء ملكاتـه ذلـك عليـه،

وجلال الله في قلبه وخضوعه لعظمته، فهو ﷻ ولي النعم وله سابغ الحمد وخالص المدحة والثناء.

ج) والإمام العظيم وإن حسن بلاؤه وانطلقت الألسن بذكره ونشر جميل سياسته عرفانًا وامتناناً إلا أنه يأبى إلا تعاليًا في تواضعه وتذللاً في عبوديته فهو يؤاخذ نفسه -وهو المعصوم- على ما يعتده في أداء وظائفه تجاه الخالق والخلق.

د) ومن هذا المنطلق ينهج لأوليائه وعارفي فضل امتيازه من رعيته مُثُل كماله وقدس ذاته في نمط التعامل معه مركزاً على ركيزته القويمة:

عبوديته الخالصة وتواضعه الرفيع فيرسم لهم ويختطّ ما يلي:

١- إلغاء مظاهر الكبرياءو التجبر والسيادة والعبودية فهو أمير المؤمنين حقاً وهم رعيته لكنه يمقت أن يتعاملوا معه ويخاطبوه وفق أساليب الضعة وتذلل أهل المسكنة للسادة الكبراء

٢- وهو -سلام الله عليه- وإن تجلل وتجلبب بالهيبة الإلهية -مع ما تفرضه رهبة الحكم والسلطان- إلا أنه يكشف لرعيته سراً وخلقاً في شخصيته لم يعهد من الولاة إظهاره، بل من شأنهم إخفاؤه ألا وهو إزاحة العلة ورفع الحواجز النفسية، فلتقو عزائمهم، ولتنطلق ألسنتهم غير وجلين، فصاحبهم أماط عنهم بواعث الحصر والتلكؤ وسهل لهم الخطاب فلا يخشى من الغضب ولا تضيق نفسه بما يبرم به الحاكمون.

٣- وليعيشوا في علاقتهم بإمامهم الوضوح والصراحة فلا مجاملة ولا إلتواء ولا مداراة ولا تصنع، فليس ثمت ما يدعو إلى شيء من

ذلك التكلف.

٤- ثقل الحق:

فالحق مر تأباه طباع من تحكمت فيهم الشهوة، وأسرتهم الأثرة وطمحوا إلى الاستيلاء والاستعلاء، بل ومن ثقله وعلقم طعمه أن تمج آذان تلك الفئة سماع لفظه فضلاً عن الاصغاء لطالبي تحقيقه وإقامته، فكيف بالاذعان والخضوع والتسليم والانقياد؟!

أما الإمام عليه السلام فهو: «علي مع الحق والحق مع علي».

ومن كان للحق توأماً وعنواناً ووجهاً وذاتاً فيلذ سمعه لصوت الحق وكلمته وتزهو ذاته لنداء دعوته.

سياسته- صناديق لرقاع الشكاوى:

ومن كانت هذه خلاله فلا يتصور أن تكم الأفواه وتلجم الألسن عن مقالة حق أو مشورة عدل.

«وكان كما يقول المؤرخون أول حاكم في الإسلام بنى بيتاً للمظالم يضع فيه المظلومون والمعتدى عليهم رقاعاً يذكرون فيها ما أصابهم من اعتداء أو مكروه، وكان بنفسه يشرف عليها فيأخذ لهم بحقهم ويدفع عنهم ما أصابهم من أذى ومكروه»[1].

---

(١) حياة الإمام الحسين ٢ /٤١٥ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ /٨٧.

الرابعة: كمال العبودية عصمة من كل وصمة:

وذلك ما تجلّى فيما تحلّى به الصفوة الأولياء عباد الله حقًّا يعلمون من عظمة المولى المعبود، ويحيطون بأسراره ما يعلمون ويحيطون ويحيون مغمورين بمواهبه وألطافه فيهم وعليهم وهي نعم الله التي لا تحصى ولا تكافيء وهم العالمون بجلال قدرها وخطر أمرها فيرون أنهم مقصرون في أداء شكرها والقيام بحقها.

ويحيا بعمق أنه العبد الممكن المربوب الذي لا حول له ولا طول ولا دفع ولا منع إلا ممن منح وأعطى فكل مالديه فيض مولاه وتمثل عبوديته هذه أنه لا يرى لذاته شأناً ولا كمالاً فلو أوكل لنفسه لكان النقص، والكمال من واهبه.

إذن فحكايته لشؤونه منطلقة من رؤيته لنفسه وحقيقة وجوده.

أجل... «إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي».

ولا يعني ذلك صدور ما يتنافى والعصمة، ويخرج عن دائرة الكمال بل أنه ذلك جلال الكمال وكمال الجلال.

ويُعنى الإمام بتأكيد الفكرة وتكرار النظرة إمعاناً في تعميق جلال الربوبية وصدق العبودية لتقرّ في النفوس كما قرت في ذاته الشريفة.

وقوله مثل حداً وسطاً لركيزتين قررهما وكررهما في منتهى خطابه: «وَلاَ تَظُنُّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلاَ الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي».

فمن جسد العبودية وتجسدت بكمالها فيه، هل يظن به استثقال أو

تعال؟!

وهكذا نجد النص مبتدأً ومنتهى يـدور في ذلكـم المـدار، ويتمركـز حول ذلكم المحور، مع جمال العرض للطباع والأوضـاع لـدى الحـاكمين والمحكـومين وجـلال القـصد مـن التوجيـه الحـق إلى خـالص العبوديـة وشريف فضائلها.

الشكر

وهو من خير الخصال المعبرة عن طيب الذات، والمقدرة لما أسدي إليها من المعروف والإحسان فتعترف له بخالص الامتنان.

وشكر المنعم واجب حكم به العقل، وقضى به الدين، وكشف عن جليل موقفه، والخير العميم من أثره.

فماذا يقول عنه جوهرة الشاكرين وإمام العارفين؟

١) مولى النعم هو الحقيق بالشكر:

أ- «أَحْمَدُهُ شُكْراً لِإِنْعَامِهِ»[١].

وهذا ما صدّر به عليه السلام خطبته، واستهل به كلامه جامعاً بين الحمد والشكر.

ب- «وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا[٢] وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا،

---

(١) خ ١٩٠ /٢٨٠.

(٢) أصطنعُ عنده: أي أطلب منه أن يصنع لي شيئاً.

وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»[١].

وكان هذا ختام كتابه إلى عماله على الخراج بعد أن شرح لهم وظائفهم وأثرها في البلاد والعباد، وأن تلكم الآثار الخيّرة نعم مباركة عّم **نفعها وجلّ موقعها فهي تدعو المنعم عليه بها إلى شكرها جهد الطاقة** متصلاً لا ضعف فيه ولا انقطاع.

وإن من مظاهر الشكر نصرة المنعم مبلغ القوة، ولا قوة إلا بتوفيقه وعونه وهي نعمة موصولة يستتبع فيها الشكر شكراً.

ج- «لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَلاَّ يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ»[٢].

فالعاقل يرى أنه مغمور بنعم المولى تترى عليه فلا يليق بهذا الإحسان إلا الشكر والامتنان، وما كان بحاجة لأن يهدد ويتوعد بالعقوبة على العصيان والكفران لولا الجهل والجفاء وقلة الحياء.

د- «قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ»[٣].

فمنه -سبحانه تبارك وتعالى- الحياة إنشاء وإبقاء وهما نعمتان تعمرهما نعم لا تحصى تستحث المنعم عليه على شكرها عملاً وفعلاً وذكراً وقولاً فحاله يشكر ولسانه يذكر، وإن الذكر لمن الشكر.

---

(١) ك ٥١ /٤٢٥_٤٢٦.

(٢) م ٢٩٠ /٥٢٧.

(٣) خ ١٨٣ /٢٦٦.

هـ- «أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ، والتَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ، فَإِنْ عَزَبَ ذلِكَ عَنْكُمْ فَلاَ يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، وَلاَ تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ الْعُذْرِ وَاضِحَةٍ»[١].

و- «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَيِّرِ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً»[٢].

ز- «وَاللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ[٣] شُكْرَهُ، وَمُوَرِّثُكُمْ أَمْرَهُ»[٤].

وقد قال هذا حاثًّا أصحابه على الجهاد، وإذا كان الشكر لنعمه فهي هنا النعمة الكبرى بالإيمان، والشكر عليها بما يليق بها، وهو بذل النفس والتضحية في سبيله فالجهاد باب من بواب الجنة ولا يلجه إلا الباذل الناصر والشاكر لأنعم الله.

٢) الشاكرون:

أ) المتقي

«يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ،

---

(١) خ ٨١ /١٠٦.

(٢) خ ١٨٢ /٢٦٠.

(٣) المستأدي: طالب الأداء.

(٤) خ ٢٤١ /٣٥٨.

وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ»[١].

«وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ»[٢].

«فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلى الْجَنَّةِ، مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَى، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولئِكَ الْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾»[٣].

ب) المؤمن:

«شَكُورٌ صَبُورٌ»[٤].

ج) العباد المخلصون:

«إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ»[٥].

---

(١) خ ١٩٣ /٣٠٦.

(٢) خ ١٩٣ /٣٠٦.

(٣) خ ١٩١ /٢٨٤.

(٤) م ٣٣٣ /٥٣٣.

(٥) م ٢٣٧ /٥١٠.

٣) الحث على الشكر ومواطنه:

صنع المعروف والشكر:

«لاَ يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لاَ يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لاَيَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ، ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾»[١].

وهي دعوة لفعل المعروف لذاته، وترغيب في الإحسان لحسنه، ودونما إنتظار مكافأة ولا توقع مجازاة.

عند المعافاة من بلاء الذنوب:

«وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ... وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ»[٢].

فهنا نظران: نظر للغير المبتلى بعين الرحمة، ونظر المعافى لنفسه فيحجزه ما رآه في غيره من بلاء فلا يبتلى بمثله، ويشكر الله على معافاته ولمن هو دونه.

«وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ»[٣].

---

(١) م ٢٠٤/ ٥٠٥.

(٢) خ ١٤٠/ ١٩٧.

(٣) ك ٦٩/ ٤٦٠.

فأنت ترفل في نعمة حرم منها غيرك، وذلك يستدعي شكراً و«بالشكر تدوم النعم»[١] فربما انصرفت عنك وولت إلى سواك.

وعند ابتدائها:

«إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلاَ تُنْفِرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ»[٢].

فإن شكرت مبتداها امتدت وبلغت منتهاها، وإن كفرت انقطعت وانتهت.

حلية الغنى:

«الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، والشُّكْرُ زِينَةُ الغِنَى»[٣].

فلا يبطره غناه، ويقبحه بكفره بل يزينه بشكره.

وعند النصر على العدو:

«إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ»[٤].

فالظفر نعمة، والعفو رحمة، وما أجمل موقعها من لدن القادر على العقوبة لانضباط نفسه وملكه لغربه، ولدى المقدور عليه حيث السلامة.

ضمانة الشكر للاستدراج:

---

(١) كلمة للأمير عليه السلام. جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام، لابن الدمشقي ٢ /١٥٠.

(٢) م ١٣ /٤٧٠.

(٣) م ٦٨ /٤٧٩.

(٤) م ١١ /٤٧٠.

«وَرُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ[١] بِالنُّعْمَى، وَرُبَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لَهُ بِالْبَلْوَى! فَزِدْ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ فِي شُكْرِكَ، وَقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ»[٢].

فلا يبطره تواتر النعم عليه، وتكاثر المال لديه، وأن ذلك لكرامته عند رازقه وهوان المحروم، فربما كان ذلك إملاءً يمتد به إلى البلاء، فليرع وليراقب وخير ضمانة إدامة الشكر فهو بذلك في مأمن أن تصده النعم عن حق المنعم المفضل والمحسن المجمل فينقلب الرخاء شدة وبلاء، والنعمة نقمة وعناء.

٤) برهان الإيمان وعنوان الرضا:

«وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ والسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بَمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذلِكَ الشُّكْرَ والصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا»[٣].

٥) ويربي النعمة:

«مَنْ أُعْطِيَ أَرْبعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً: مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإِجَابَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الاستغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ،

(١) المستدرج: الذي يمهل ويمهد له في النعمة.
(٢) م ٢٧٣ /٥٢٤.
(٣) خ ٩١ /١٣٤.

وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ»[(١)].

«مَا كَانَ اللهُ لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الشُّكْرِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الزِّيَادَةِ»[(٢)].

«فَزِدْ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ فِي شُكْرِكَ، وَقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ»[(٣)].

«يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيما بَقِيَ»[(٤)].

٦) أدب الشكر:

في التهنئة بالمولود:

«وهنَّأَ بحضرته رجل رجلاً بغلام ولد له فقال له: لِيَهْنِئْكَ الْفَارِسُ. فقال عليه السلام: لاَ تَقُلْ ذلِكَ، وَلكِنْ قُلْ: شَكَرْتَ الْوَاهِبَ، وَبُورِكَ لَكَ فِي الْمَوْهُوبِ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ، وَرُزِقْتَ بِرَّهُ»[(٥)].

وضع المال في غير موضعه:

«وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلاَّ حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلى مَعُونَتِهِمْ

---

(١) م ١٣٥ /٤٩٤.

(٢) م ٤٣٥ /٥٥٣.

(٣) م ٢٧٣ /٥٢٤.

(٤) م ١٥٠ /٤٩٨.

(٥) م ٣٥٤ /٥٣٧.

فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلْأَمُ خَدِينٍ»(١).

الخاصة الأقل شكراً:

«وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ، أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ»(٢).

٧) المولى شكره وجزاؤه لمن شكره:

وقال عليه السلام في بعض الأعياد:

«إِنَّمَا هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبلَ اللهُ صِيامَهُ وَشَكَرَ قِيَامَهُ، وَكُلُّ يَوْمٍ لاَ يُعْصَى اللهُ فِيهِ فَهُوَ عِيد»(٣).

«مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ»(٤).

٨) الإمام الشاكر:

«وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوارَكُمْ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبَقِ الذُّلِّ، وَحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ، وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ

---

(١) خ ١٢٦ /١٨٣.

(٢) ك ٥٣ /٤٢٩.

(٣) م ٤٢٨ /٥٥١.

(٤) خ ٩٠ /١٢٣.

الْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ»(١).

وكتب عليه السلام إلى أهل الكوفة بعد فتح البصرة:

«وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ»(٢).

٩) والشهادة عند الإمام موطن الشكر لا الصبر:

«فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟ فَقَالَ لِي: إِنَّ ذلِكَ لَكَذلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيسَ هذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ»(٣).

فالشهادة لقاء الله، والاعلام الصادق بها بشرى بالمحبوب المؤمل، وبالتالي فهي نعمة إلهية كبرى تستوجب الشكر كما أوجبت البشرى.

(١) خ ١٥٩ /٢٢٤.

(٢) ك ٢ /٣٦٤.

(٣) خ ١٥٦ /٢٢٠.

المغنم واغتنام الفرصة

ونظراً لتقارب موضوعهما، وترابط آثارهما، وتناسب أحكامهما عنونت لهما عنواناً مفرداً، وميَّزت لكلٍّ جملاً.

١) الله الواهب:

«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَلا بِحَوْلِهِ وَدَنَا بِطَوْلِهِ مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ»[1].

والنص مفتتح الخطبة العجيبة المسماة بالغراء، وكل خطبه سلام الله عليه غرر عجاب.

أجل..إن واهب النعم، مصدر كل خير هو الحقيق بالحمد، فهو - سبحانه- ذو الحول والطول مفيض وهَّاب، والعبد مفاض عليه موهوب، والواجب على المنعم عليه الحمد والشكر، ولا يجوز منه الغفلة والكفر.

٢) دين الله خير النعم وأفضل مغنم:

«أَلا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ

(١) خ ٨٣ /١٠٧.

وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ»[١].

فأيُّ غنيمةٍ أجل خطراً، وأعظم أثراً من هدي الله لعباده وتشريعه نظام عباده صراطاً مستقيماً، فالسعيد من أخذ بالهدى، وسلك سبل الرشاد، والشقي من امتنع ولم ينهج صراط ربه المستقيم فتاه في أودية الضلال، وهو بعد رهين الحسرة والندم.

٣) الطاعة نعم المغنم:

«إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةَ الأَكْيَاسِ عِنْدَ تَفْرِيطِ الْعَجَزَةِ»[٢].

وهذه سمة العاقل يرى المغنم في التوفيق لطاعة مولاه واهبه القدرة والشارع له الدين القويم، أما المقصر الذي غلبته شهوته فأضعفت عقله فهو العاجز المفرط، وذلك هو الحرمان.

٤) ولي الأمة والمغانم:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ وَالأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ وَلا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ وَلا الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ وَلا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ وَلا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا

---

(١) خ ١٢٠/ ١٧٦.

(٢) م ٣٣١/ ٥٣٣.

دُونَ المَقَاطِعِ وَلا المُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأمَّةَ»[١].

فمن تبوأ ذلكم المقام، وبسط يده على العباد وخيرات البلاد وتملكه الهوى إن لم يكن له من الله عاصم، فلا موازين حق، ولا مقاييس صدق في قول أو حكم أو عمل يقول غلطاً ويحكم شططاً، يسيء الأثرة، ويسرف على ذاته، ومن له فيه هوى العطية، ويبخل في موارد العطاء، فإنه يرى أن ما تحت قبضته ملك له، مباح يتصرف فيه كما يشاء.

ولقد والله صدق أمير المؤمنين أبو الحسن فيما بيَّن وفصَّل فتأريخ ولاة السوء قديماً على تلكم الوتيرة والشاكلة، لا يشذ عنها منهم شاذ، وكلهم حثالة شُذَّاذ.

ب- وفي كتابه إلى واليه مالك:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ وَلا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ»[٢].

هكذا فلتكن ولاة الإسلام، قلب مفعم بالرحمة، فياضٌ بالمحبة، عامرٌ باللطف، يجسدُ الإنسانية، ولا تثير فيه الإمرة طباعاً سبعية، تضرى على من هم على شاكلته، ديناً وإيماناً، ونظراء لها في الإنسانية، وكلهم رعيته، فمن وظائفه رعايتهم، لا اغتنام الولاية سلطاناً يبدد فيئهم ويحوي رزقهم بطشاً وتنمراً.

---

(١) خ ١٣١ /١٨٩.

(٢) ك ٥٣ /٤٢٧.

ج- خلقه الكريم صلوات الله عليه:

«أَلا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ[١] وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ أَلا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً[٢] وَلا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً وَلا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً وَلا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً وَلا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ[٣] وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ[٤]»[٥].

وكم له -سلام الله على ملكاته- من حديثٍ يحكي خلاله، وقد صدَّقت أفعاله وأحواله أقواله، فكان الأنموذج الأمثل، والمثل الأروع، وقد دأب على حمل ولاته على خلائقه، واعتذر عنهم بأنهم لا يطيقون ذلك.

«أَلا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»[٦].

---

(١) الطِّمر: الثوب الخلق البالي. وجاءت مثنى لأنهما إزار ورداء.

(٢) التِّبْرُ: فتات الذهب والفضة قبل أن يصاغ.

(٣) أتان دبرة: هي الحمارة التي عُقِرَ ظهرها فقلّ أكلها، أو التي أصابتها الدَّبَرة وهي القرحة التي تحدث في ظهر الدابة.

(٤) عفصة: هي شجرة البلوط، أو النتوء عليها.

مَقِرَة: مُرَّة.

(٥) ك ٤٥ /٤١٧.

(٦) ك ٤٥ /٤١٧.

اغتنام الفرصة

١) فرصة العمر:

«رَحِمَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى وَدُعِيَ إلى رَشَادٍ فَدَنَا وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا رَاقَبَ رَبَّهُ وَخَافَ ذَنْبَهُ قَدَّمَ خَالِصاً وَعَمِلَ صَالِحاً اكْتَسَبَ مَذْخُوراً وَاجْتَنَبَ مَحْذُوراً وَرَمَى غَرَضاً وَأَحْرَزَ عِوَضاً كَابَرَ هَوَاهُ وَكَذَّبَ مُنَاهُ جَعَلَ الصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ وَالتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ رَكِبَ الطَّرِيقَةَ الْغَرَّاءَ وَلَزِمَ المَحَجَّةَ الْبَيْضَاءَ اغْتَنَمَ المَهَلَ[١] وَبَادَرَ الأَجَلَ وَتَزَوَّدَ مِنَ الْعَمَلِ»[٢].

«الْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ»[٣].

«بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً»[٤].

«إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ»[٥].

«وَلا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ»[٦].

«مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإمْكَانِ، وَالأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ»[٧].

---

(١) المَهَل: مدة الحياة مع العافية.

(٢) خ ٧٦ /١٠٣.

(٣) م ٢١ /٤٧١.

(٤) ك ٣١ /٤٠٢.

(٥) م ١١٨ /٤٨٩.

(٦) ك ٣١ /٤٠٤.

(٧) م ٣٦٣ /٥٣٨.

٢) فرص الخير:

«وإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلا تَجِدُهُ وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ»[1].

دعوتان كريمتان، وتربيتان عظيمتان، إحداهما للخلق والأخرى للخالق، فإسعاف المحتاج، وإغاثة اللهفان، وبذل العطاء للمحتاج إليه خلالٌ تضمن الخير في الدنيا والآخرة، فالفقير يعيش الامتنان، ويلهج لسانه بالدعاء لمن أسهم في دفع معاناته، وأداء دينه، وهو العمل المربح حيث يدخر أجره العظيم في دار النعيم، فليجد واجد، وليجدَّ في ذلك، فربما فات الأوان عن تدارك البذل والإحسان.

والله الكريم الوهاب هو ولي النعم والرازق ذو المن والطول، وقد أعدَّ هذا المولى المفضل ذاته المقدسة مستقرضاً من عبده ما منحه وأنعم عليه ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ وهو سبحانه الملي والغني المطلق، وصادق الوعد ومجازي العمل الخير بأضعاف مضاعفة لا يأتي عليها حصر ولا تدرك بحساب ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

ونفع ذلك أولاً وأخيراً للمنعم عليه آخذاً ومعطياً.

فما أكرم المولى وأوسع رحمته وأسبغ نعمته!!

---

(١) ك ٣١ /٣٩٨.

٣) عدم الإصغاء إلى تسويل النفس:

«يَرَى الغُنْمَ مَغرَمًا والغُرْمَ مَغْنَمًا»[١].

فتختلط الأوراق كما يقال، فيرى أن ما يبذله في مواطن البر والخير ضياعاً والغنيمة غرامة، وما يصرفه في غير محله غنيمة أفادها، وما ذلك إلاّ من ضعف رأي وقلة بصيرة وعدم معرفة بمواقع الخير ومباءة الشر.

٤) وهكذا شأن المسلم الكيِّس:

«إِنَّ المَرْءَ المُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ كَانَ كَالْفَالِجِ[٢] الْيَاسِرِ[٣] الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ المَغْنَمَ وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ المَغْرَمُ»[٤].

وقد جاء هذا التشبيه متوافقاً لما عليه أمر الناس من سرورهم وغبطتهم عند فوزهم في لعبة الميسر، وغلبتهم في المقامرة، فتصيبه النشوة لما كسب.

وهكذا فليكن أدب المؤمن حينما يرى نفسه مضيَّقاً وأخاه موسعاً عليه فلا يكن ذلك له فتنة تبعث على سوء الظن بالله الواهب، والحسد لمن آتاه الله، بل اللائق به أن يصبر وينتظر من الله إحدى الحسنيين، إما مؤجلة ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾، وإما معجلة في دار الدنيا.

---

(١) م ١٥٠ /٤٩٨.

(٢) الفالج: الظافر.

(٣) الياسر: اللاعب بقداح الميسر.

(٤) خ ٢٣ /٦٤.

٥) أنموذج مشرف: هاشم بن عتبة المرقال:

«وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَّا خَلَّى لَهُمُ الْعَرْصَةَ[١] وَلا أَنْهَزَهُمُ الْفُرْصَةَ بِلا ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً وَكَانَ لِي رَبِيباً»[٢].

وقد وفّى عليه السلام كلا الرجلين الجليلين حقه، فإنه وإن أثنى على الأول بحزمه وانتهازه الفرصة المواتية، فلم يشأ أن تنال الألسن محمداً فإنه حبيبه وربيبه ولكنها الرجال تتفاوت قدراتها.

٦) نماذج مخزية:

«وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلى حُسْنِ الْحِيلَةِ مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لا حَرِيجَةَ[٣] لَهُ فِي الدِّينِ»[٤].

٧) حذار من فرص الشيطان:

«وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ الإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ

---

(١) العرصة: كل بقعة واسعة بين الدور.

(٢) خ ٦٨ /٩٨.

(٣) الحريجة: التحرّج والتحرّز من الآثام.

(٤) خ ٤١ /٨٣.

المُحْسِنِينَ»[١].

ثلاث مهلكات محورها حب الذات حباً مستولياً يزهو فيه المرء بذاته، وينبهر بما يروقه هو من صفاته، ولا يستكمل لذته حتى يسمع الثناء عليه والإشادة والتنويه به فيلفه الإعجاب في ذاته وما يحيط به، فيتمكن منه عدوه حيث هيأ له عدته ومهد له فرصته، وماذا يرتجى من العدو اللدود عندئذٍ؟! أجل إنه يغريه ويدأب في إغرائه، حتى يستحكم الزهو فينسى ربه ويعشق ذاته فيأتي ذلك على كل عمل قام به أو يصدر عنه، فالنية مشوبة، والبصيرة مغلوبة، فتكون العاقبة ﴿وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا﴾.

٨) انتظار الإمام سنوح الفرصة للإصلاح:

«وَالله لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ المَعْكُوسِ وَالْجِسْمِ المَرْكُوسِ[٢] حَتَّى تَخْرُجَ المَدَرَةُ[٣] مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ[٤]»[٥].

ذلكم شأن المسؤول الإلهيّ الحقّ، قوة يقين وثبات دين، واستماتة في

---

(١) ك ٥٣ /٤٤٣-٤٤٤.

(٢) المركوس: الركس ردّ الشيء مقلوبًا، وقلب آخره على أوّله.

(٣) المَدَرَةُ: قطعة الطين اليابس.

(٤) حبّ الحصيد: حبّ النبات المحصود كالقمح ونحوه.

(٥) ك ٤٥ /٤١٨-٤١٩.

الإصلاح، فلئن فاته ذلك في زمان تحين له فرصة أخرى يغتنمها مهما سنحت، فهي وظيفته وهمه وشغله ليحقق الله الحق، وليميز الله الخبيث من الطيب، وهو عليه السلام **القائل:** «لَوْ قَدِ اسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هَذِهِ الْمَدَاحِضِ(١) لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ»(٢).

---

(١) المداحض: المزالق.

(٢) م ٢٧٢ /٥٢٣.

اللسان

وهو مظهر إبداع الخلقة، وعجيب الصنعة، كما قال علي عليه السلام: «اعْجَبُوا لِهَذَا الإنسان يَنْظُرُ بِشَحْمٍ وَيَتكَلَّمُ بِلَحْمٍ وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ»[1].

وهو المعبر الحاكي، والمترجم الراوي، لخلجات النفس وما يجول في الفكر.

وهو جالب المحبة، وباعث الفتنة، من أعظم الجوارح فعلاً وتأثيراً،

جراحاتُ السنانِ لها التئامٌ ولا يلتامُ ما جرحَ اللسانُ

وبعد...

فهو الأداة الخطيرة، والقوة المؤثرة، المثيرة إيجاباً وسلباً، كفراً ونفاقاً، وإيماناً وحرباً وسلماً ودعاءً واعتراضاً وغضباً ورضا.

وقد أدار الإمام صلوات الله عليه كلمه حول جملة من شؤون هذه اللحمة الجارحة، وبثه في خطبه الطوال وحكمه القصار الكبار.

---

(١) م ٨ / ٤٧٠.

ا) الله ﷻ

«وَلا يَحْوِيهِ مَكَانٌ وَلا يَصِفُهُ لِسَانٌ»(١).

«يُخْبِرُ لا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ وَيَسْمَعُ لا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ يَقُولُ وَلا يَلْفِظُ»(٢).

وفي وصف الطاووس:

«وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاهُ لِلْعُيُونِ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ»(٣).

«فَانْظُرْ إلى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ وَاخْتِلافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ وَطُولِ هَذِهِ الْقِلالِ وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ وَالأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ»(٤).

---

(١) خ ١٧٨ /٢٥٦.

(٢) خ ١٨٦ /٢٧٤.

(٣) خ ١٦٥ /٢٣٨.

(٤) خ ١٨٥ /٢٧١.

٢) رسول الله ﷺ:

«كَلامُهُ بَيَانٌ وَصَمْتُهُ لِسَانٌ»[١].

فربما كان الصمت أبلغ من النطق، وربما كان ترك الجواب هو الجواب، ورؤية الرجل الإلهي تذكر بالله، وقد كان من ينظر إلى إشراقة غرة رسول الله ﷺ يذعن قلبه ويجهر لسانه بأنه نبيّ صادق وليس بمدّعٍ كاذب.

«وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ مِمَّا لا بُدَّ مِنْهُ وَلا مَحِيصَ عَنْهُ وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلى غَيْرِهِ وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ»[٢].

«وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ وَأَلْقَى إِلَيْكُمُ المَعْذِرَةَ وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ»[٣].

«فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ اخْتَارَ آدَمَ عليه السلام... وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَلَمْ يُخْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاتِهِ قَرْناً فَقَرْناً حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ حُجَّتُهُ وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ

---

(١) خ ٩٦ /١٤١.

(٢) خ ١٥٣ /٢١٤.

(٣) خ ٨٦ /١١٧.

عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ»[١].

٣) آل محمد صلى الله عليهم:

«هُـمْ عَـيْشُ الْعِلْـمِ ومَـوْتُ الْجَهْـلِ يُخْـبِرُكُمْ حِلْمُهُـمْ عَـنْ عِلْمِهِـمْ وظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ وصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ لا يُخَـالِفُونَ الْحَـقَّ ولا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وهُمْ دَعَائِمُ الإسْلامِ وَوَلائِجُ الاعتـصام بِهِـمْ عَـادَ الْحَـقُّ إلى نِصَابِهِ وانْزَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ وانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ»[٢].

«فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ[٣] وَبَيْـنَكُمْ عِـتْرَةُ نَبِـيِّكُمْ وَهُـمْ أَزِمَّـةُ الْحَقِّ وَأَعْلامُ الـدِّينِ وَأَلْـسِنَةُ الـصِّدْقِ فَـأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْـسَنِ مَنَـازِلِ الْقُـرْآنِ وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ[٤] الْعِطَاشِ»[٥].

٤) الملائكة الكرام عليهم السلام:

«وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ وَأَلْسِنَةٌ إلى رُسُلِهِ»[٦].

«وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ الْمُنَاجَاةِ أَسَلاتُ[٧] أَلْـسِنَتِهِمْ وَلا مَلَكَـتْهُمُ الأشْـغَالُ

---

(١) خ ٩١ /١٣٣_١٣٤.

(٢) خ ٢٣٩ /٣٥٧_٣٥٨.

(٣) تعمهون: تتحيّرون.

(٤) الهِيم: الإبل.

(٥) خ ٨٧ /١١٩_١٢٠.

(٦) خ ١ /٤١.

(٧) الأسَلَة: الطرف.

فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ الْجُؤَارِ إِلَيْهِ[١] أَصْوَاتُهُمْ»[٢].

٥) العاقل:

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ»[٣].

«لِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ»[٤].

«فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَفَ[٥] الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ وَأَوْجَفَ[٦] الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ»[٧].

٦) الأنصار:

«هُمْ واللهِ رَبَّوُا الإسلامَ كما يُرَبَّى الفِلْوُ[٨] مَعَ غَنائِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ

---

(١) الهمس: الصوت الخفيّ.

الجؤار: رفع الصوت بالتضرّع.

(٢) خ ٩١ /١٣٠.

(٣) م ٤٠ /٤٧٦.

(٤) م ٤١ /٤٧٦.

(٥) ظلف: منع.

(٦) أوجف: أسرع، كأن الذّكْر لشدة تحريكه اللسان موجف به كما توجف الناقة براكبها.

(٧) خ ٨٣ /١١١.

(٨) الفِلْوُ: المهر إذا فطم أو بلغ السنة.

السِّباطِ[1] وأَلْسِنَتِهِمُ السِّلاطِ[2]»[3].

٧) الشيطان وأتباعه:

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاكاً وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ»[4].

«وَلا تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ[5] الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ وَأَحْلاسُ[6] الْعُقُوقِ اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلالٍ وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمُ اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ وَمَأْخَذَ يَدِهِ»[7].

أمة بني أمية:

«وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً وَسَلاطِينُهُ سِبَاعاً وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالًا

---

(١) السّباط: الأسخياء.

(٢) السّلاط: الأشدد ذوو الألسنة الطوال.

(٣) م ٤٦٥ /٥٥٧.

(٤) خ ٧ /٥٣.

(٥) الأدعياء: جمع دعيّ، وهو من ينسب إلى غير أبيه، والأخساء المنتسبون إلى الأشراف، والأشراف المنتسبون إلى الأخيار.

(٦) جمع حِلْس، كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازمًا له.

(٧) خ ١٩٢ /٢٩٠.

وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً وَغَارَ الصِّدْقُ وَفَاضَ الْكَذِبُ وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ»[١].

أصحاب الجمل:

«فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً وَطَائِفَةً غَدْراً فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلا رَجُلًا وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ بِلا جُرْمٍ جَرَّهُ لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلا بِيَدٍ»[٢].

الحَكَمان:

«فَأَخَذْنا عَلَيْهِما أَنْ يُجَعْجِعَا[٣] عِنْدَ القُرْآنِ، ولا يُجَاوِزَاهُ، وتَكُونَ أَلْسِنَتُهما مَعَهُ، وقُلُوبُهما تَبَعَهُ، فتَاها عَنْهُ، وتَرَكا الحَقَّ وهما يُبْصِرَانِهِ»[٤].

المنافق والأحمق:

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ أَنَّهُ لا يَنْفَعُ عَبْداً وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلاكِ نَفْسٍ أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ

---

(١) خ ١٠٨ /١٥٧.

(٢) خ ١٧٢ /٣٤٧.

(٣) يُجَعْجِعَا: من جعجع البعير إذا برك، ولزم الجَعجاع: أي الأرض، أي أن يقيما عند القرآن.

(٤) خ ١٧٧ /٢٥٦.

أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ، اعْقِلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ»[١].

«وَقَلْبُ الأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ»[٢].

«قَلْبُ الأَحْمَقِ فِي فِيهِ»[٣].

٨) وظائف وعوارض:

«وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ»[٤].

«وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الإِعْلانَ وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ»[٥].

«الإيمان مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ»[٦].

«هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ»[٧].

---

(١) خ ١٥٣ /٢١٤_٢١٥.

(٢) م ٤٠ /٤٧٦.

(٣) م ٤١ /٤٧٦.

(٤) خ ١٧٦ /٢٥٣_٢٥٤.

(٥) خ ١٠١ /١٤٦.

(٦) م ٢٢٧ /٥٠٨.

(٧) خ ١٢٥ /١٨٢.

«واجْعَلُوا الْلِسانَ واحِدًا، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ فَإِنَّ هَـذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ وَالله مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لا يَدْرِي مَا ذَا لَـهُ وَمَا ذَا عَلَيْهِ، وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لا يَسْتَقِيمُ إِيمان عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى الله تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ»[1].

«وَإِنَّمَا الأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ وَالْعَمَلِ بِالأَيْدِي وَالأَقْدَامِ»[2].

«أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالأَرْكَانِ»[3].

«الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ»[4].

«تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ»[5].

«اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ الله عَلَى أَعْلامٍ بَيِّنَةٍ فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُوا إِلى دارِ

---

(١) خ ١٧٦ /٢٥٣ـ٢٥٤.

(٢) م ٤٢ /٤٧٦.

(٣) م ٩٢ /٤٨٣.

(٤) م ١٤٨ /٤٩٧.

(٥) م ٣٩٢ /٥٤٥.

السَّلامِ وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ وَالأَقْلامُ جَارِيَةٌ وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ»(١).

«وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ»(٢).

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لا يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عِتْرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ المَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ»(٣).

«أَلا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ المَالِ يُورِثُهُ مَنْ لا يَحْمَدُهُ»(٤).

٩) نصح وتوجيه:

«اللِّسَانُ سَبُعٌ إِنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ»(٥).

«فَارْبَعْ(٦) أَبَا الْعَبَّاسِ رَحِمَكَ اللهُ فِيمَا جَرَى عَلَى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ»(٧).

---

(١) خ ٩٤ /١٤٠.

(٢) خ ١٨٣ /٢٦٦.

(٣) خ ٢٣ /٦٥.

(٤) خ ١٢٠ /١٧٧.

(٥) م ٦٠ /٤٧٨.

(٦) اربَعْ: ارفُقْ وقف عند حدّ ما تعرف.

(٧) ك ١٨ /٣٧٦.

ومما جاء في عهده الشريف لمالك الأشتر:

«أَمَرَهُ بِتَقْوَى الله... وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ»[١].

«امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ[٢] وَسَوْرَةَ حَدِّكَ[٣] وَسَطْوَةَ يَدِكَ وَغَرْبَ[٤] لِسَانِكَ»[٥].

-يا بني- «وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ»[٦].

وكتب عليه السلام إلى قثم بن العباس وهو عامله بمكة:

«وَلا يَكُنْ لَكَ إِلى النَّاسِ سَفِيرٌ إِلا لِسَانُكَ»[٧].

«الْكَلَامُ فِي وَثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وَثَاقِهِ، فَاخْزُنْ لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ، فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً وَجَلَبَتْ نِقْمَةً»[٨].

---

(١) ك ٥٣ /٤٢٧.

(٢) يقال: (فلان حميّ الأنف) إذا كان أبيًّا يأنف الضيم.

(٣) السَّورة: الشِّدَّة، أو الحِدَّة.

حَدّك: الحَدّ والحِدّة سواء من الغضب.

(٤) الغَرْب: الحد، تشبيهًا للسان بحدّ السيف ونحوه.

(٥) ك ٥٣ /٤٤٤.

(٦) ك ٣١ /٣٩٢.

(٧) ك ٦٧ /٤٥٧.

(٨) م ٣٨١ /٥٤٣.

«لا تَجْعَلَنَّ ذَرَبَ[1] لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ وَبَلاغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ[2]»[3].

«فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلا بِمَا يَجِبُ»[4].

«إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلامُ»[5].

«وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ»[6].

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»[7].

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ»[8].

وقال عليه السلام يحضّ الناس على الجهاد في صفين:

---

(١) الذَّرَب: الحِدّة.

(٢) التسديد: التقويم والتثقيف.

(٣) م ٤١١ /٥٤٨.

(٤) خ ١٦٧ /٢٤٢.

(٥) م ٧١ /٤٨٠.

(٦) م ٢ /٤٦٩.

(٧) م ٢٦ /٤٧٢.

(٨) م ٧٣ /٤٨٠.

«أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدْوَاناً يُعْمَلُ بِهِ وَمُنْكَراً يُدْعَى إِلَيْهِ فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَى فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينُ»[١].

«فَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَذَلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ فَذَلِكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ»[٢].

«أَوَّلُ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ وَأَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ»[٣].

«وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ»[٤].

---

(١) م ٣٧٣ / ٥٤٩.

(٢) م ٣٧٤ / ٥٤٢.

(٣) م ٣٧٥ / ٥٤٢.

(٤) ك ٤٧ / ٤٢٢.

«وَلا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ وَلا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ»[١].

«طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَطَابَ كَسْبُهُ وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ»[٢].

«اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ»[٣].

ولما صعق همام صعقة كانت فيها نفسه قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَ هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يَا أمير المؤمنين، فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكَ إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لا يَعْدُوهُ وَسَبَباً لا يَتَجَاوَزُهُ فَمَهْلًا لا تَعُدْ لِمِثْلِهَا فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ»[٤].

١٠) الاعتبار عند وبعد الاحتضار:

«ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ... فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ»[٥].

«فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ...

---

(١) خ ١٩٠ /٢٨٢.

(٢) م ١٢٣ /٤٩٠.

(٣) م ٣٠٩ /٥٢٩.

(٤) خ ١٩٣ /٣٠٦.

(٥) خ ١٠٩ /١٦٠ـ١٦١.

وَتَقَطَّعَتِ الأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلاقَتِهَا... وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ»[١].

١١) ومما جرى ويجري على اللسان:

«وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَا عَلِيُّ لا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ وَلا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ»[٢].

«وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ»[٣].

«اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ»[٤].

١٢) الدعاء للسلامة من آفات اللسان:

«اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي اللهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الأَلْحَاظِ وَسَقَطَاتِ الأَلْفَاظِ وَشَهَوَاتِ الْجَنَانِ وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ»[٥].

---

(١) خ ٢٢١ /٣٤٠-٣٤١.

(٢) م ٤٥ /٤٧٧.

(٣) ك ٥٣ /٤٣٧.

(٤) م ٣٠٩ /٥٢٩.

(٥) خ ٧٨ /١٠٤.

الفصل الثالث: ملكات النفس

الجهل المردي

الغفلة المهلكة

الشبهة وموقف المؤمن فيها

الأمل وعاقبة طول الآمال وعرضها

الهوى وعظيم البلاء به وفيه

الصبر

الرضى

الفكر

العقل

الهيبة

الحياء

القناعة

الجهل المردي

أ) «وَكَفَى بِالمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ، لاَيَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْل[1]، وَلاَ يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْم، فَاسْتَتِرُوا بِبُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلاَ يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَلُمْ لاَئِمٌ إِلاَّ نَفْسَهُ»[2].

ب) «وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بَلَبِيبٍ، وَلاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ، فَيَا عَجَباً! وَمَا لِيَ لاَ أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اختِلاَفِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا! لاَ يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، وَلاَيَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ، وَلاَ يُؤْمِنُونَ بَغَيْب، وَلاَ يَعِفُّونَ عَنْ عَيْب، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، المَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي المُعْضِلاَتِ إِلى أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي المُبْهِمَاتِ عَلَى آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِىء مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرىً ثِقَات، وَأَسْبَاب

---

(١) قال في لسان العرب ٣ /٢٦: «وفي حديث عليٍّ عليه السلام: ولا يَظْمَأُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ، والسنخ والأصل واحد، فلمّا اختلف اللفظان أضاف أحدهما إلى الآخر». وذكر غيره أن السنخ المنبت، وهو معنى راجع إلى الأصل.

(٢) خ ١٦ /٥٨.

مُحْكَمَاتٍ»[١].

فالإنسان بما أودعه فيه خالقه من قوى على بينة من أمره، وحقيقة من ذاته وجلاء من قدراته، ويقين من واقعه، يدرك بالضرورة ويحيا بالبداهة أنه مخلوق محدود مفتقر في بقائه وتدبيره شؤونه إلى من بيده الحول والطول والإعطاء والمنع.

وهو مع ما زود به من قوى وأدوات وقابلية وملكات من قلب وعقل وسمع وبصر لكنه كما قال الله في كتابه عن هذا الصنف: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[٢].

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾[٣].

بل أمده ربه بألطافه فأقام له نبيًّا أمره باقتفاء أثره، ونصب له إمامًا ووصيًّا حثه على الاقتداء بفعله ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[٤].

ومكمن البلاء ونبع الداء هو الركون إلى النفس والغفلة عن الله

---

(١) خ ٨٨ /١٢١.

(٢) سورة الأعراف /١٧٩.

(٣) سورة الأنفال /٢١ـ٢٢.

(٤) سورة النساء /١٦٥.

غفلة تنسيه ربه ولا يعرف فيها إلا نفسه فهي الإمام المقتدى والعروة الوثقى والحبل المتين والهدي القويم ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

وله -سلام الله عليه- كثير من القول يتّسق هذا المساق.

فمن ذلك: «الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَى بِالمَرءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ؛ وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى الله لَعَبْدٌ وَكَّلَهُ اللهُ إلى نَفْسِهِ، جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، سَائِرٌ بَغَيْرِ دَلِيل، إِنْ دُعِيَ إلى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ، أَوْ إلى حَرْثِ الأخِرَةِ كَسِلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ!»[٣].

ومنه: «هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ»[٤].

---

(١) سورة القصص /٥٠.

(٢) سورة الجاثية /٢٣.

(٣) خ ١٠٣ /١٤٩.

(٤) م ١٤٩ /٤٩٧.

الغفلة المهلكة

أ) «فَإِنَّكُمْ لَوْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ[1]، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الحِجَابُ! وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، وَبِحَقٍّ أَقولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ العِبَرُ، وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّماءِ إِلاَّ البَشَرُ»[2].

وذلكم منطق الإيمان بالغيب، واليقين بما تؤول إليه العواقب، وإعلام واثق بما تصير إليه الأحياء يوم تبلى السرائر، ويقدم كل امرئ على ما قدّم، ويرتفع الحجاب ويرتهن كل عامل بعمله.

هذا والحجاب وإن لم يرتفع الآن عن هؤلاء فقريبًا ما يرتفع كما ارتفع عمن سبقهم ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[3].

وقد أقيمت الحجة، وتم التنبيه من الغفلة بنحوين: عملاً وقولاً فما

---

(١) الوهل: الخوف والفزع.

(٢) خ ٢٠ /٦٢.

(٣) سورة الكهف /٤٩.

أكثر العبر بما فيه مزدجر!!، ولطالما بلّغ الإنذار والتذكير والتخويف والتعريف رسلُ الله والأوصياءُ من بعدهم.

إذاً فقد تواتر عليهم ما يرون صباح مساء، وسمعوا من الزواجر مافيه مذكر لكل عاقل آن له أن يستفيق من الغفلة ويستيقظ من السبات العميق.

ب) «وهُوَ في مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِي مَعَ الغَافِلِينَ، ويَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، ولا إِمامٍ قائِدٍ، حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ غَفْلَتِهِمُ، استَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً[١]، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلاَ بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ، إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هذِهِ المَنْزِلَةَ، فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي المَهَاوِي، وَالضَّلاَلَ في المَغَاوِي، وَلاَ يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ في نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ»[٢].

وللخطبة الشريفة تتمة مهمة نحا فيها نحو الأولى من التنبيه والتذكير، والإشادة بتبليغ رسول الله ﷺ وهديه، ودوره هو -سلام الله عليه- في متابعة خطى النبي واقتفاء أثره في بث المواعظ، وهو بذلك

(١) ومعنى (استَقْبَلُوا مُدْبِراً) يستقبلون أهوال البرزخ، وطامات القيامة، وشدائدها، مدبرًا عنهم نعيم الدنيا، أو يستقبلون الشقاء والنكال والنقم وقد كان ذلك غائبًا عنهم مدبراً.
(وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً) خلّفوا وراءهم نعم الدنيا وملاذها من مال وولد.

(٢) خ ١٥٣ /٢١٣ـ٢١٤.

جدير.

«فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ مِمَّا لاَبُدَّ مِنْهُ وَلاَ مَحِيصَ عَنْهُ، وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ... وكَما تَزْرَعُ تَحْصد، وما قَدَّمْتَ اليومَ تَقْدِمُ عليهِ غَدًا... فالحَذَرَ الحَذَرَ أيُّها الُمسْتَمِعُ! والجدَّ الجدَّ أيُّها الغافِلُ».

ثم ختم الفصل بقوله عليه السلام كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1].

ج) «وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ المَوْتِ، وَإِقْلاَلِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً، أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا. لاَ عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالاً، وَلاَ فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً، أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

فَسَابِقُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- إِلى مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رُغِّبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَاسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالُمجَانَبَةِ لَمِعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي

---

(١) سورة فاطر /١٤.

الْعُمُرِ!»[١].

(١) خ ١٨٨ /٢٧٨.

الشبهة وموقف المؤمن فيها

والحق إذا تجلّى، والباطل إذا لم يخف، فالعاقل المؤمن يتبين أمره فيهما وأمّا إذا اغمّ الأمر واختلط الحال فهو المشوب لا يُدرى صفاءه وكدره وهي الشبهة والالتباس.

قال عليه السلام: «وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ»[1].

وقال عليه السلام:

«فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ؛ وَلكِن يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُوالَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى»[2].

وقد أبان الإمام عليه السلام في نهجه البيّن القويم شؤون الشبهة ومصادرها ومن عصم من ضلالتها، ومن ارتطم في وحلها، وغرق في مستنقعها، وسأعرض نماذج من ذلك محيلاً الراغب في استيفائها إلى مادة (شبه) في

(١) خ ٣٨ /٨١.

(٢) خ ٥٠ /٨٨.

النهج الشريف[١].

١) الله ﷻ منزه عن الشبهة:

«وَلاَ وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ»[٢].

فواجب الوجود واجب الكمال المطلق، وكل شيء بعلمه وفي قبضته وتحت حكمه، لا تختلط لديه الأصوات ، ولا تشتبه عنده اللغات محيط لطيف خبير.

٢) والملائكة:

«وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ»[٣].

فهم -سلام الله عليهم- خلق بديع، أوكل إليهم بارئهم مهام وشؤوناً جمة في تدبير الخلق وحمل ودائع الله لرسله.

ومقام كهذا لا يفي بحقّه إلا من لطف به الله وعصمه من الزلل وبواعث الاشتباه، ومؤثرات الغلط.

وقد أفاض الإمام عليه السلام في هذه الخطبة وغيرها عن الملائكة وخلقهم وأوصافهم ووظائفهم بعلم لا يعرف إلاّ من طريقه فإنه من مكنون علم

(١) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة /٧٢٨ـ٧٣٠.

(٢) خ ٦٥ /٩٦.

(٣) خ ٩١ /١٢٩.

الغيب وأسرار الملأ الأعلى.

٣) الإمام ويقينه لا شبهة تعتريه:

«وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي»[١].

وهي الحقيقة الصراح التي كان يحياها ويفخر بها، وهو توأم الحق والقرآن، ومن (لو كشف له الغطاء لما ازداد يقيناً). ومن كان على يقين من ربه، فلا مساغ للشبهة أن ترد عليه في فكر وموقف.

٤) من مقاصد البعثة النبوية:

«أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ المشْهُورِ،... إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجاً بِالبَيِّنَاتِ»[٢].

فالناس كما يحكي خلائقهم الإمام عليه السلام في هذه الخطبة «في فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيها حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي اليَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ، وَضَاقَ المَخْرَجُ، وَعَمِيَ المَصْدَرُ».

فلا مفزع لمن يزيح العلة، ويرشد من الحيرة، ويهدي إلى سواء السبيل إلاّ بالاعتصام بحبل الله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

وكان من ألطافه -عظم لطفه وعمّت رحمته- بعثه البشير النذير

---

(١) خ ٢٢ /٦٤.

(٢) خ ٢ /٤٦.

(٣) سورة آل عمران /١٠١.

بالحجة والبرهان كاشفاً للغمة، وزائحاً اللوابس المدلهمة، فصلى الله عليه من ناصح شفيق وعلى آله الهداة.

٥) أهل الذكر والحافظون هداة آمنون من الشبهة:

أ) «وَكَانَوا كَذلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ»(١).

ب) «وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللهِ، وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ، خَوْفاً للهِ، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَمْ يَهِمْ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، وَحَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ»(٢).

ج) «وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى»(٣).

وبذلك امتازوا عن سواهم ممن لم تستقم فيه الملكات، فغشيته الشبهات، فارتطم في الجهل، وضل في الحيرة، وتاه في الضلال.

فهؤلاء وأولئك كما حكى الله في قرآنه:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء

---

(١) خ ٢٢٢ /٣٤٢.

(٢) خ ٢١٠ /٣٢٧.

(٣) خ ٣٨ /٨١.

الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ۞ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[١].

٦) الضلال مرتع الشبهات:

أ) «وَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِم عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، والْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، فَبِأَيِّ المَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ»[٢].

ويجمع ذلك كله رقة الدين. وتسويل الشيطان الغوي، وإتباع النفس الأمارة بالسوء، وإعطائها ما تهوى.

والأنكى من ذلك إلباس المخالفة لبوس الدين وعدم التحرج من ذلك، وهو ضرب من الفتنة وشية من النفاق.

ب) «وَأَمَّا أَعْدَاءُ الله فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا (الشبهة) الضَّلاَلُ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى»[٣].

ج) «فَيَا عَجَباً! وَمَا لِيَ لاَ أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلاَفِ

---

(١) سورة آل عمران /٧ـ٨.

(٢) خ ١٥٦ / ٢٢٠.

(٣) خ ٣٨ /٨١.

حُجَجِهَا فِي دِينِهَا! لاَ يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، وَلاَيَقْتَدُونَ بَعَمَلِ وَصِيٍّ، وَلاَ يُؤْمِنُونَ بَغَيْبٍ، وَلاَ يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ»[١].

٧) موطن الشبهة:

والوقوف على مظانها وأسبابها، ومعرفة خائضي عبابها يبعث في المتأمل الحذر عن الإرتماء في أحضانها والوقوع في شراكها وشباكها، فيملك بذلك زمام عقله، وهوى نفسه، على بصيرة وأمن من الحيرة.

وفيما تناوله الإمام عليه السلام وبثه من كلمه بيان لجملة من تلكم المصادر، وتحذير من عظيم المخاطر.

فمنها:

الفتن:

«إِنّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلاَت، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَات، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ، يُصِبْنَ بَلَداً وَيُخْطِئْنَ بَلَداً. أَلاَ وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ: عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ الْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ الْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا. وأَيْمُ الله لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوْء بَعْدِي، كَالنَّابِ الضَّرُوسِ: تَعْذِمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لاَ يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لاَ يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلاَّ نَافِعاً لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ، وَلاَ يَزَالُ

(١) خ ٨٨ /١٢١.

بَلاَؤُهُمْ حَتَّى لاَ يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلاَّ مثل انْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً، وَلاَ عَلَمٌ يُرَى. نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بمنجاةٍ، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الأَدِيمِ: بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْس مُصَبَّرَة، لاَ يُعْطِيهِمْ إِلاَّ السَّيْفَ، وَلاَ يُحْلِسُهُمْ إِلاَّ الْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ -بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا- لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ، لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلاَ يُعْطُونِيهِ!»[1].

فربما لفّ الموقف الغموض، ولم يسفر فيه الوجه فتتضح الصورة. وطالما راء المراؤون وتشبهوا بالأبرار حتى إذا ماحصحص الحق عرف هنالك المبطلون.

ومنها:

البدع:

«إِنَّ اللهَ تَعالَى بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائم، لاَ يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاَّ هَالِكٌ، وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلاَّ مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا»[2].

فالبدعة مقابل السنة، ولكل مصدره، فالله ورسوله وكتابه منبع الحق ومعدنه، والشيطان وأولياؤه منبت الباطل ومكمنه.

---

(١) خ ٩٣ /١٣٧.

(٢) خ ١٦٩ /٢٤٣_٢٤٤.

وأدعى ما تنتشر به البدعة فيعم بلاؤها وإهلاكها ما إذا ألبست جلباب الدين وتقمصها ولاة الأمر فاستقرت سنة ووسم تركها بدعة.

ومنها:

الظلمة:

«فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ فِي أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ»[١].

ومنها:

الجهل:

أ) «جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثّاً مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ، فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ: لاَ يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ، فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ. جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهلاتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ»[٢].

والجهل داء دويّ، وبلاء مردٍ، أينما استوطن فلا ينتج إلاّ غلطاً، وحماقة وشططاً، فكيف به إذا أناخ وتربع في ولاة الأمر وسراة القوم ومن بيده الحل والعقد.

ب) «أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لاَ بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي

---

(١) خ ١٠٦ /١٥٤.

(٢) خ ١٧ /٥٩.

قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ»[١].

فهو وإن كان مقلداً متبعاً، ومُسّلِماً مستمعاً، إلا أنه لعدم قوة إدراكه، واستحكام فكره سرعان ما يغير وجهته، ويصيخ لمن دعاه ثانياً دونما روية بل لأي بارق لمع، وهذا من مواطن المحنة والابتلاء.

٨) من أربابها:

الفسّاق:

«يُؤْمِنُ الناسَ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ، وَفِيهَا وَقَعَ، وَيَقُولُ: أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ، وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ»[٢].

النّاكثون:

أ) «قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ؟! قَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ. وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»[٣].

ب) «إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي، مَا لَبَّسْتُ وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ[٤] وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ، وَإِنَّ الأَمْرَ لَوَاضِحٌ، وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ»[٥].

---

(١) م ١٤٧ /٤٩٦.

(٢) خ ٨٧ /١١٩.

(٣) خ ١٤٨ /٢٠٦.

(٤) الحَمأ: قريب النسب، الحُمَة: الحية والإبرة اللاسعة من الهوام.

(٥) خ ١٣٧ /١٩٤ـ١٩٥.

الخوارج:

«وَلكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْأَسْلاَمِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالْأَعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ»(١).

معاوية:

أ) «وَأَرْدَيْتَ جِيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً، خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، تَتَلاَطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ»(٢).

ب) «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ الْمُبِينُ وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلاَّ اللَّبْسُ؟ فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لَبْسَتِهَا، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ(٣) جَلاَبِيبَهَا، وَأَغْشَتِ الْأَبصَارَ ظُلْمَتُهَا»(٤).

المغيرة:

«وقال عليه السلام لعمار بن ياسر وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاماً: دَعْهُ يَا عَمَّارُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إِلاَّ مَا قَارَبَتْهُ الدُّنْيَا، وَعَلَى عَمدٍ لَبَسَ عَلَى نَفْسِهِ لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ عَاذِراً لِسَقَطَاتِهِ»(٥).

(١) خ ١٢٣ /١٧٩.

(٢) ك ٣٢ /٤٠٦.

(٣) أَغْدَفَ: أرسل، أرخى.

(٤) ك ٦٥ /٤٥٦.

(٥) م ٤٠ /٥٤٧.

٩) وصايا ونصائح:

أولاً: إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري:

«فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ»(١).

ثانياً: طبيعة الأحداث:

«إِنَّ الْأُمُورَ إذا اشْتَبَهَتْ اعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا»(٢).

ثالثاً: وفي عهده الشريف إلى مالك الأشتر:

«وَارْدُدْ إلى الله وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سبحانه لِقَوْم أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرَّسُولِ﴾، فَالرَّدُّ إلى الله: الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إلى الرَّسُولِ: الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ»(٣).

رابعاً: التحذير من الدنيا:

«فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ... فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ»(٤).

---

(١) ك ٤٥ /٤١٧.

(٢) م ٧٦ /٤٨٠.

(٣) ك ٥٣ /٤٣٤.

(٤) خ ١٩٠ /٢٨١ـ٢٨٢.

خامساً: التحذير من هول الصراط:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّراطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ،... وَلَمْ تَفْتِلْهُ[1] فَاتِلاَتُ الْغُرُورِ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ»[2].

سادساً: عظة الموت:

«يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا»[3].

سابعاً: أدب العلم:

«فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لاَبِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ»[4].

ثامناً: قمة الورع:

«وَلاَ وَرَعَ كالْوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ»[5].

تاسعاً: التقوى خير وقاية وحاجز:

أ) «ذِمَّتي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ العِبَرُ عَمَّا

---

(١) لم تفتله: لم ترده ولم تصرفه.

(٢) خ ٨٣ /١١١-١١٢.

(٣) خ ١٠٩ /١٦٠.

(٤) ك ٣١ /٣٩٥.

(٥) م ١١٣ /٤٨٨.

بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ المَثُلاتِ(١)**، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ**(٢) **الشُّبُهَاتِ»**(٣).

ب) «وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَة أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَة، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إلى ضَلاَلَة»(٤).

عاشراً: أدب الحكم:

«ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ... وأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ»(٥).

---

(١) المثلات: العقوبات.

(٢) التقحم: التردي.

(٣) خ ١٦ /٥٧.

(٤) ك ٣١ /٣٩٥.

(٥) ك ٥٣ /٣٤٣.

الأمل وعاقبة طول الآمال وعرضها

يحيا ابن آدم فتنشط معه آماله وتترعرع، وتمتد فلا تقف عند حد.

والأمل حياة للمرء وضرورة، فهو بذلك نقطة إيجاب، وعنصر بقاء ولكن الاسترسال فيه، والتمادي في طوله نقطة سلب، حيث يعمل على امتلاك المؤمل فينسى ربه، ويغفل عن مقومات صلاحه وإعمار آخرته إنشغالاً بدنياه وآماله الفسيحة طولاً وعرضاً.

وقد قرر الإمام عليه السلام فيما أفاض[1] من حديثه رؤية واقعية ونظرة دقيقة وفكراً ثاقباً شرح فيه الآثار، وأوضح الملابسات.

١) الله - عَمَّ نوالُه- موطن الأمل:

أ) «اللهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ»[2].

ب) «الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقَمِ، الْمَرْهُوبُ مَعَ النِّعَمِ»[3].

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٢) خ ٩١ /١٣٥.

(٣) خ ٦٥ /٩٦.

ج) «وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ»[١].

٢) الله محقق آمال المؤمنين:

«أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ: إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ»[٢].

٣) أمل خالصي الإيمان:

«تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ»[٣].

٤) وهو عنوان الزهد:

«أَيُّهَا النَّاسُ، الزَّهَادَةُ قِصَرُ الْأَمَلِ»[٤].

٥) وماذا يؤمل من المؤمن؟

«الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ»[٥].

٦) الأمل والأجل والعمل:

أ) «أَلاَ وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ؛ وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ

---

(١) خ ١٨٢ /٢٦٠.

(٢) خ ١٠٠ /١٤٦.

(٣) خ ١٩٣ /٣٠٥.

(٤) خ ٨١ /١٠٦.

(٥) خ ١٩٣ /٣٠٥.

قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ»[١].

وقد كرر الإمام عليه السلام بأساليب متنوعة الارتباط الوثيق، والعلاقة القائمة في هذه الدائرة الثلاثية.

ب) «عِبَادَ الله، إِنَّكُمْ -وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هذِهِ الدُّنْيَا- أَثْوِيَاءُ[٢] مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ»[٣].

ج) «عِبَادَ الله، إِنَّ تَقْوَى الله حَمَتْ أَوْلِيَاءَ الله مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ... الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ... وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلاَحَظُوا الْأَجَلَ»[٧].

د) «فَأَزْمِعُوا عِبَادَ الله الرَّحِيلَ عَنْ هذِهِ الدَّارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوالُ، وَلاَ يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ»[٤].

هـ) «وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الْأَجَلِ»[٥].

و) «فَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلاَلَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ ـ طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ـ»[٦].

---

(١) خ ٢٨ /٧١.

(٢) ثَوِيّ كَغَنِيّ: الضيف.

(٣) خ ١٢٩ /١٨٧.

(٤) خ ٥٢ /٨٩.

(٥) خ ١١٤ /١٧١.

(٦) خ ١٣٢ /١٩٠.

ز) «فَبَادِرُوا المَعَادَ، وَسَابِقُوا الْآجَالَ، فَإِنَّ النَّـاسَ يُوشِـكُ أَنْ يَنْقَطِـعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ»[١].

ح) «مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ»[٢].

ط) «لَوْ رَأَى الْعَبْدُ الْأَجَلَ وَمَسِيرَهُ لَأَبْغَضَ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ»[٣].

ي) «فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، قَدَّمَ تَوْبَتَهُ، غَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ»[٤].

ك) «مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ»[٥].

ل) «وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ»[٦].

٧) ومن سلبيات الأمل:

يضر بالآخرة:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ:... وَطُولُ الْأَمَلِ... وَأَمَّا طُولُ

---

(١) خ ١٨٣ /٢٦٦.

(٢) م ٣٦ /٤٧٥.

(٣) م ٣٣٤ /٥٣٤.

(٤) خ ٦٤ /٩٥.

(٥) م ١٩ /٤٧١.

(٦) خ ١٤٧ /٢٠٥.

الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»(١).

داء العقل:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ،... الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ»(٢).

بلاء الذكر:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ... وَيُنْسِي الذِّكْرَ، فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ»(٣).

آفة العمل:

«مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ»(٤).

خادع صاحبه:

«فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، قَدَّمَ تَوْبَتَهُ، غَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ»(٥).

مسوِّف التوبة:

«لاَ تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَيُرَجِّي التَّوْبَةَ بِطُولِ

---

(١) خ٤٢ /٨٣ ـ ٨٤.

(٢) خ ٨٦ /١١٨.

(٣) م ن.

(٤) م ٣٦ /٤٧٥.

(٥) خ ٦٤ /٩٥.

الْأَمَلِ»[١].

٨) الاعتبار والتأمل في عواقب الآمال:

أ) «فَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ ـ طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ـ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلاً عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ. أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ»[٢].

الدنيا: «وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ، فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ، وَلاَ مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعَزَّ[٣] سُرُورَهَا! وَأَظْمَأَ رِيَّهَا! وَأَضْحَى فَيْئَهَا»[٤].

ب) «وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ[٥]، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ. أَرْهَقَتْهُمُ[٦] الْمَنَايَا دُونَ الْآمَالِ، وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الْآجَالِ، لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ

---

(١) م ١٥٠ /٤٩٧.

(٢) خ ١٣٢ /٢٩٠.

(٣) عزَّ الشيء: قلّ حتى كاد لا يوجد.

(٤) خ ١١٤ /١٧٠.

(٥) الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

(٦) أرهق: أعجل.

الْأَبْدَانِ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ[١] الْأَوَانِ»[٢].

ج) «**أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً،** وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ»[٣].

٩) الدنيا والأمل:

أ) «وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا الْتَاطَ[٤] قَلْبُهُ مِنْهَا بِثَلاَثٍ: هَمٍّ لاَ يُغِبُّهُ، وَحِرْصٍ لاَ يَتْرُكُه، وَأَمَلٍ لاَ يُدْرِكُهُ»[٥].

ب) «أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ... وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ»[٦].

ج) «أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا وَالْمُخلِدَ إِلَيْهَا»[٧].

١٠) سر العاقبة:

«اللهُمَّ إِنَّهُمَا (طلحة والزبير) قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلاَ تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا

---

(١) أُنُف (بضمتين): مُسْتأنَف.

(٢) خ ٨٣ / ١١٠.

(٣) خ ١١١ /١٦٥.

(٤) التَاطَ: التَصق.

(٥) م ٢٢٨ /٥٠٨.

(٦) خ ١١١ /١٦٤.

(٧) خ ١٧٨ /٢٥٧.

أَمَّلاَ وَعَمِلاَ»[١].

١١) امل الشيطان وامنيته:

«وَإِلاَّ تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ»[٢].

١٢) وصايا:

أ) «وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ» ، «وَاعْلَمْ يَقِيناً، أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ»[٣].

ب) «أَيُّهَا النَّاسُ... وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذلِكَ اختباراً فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً»[٤].

ج) «مَعَاشِرَ النَّاسِ، اتَّقُوا اللهَ، فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مَا لاَ يَبْلُغُهُ»[٥].

وبعد...

فهذا بيان وهداية وتبصرة وتوجيه للمؤمل ما لا يدرك حيث تطمح به الآمال، وتغريه إلى ذلك الدنيا، فهو وإن بلغ من الكبر عتياً إلا أنه كما

---

(١) خ ١٣٧ /١٩٥.

(٢) ك ١٠ /٣٧٠.

(٣) ك ٣١ /٣٩٩_٤٠١.

(٤) م ٣٨٥ /٥٣٧.

(٥) م ٣٤٤ /٥٣٥.

يقول عليه السلام: «الدَّهرُ يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ، وَيُجَدِّدُ الْآمَالَ»(١).

وإيقاف على مواطن الاعتبار، وعواقب نزق الآمال ممن ملكهم الأمل ولا يملكون من العمل إلا الأمل.

أما أولو النهى والحكمة والحجى فهم كما قال عنهم عليه السلام: «تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ»(٢).

وقدوتهم وإمامهم الذي عرف ووصف، فقال عن الدنيا ومبلغها من أمله «هيْهَات! غُرِّي غَيْرِي، لاَ حاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاَثاً لا رِجْعَةَ فِيهَا! فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ»(٣).

(١) م ٧٢ / ٤٨٠.

(٢) خ ١٩٣ / ٣٠٥.

(٣) م ٧٧ / ٤٨٠_٤٨١.

الهوى وعظيم البلاء به وفيه

الهوى لغة:

«هوى النفس: إرادتها، والجمع الأهـواء... قـال اللغويـون: الهـوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبـه، قـال الله ﷻ: ﴿وَنَهَـى الـنَّفْسَ عَـنِ الْهَوَى﴾، معناه نهاها عن شهواتها وما تـدعو إليـه مـن معـاصي الله ﷻ... ومتى تكلم بالهوى مطلقًا لم يكن إلا مذمومًا حتى يُنعت بـما يخـرج معنـاه كقولهم: هوى حسن»[1].

أودع الله -جلّـت حكمتـه- في الإنـسان قـوتين عظيمتـين: العقـل والنفس، ولكلٍ مجاله وأثره، ويـؤدي كـلٌّ مـنهما دوره اذا تحـرك في فلكـه، ودار في محوره، وإذا ما حادا عن المحور والمدار فقد خرجا عن خطتهما، ولم يؤديا وظائفهما.

والعقل والنفس يتصارعان بطبعهما في كيان من أودعا فيـه وارتبطـا بأمره وشأنه.

والعقـل بوضـعه وطبعـه يـسمو إلى الحكمـة ويهـدي إلى الرشـاد،

---

(١) لسان العرب ١٥ /٣٧٢.

والنفس من شأنها يملكها الهوى فتنقاد إلى الملاذ وتهوي إلى الحضيض والشهوات وإذا ما غلب (الهوى) وملك كان (العقل) مأموراً وأسيراً، وقد كان من جلاله أن يكون ويبقى أميراً.

وقد عُني الإمام -صلوات الله عليه- بهذه الغريزة المودعة في تركيبة الإنسان كثيراً وأولاها إهتماماً بالغاً لعظيم خطرها وتغلغل نفوذها فشرح أبعادها، وسبيل إستقامتها، وكشف عن ويلاتها حينما إنحرفت عن مسارها وأقام شواهد ذلك في مسيرة الإنسانية جاهليةً وإسلاماً شهادة الخبير بواقع أمر الجاهلية ومن هم على شاكلتهم عصر الإسلام ممن عصفت بهم الأهواء فأطاحوا بالفكر وقوضوا أركان الهدى وعاثوا فساداً في دين الله وعباده وبلاده.

هذا ما نجمعه مبثوثاً ونلمه متفرقاً من كلمه وبليغ حكمه ودقيق حكايته في نهج بلاغته عبر النقاط التالية:

الأولى: أهواء الملائكة في الله:

«وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ»[1].

ويلاحظ من خلال هذا الوصف للملائكة الكرام سلامة النعت بالهوى ونسبته إلى الملائكة حيث يعني التعلق وشدة الميل وجماع الرغبة، فلما كان ذلك مرتبطاً بالحق ﷻ فهو سمة شرف وعنوان فضيلة، وإن كثر

---

(١) خ ١٠٩ /١٥٩.

التعبير به فيما لا يحسن ويجمل.

الثانية: ومنى الأولياء:

«اللهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيشِ، وَقَرَارِ النِّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ وَمُنْتَهَى الْطُمَأْنِينَةِ، وَتُحَفِ الْكَرَامَةِ»[1].

الثالثة: جاهلية الأهواء ونور البعثة:

أ) «إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً ﷺ لإِنْجَازِ عِدَتِهِ وَتَمَامِ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلادُهُ. وَأَهْلُ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ»[2].

ب) «بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَة، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَة، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاَءُ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَال مَنَ الأَمْرِ، وَبَلاَء مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ»[3].

الرابعة: الدنيا والهوى:

وكثيرون من الناس يعلقون آثامهم على الدنيا، ويعصبونها برقبتها، ويحملونها تبعتها.

---

(١) خ ٧٢ /١٠١.

(٢) خ ١ /٤٤.

(٣) خ ٩٥ /١٤٠.

أما الإمام عليه السلام فله نظرته الواقعية للدنيا فهي ممدوحة ومذمومة وقد سبق في مقدمات الكتاب حديث ذلك.

ومما قاله في هذا الشأن وقد سمع رجلًا يذم دنياه:

أ) «أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا، المُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا... أَنْتَ المُتجَرِّمُ عَلَيْهَا، أَمْ هِيَ المُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ؟ مَتَى اسْتَهْوَتْكَ... أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى»[1].

ب) وقد جاء في صدر كتابه جوابًا على أبي موسى الأشعري في أمر الحكمين:

«فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا، وَنَطَقُوا بِالْهَوى»[2].

الخامسة: المرء مع من يهوى:

لمّا أظفره الله تعالى بأصحاب الجمل وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً معك شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال له عليه السلام: أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟ قال: نَعَم. قالَ: فَقَدْ شَهِدنَا، وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ، وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَرْعُفُ[3] بِهِمُ الزَّمَانُ، ويَقْوَى بِهِمُ الإيمان»[4].

(١) م ١٣١ /٤٩٢.

(٢) ك ٧٨ /٤٦٥.

(٣) يرعف: يجود على غير انتظام كما يجود الأنف بالرعاف.

(٤) خ ١٢ /٥٥.

فالمرء مع من أحب وما أحب، وسيّان بين معاصر القضية ولم يشهدها وبين من يأتي بعد إنقضائها ولو بطويل من الدهر، فالكل شاهد مادام الهوى لهم جامعاً.

السادسة: كلٌّ يعمل على شاكلته:

من خطبة له عليه السلام يومئ فيها إلى ذكر الملاحم:

أهل الحق:

«يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى»[1].

أهل الباطل:

«إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى»[2].

فإمام الرشد وقائد الرشاد هواه في الحق، ويقوّم المعوج من هوى سواه إلى هداه وأئمة الضلال والزيغ يغيرون ويبدلون حيثما يهوون.

كما قال عليه السلام عن هذا الصنف:

«وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّال وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّل، وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حبالِ غُرُور، وَقَوْلِ زُور، قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ، وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلى أَهْوَائِهِ»[3].

---

(١) خ ١٣٨/ ١٩٥.

(٢) خ ١٣٨/ ١٩٥.

(٣) خ ٨٧/ ١١٩.

السابعة: صراع العقل والهوى:

أ) «شَهِدَ عَلَى ذلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عَلاَئِقِ الدُّنْيَا»[١].

ب) «وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ»[٢].

ج) «...، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ،...، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ»[٣].

د) «فَأَمْلِكْ هَوَاكَ»[٤].

هـ) «رَحِمَ اللهُ عَبْداً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى،...، كَابَرَ هَوَاهُ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ»[٥].

فمن شأن العقل ومقتضى وضعه أن يكون حاكماً لا محكوماً، وغالباً لا مغلوباً، فإذا ما ضعف وغلب وقهر انقلب القياس، وانعكست النتيجة.

الثامنة: حذار من الأهواء الباطلة:

أ) «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ اللهِ شَيْءٌ إلاَّ يَأْتي فِي كُرْه، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ شَيْءٌ إلاَّ يَأْتِي فِي شَهْوَة.فَرَحِمَ اللهُ رَجُلاً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى

---

(١) ك ٣ /٣٦٥.

(٢) م ٢١١ /٥٠٦.

(٣) م ٤٢٤ /٥٥١.

(٤) ك ٥٣ /٤٢٥.

(٥) خ ٧٦ /١٠٣.

نَفْسِهِ، فَإِنَّ هذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وَإِنَّهَا لاَ تَزَالُ تَنْزِعُ إِلى مَعْصِيَةٍ فِي هَوىً»[(١)].

وهذا بيان كامل، ومقدمات منتجة، وتحليل دقيق لما أصطبغت عليه الطاعة والمعصية، والإباء والانقياد، وكشف عن السمة الغالبة والميول العارمة لإنسياق النفس وترسلها طوع الهوى وإنجذابها حيث المشتهى آبية عما تكره أو تكره عليه.

ب) «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى،...؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ»[(٢)].

ج) «عِبَادَ اللهِ، إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ،... قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى»[(٣)].

إذن فهي النفس الأمارة بالسوء تغرق في الشهوات، وتغشاها الهموم فتحجبها عن الحق، وتعمى عن النور، فإذا ما فزعت إلى شاطئ النجاة أزالت عن بصرها وبصيرتها الغشاوات فقد بصرت الطريق ونبذت الضالين وتركتهم في غيهم خابطين وفي حيرتهم غارقين.

د) «أَيْ بُنَيَّ،... بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ،... أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ

---

(١) خ ١٧٦ /٢٥١.

(٢) خ ٤٢ /٨٣.

(٣) خ ٨٧ /١١٨.

غَلَبَاتِ الْهَوَى»[١].

«وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى»[٢].

هـ) «أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ»[٣].

وإن ذلك في ميزان العدل لدقيق، تبتلى فيه الذوات، وكلما عظم مقامها عظم بلاؤها.

و) «ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ (الوزراء) عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ»[٤].

ز) «وَالشَّقِيُّ مَنِ انْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ»[٥].

ح) «واعْلَمُوا أَنَّ... ومجالسةَ أَهْلِ الهوى مَنْسَاةٌ للإيمانِ ومَحْضَرَةٌ لِلشَّيطانِ»[٦].

ط) «عِبَادَ الله، لاَ تَرْكَنُوا إلى جَهَالَتِكُمْ، وَلاَ تَنْقَادُوا لِأَهْوَائِكُمْ»[٧].

---

(١) ك ٣١ /٣٩٣.

(٢) ك ٣١ /٤٠٤.

(٣) ك ٥٣ /٤٢٨.

(٤) ك ٥٣ /٤٣٠.

(٥) خ ٨٦ /١١٧.

(٦) م ن.

(٧) خ ١٠٥ /١٥٢.

ي) «فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ (الْقُرآن) وَأَتْبَاعِهِ،... وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُـمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»[١].

ك) «ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْـوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتبَسَ عَلَيْهِمْ»[٢].

التاسعة: نماذج ممن عصفت بهم الأهواء:

١ - بعض الرعية:

أ) «أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَاني»[٣].

ب) «وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِـهِ، اخْتَلَفَـتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ...، فَعُمِلَ بِالْهَوَى»[٤].

«فإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذلِكَ كَثِيراً مِنَ الْعَدْلِ»[٥].

٢ - معاوية:

«لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلاَ قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ، وَقَـادَهُ الضَّلاَلُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لاَغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً»[٦].

---

(١) خ ١٧٦ /٢٥٢.

(٢) ك ٣١ /٣٩٤.

(٣) خ ١٠١ /١٤٦.

(٤) خ ٢١٦ /٣٣٣_٣٣٤.

(٥) ك ٥٩ /٤٤٩.

(٦) ك ٧ /٣٦٧.

«وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمانَ»[١].

«فَسُبْحَانَ الله! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ»[٢].

٣- الحكام الأشرار:

«فَإِنَّ هذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا»[٣].

٤- واليه المنذر بن الجارود العبدي، وقد خان في بعض ما ولاّه من أعماله:

«فَإِنَّ صَلاَحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لاَتَدَعُ لِهَوَاكَ انقياداً»[٤].

٥- الحكمان:

«إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اختيار رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ»[٥].

---

(١) ك ٦ /٣٦٧.

(٢) ك ٣٧ /٤١١.

(٣) ك ٥٣ /٤٣٥.

(٤) ك ٧١ /٤٦١-٤٦٢.

(٥) خ ١٢٧ /١٨٥ ونحو من ذلك خ ١٧٧ /٢٥٦.

العاشرة: مثله فليؤاخى:

«كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ،... فَلاَ يَشْتَهِي مَا لاَ يَجِدُ... وَكَان إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلى الْهَوَى فيُخَالِفُهُ. فَعَلَيْكُمْ بِهذِهِ الْخَلاَئِقِ فَالْزَمُوهَا»[١].

الحادية عشرة: ومن خلائقه عليه السلام مخالفة الهوى:

أ) «غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ»[٢].

ب) «وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلى مُصَفَّى هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هذَا الْقَزِّ، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ»[٣].

وانظر إلى المنصور الدوانيقي لما قتل ولدي الحسن عليهما السلام حين أكل بعض ما يحبه من طعام.

«ذكر أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر فاستطابها فقال: أراد إبراهيم أن يحرمني هذا وأشباهه»[٤].

ج) وقال أمير المؤمنين عليه السلام لطلحة والزبير:

«وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الأُسْوَة، فَإِنَّ ذلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي،

---

(١) م ٢٨٩ /٥٢٦.

(٢) ك ٣١ /٣٩١.

(٣) ك ٤٥ /٤٧٧ـ٤١٨.

(٤) أعيان الشيعة ٢ /١٧٩.

وَلاَ وَلِيتُهُ هَوىً مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُما مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُما فِيما قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ»[1].

الثانية عشرة: عبث الأهواء بالمقدسات وهتكها للحرمات:

«وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهم عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ **بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ،** وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ»[2].

الثالثة عشرة: استعاذة وشكوى:

«اللهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ...، أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!»[3].

وكان ؑ يدعو به كثيراً.

«اللهمَّ إِنّا نَشْكُو إِلَيكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنا، وكَثْرَةَ عَدُوِّنا، وتَشَتُّتَ أَهوائِنا»[4].

وكان ؑ يقول ذلك ختام دعائه إذا لقي عدوًّا محارباً.

---

(١) خ ٢٠٥ /٣٢٢.

(٢) خ ١٥٦ /٢٢٠.

(٣) خ ٢١٥ /٣٣٢.

(٤) ك ١٥/٣٧٤.

الصبر

الإسلام..."وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ"[1].

الصبر من مظاهر الإيمان: "لا إيمان كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ"[2].

الصبر من دعائم الإيمان وشعبه أربع:

"وَسُئِلَ عليه السلام عَنِ الْإِيمان، فَقَالَ: الْإِيمان عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ... وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ، فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ"[3].

الصبر والإيمان:

"أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلًا... وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمان كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ وَلَا خَيْرَ فِي

---

(1) خ ١٠٦ /١٥٣.

(2) م ١١٣ /٤٤٨.

(3) م ٣١ /٤٧٣.

جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ وَلَا فِي إِيمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ»[١].

المؤمن: «شَكُورٌ صَبُورٌ»[٢].

المتقون...«صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً»[٣].

المتقي...«وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ»[٤].

«وَفِي المَكَارِهِ صَبُورٌ»[٥].

«وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ»[٦].

«مَنْ صَبَرَ صَبْرَ الْأَحْرَارِ وَإِلَّا سَلَا سُلُوَّ الْأَغْمَارِ[٧]»[٨].

وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال للأشعث بن قيس معزياً عن ابن له:

«إِنْ صَبَرْتَ صَبْرَ الْأَكَارِمِ وَإِلَّا سَلَوْتَ سُلُوَّ الْبَهَائِمِ»[٩].

---

(١) م ٨٢ /٤٨٢.

(٢) م ٣٣٣ /٥٣٢.

(٣) خ ١٩٣ /٣٠٤.

(٤) خ ١٩٣ /٣٠٥.

(٥) خ ١٩٣ /٣٠٦.

(٦) م ن.

(٧) الأغمار: جمع غمر ـمثلث الأولـ وهو الجاهل لم يجرب الأمور.

(٨) م ٤١٣ /٥٤٨.

(٩) م ٤١٤ /٥٤٨.

وفي نص تعزية آخر:

«وَإِنْ تَصْبِرْ فَفِي اللهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ يَا أَشْعَثُ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ»[١].

«فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ وَعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَهِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ»[٢].

وهذا المقطع من كلامه عليه السلام قاله عند تلاوته ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.

وقبله كلم عجيب وقول دونه الوصف بالجليل الجميل: «أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ أَوْ تَرَى الْمُبْتَلَى بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ».

«وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ»[٣].

الصلاة والصبر:

«وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله... يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ»[٤].

---

(١) م ٢٩١ /٥٢٧.

(٢) خ ٢٢٣ /٣٤٤.

(٣) ك ٥٣ /٤٣١.

(٤) خ ١٩٩ /٣١٧.

وعلى مكاره الدهر:

«وَالدَّهْرُ يَوْمَانِ يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطَرْ وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ»[١].

«الصبرُ يناضلُ الحِدْثانَ[٢]»[٣].

«يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمُصِيبَةِ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلى فَخْذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ عَمَلُه»[٤].

«مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الجَزَعُ»[٥].

الصبر مركب النجاة:

فمن خطبة له عليه السلام يمثل فيها المؤمن الحق لتقمّصه صالح الأعمال ومحاسن الخصال: «جعلَ الصبرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ»[٦].

الصبر على أحكام الله:

«فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا الْغَفْلَةُ وَالتَّشَاغُلُ عَنِ الْمَوْعِظَةِ»[٧].

---

(١) م ٣٩٦/ ٥٤٦.

(٢) الحِدْثان: نوائب الدهر، والمناضلة: المدافعة.

(٣) م ٢١١/ ٥٠٦.

(٤) م ١٤٤/ ٤٩٥.

(٥) م ١٨٩/ ٥٠٢.

(٦) خ ٧٦/ ١٠٣.

(٧) خ ٨٦/ ١١٧.

الصبر في الفتن:

«الْزَمُوا الْأَرْضَ وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ»[١].

وقال في فتنة مقتل عثمان والمطالبة بمعاقبة قاتله:

«فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً»[٢].

إلى عمال الخراج:

«وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ وَسُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ»[٣].

الصبر في الحرب:

أ) «فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا وأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا وعَلَا سَنَاهَا واسْتَشْعِرُوا[٤] الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ»[٥].

---

(١) خ ١٩٠ /٢٨٢.

(٢) خ ١٦٨ /٢٤٣.

(٣) ك ٥١ /٤٢٥.

(٤) قال ابن أبي الحديد: «استشعروا الصبر: اتخذوه شعارًا، والشعار: ما يلي الجسد من الثياب، وهو ألزم الثياب للجسد، يقول: لازموا الصبر كما يلزم الإنسان ثوبه الذي يلي جلده لا بدّ له منه، وقد يستغني عن غيره من الثياب». شرح نهج البلاغة ٢ /٦١.

(٥) خ ٢٦ /٦٨.

ب) «وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ وَقِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً[١]»[٢].

ج) «فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ[٣] هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ وَيَكْتَنِفُونَهَا حِفَافَيْهَا[٤] وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا»[٥].

الصبر على الرزق:

«وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا»[٦].

أهل الدنيا قليل صبرهم:

«وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ»[٧].

---

(١) الغيَر: اسم للتغير أو التغيّر.

(٢) خ ١٧٣ /٢٤٨.

(٣) الحقائق: جمع حاقة، النازلة الثابتة.

(٤) حِفَافَيْهَا: جانبيها.

(٥) خ ١٢٤ /١٨٠ـ١٨١.

(٦) خ ٩١ /١٣٤.

(٧) خ١١٣ /١٦٨.

الصبر على المكروه والمحبوب:

«**الصَّبْرُ صَبْرَانِ صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ**»[1].

الصبر على الطاعة:

«وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ الله وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ»[2].

«**العَمَلَ العَمَلَ، ثُمَّ النِّهايَةَ النِّهايَةَ، والاسْتِقامَةَ الاسْتِقامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ** الصَّبْرَ، والوَرَعَ الوَرَعَ»[3].

الصبر على المعصية:

ومن كلمه في الزهد:

«وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ فَإِنْ عَزَبَ[4] ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلَا يَغْلِبِ الحَرَامُ صَبْرَكُمْ»[5].

الصبر على بذل المال في وجوهه:

«فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ ولْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ ولْيَفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ والْعَانِيَ ولْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ والْغَارِمَ ولْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الحُقُوقِ

---

(١) م ٥٥ /٤٧٨.

(٢) خ ١٧٣ /٢٤٨ـ٢٤٩.

(٣) خ ١٧٦ /٢٥٢.

(٤) عَزَبَ: بَعُدَ.

(٥) خ ٨١ /١٠٦.

والنَّوَائِبِ ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا ودَرْكُ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ»(١).

الصبر محمودة عواقبه:

المتقون: «صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُم، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا وَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا»(٢).

«فَإِنْ أَتَاكُمُ اللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا وَإِنِ ابْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»(٣).

من عبر المؤمنين:

«تَدَبَّرُوا أَحْوَالَ المَاضِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالْبَلَاءِ أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَجَرَّعُوهُمُ المُرَارَ فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْغَلَبَةِ لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعٍ حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ وَالِاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلَاءِ فَرَجاً فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً وَأَئِمَّةً أَعْلَاماً وَقَدْ بَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ

---

(١) خ ١٤٢ /١٩٨.

(٢) خ ١٩٣ /٣٠٤.

(٣) خ ٩٨ /١٤٤.

الْآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ»[١].

«لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وإِنْ طالَ بِهِ الزَّمانُ»[٢].

«وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إيماناً وَتَسْلِيماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ[٣] وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ».

ثم عرض صورة الاستماتة والحرب الضروس بين المتحاربين المؤمنين والكافرين، ثم عقّب ذلك بقوله عليه السلام:

«فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ[٤] وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمان عُودٌ وأَيْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً»[٥].

وله -سلام الله عليه- في هذا المعنى ما خاطب به الخوارج:

«وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآباءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إيماناً وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ وَصَبْراً عَلَى

---

(١) خ ١٩٢ /٢٩٦-٢٩٧.

(٢) م ١٥٣ /٤٩٩.

(٣) اللقَم بالتحريك، وبوزن (صُرَد) أيضًا: معظم الطريق أو جادته.

(٤) الجِرَان: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره، وإلقاء الجِرَان كناية عن التمكّن.

(٥) خ ٥٦ /٩١-٩٢.

مَضَضِ الْجِرَاحِ»[١].

التفاوت في التحمّل:

«وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ، أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ المَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ. **وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ**، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ[٢] لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ»[٣].

الوالي والصبر:

«وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ. وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ مِنْ ذلِكَ إِلاَّ بِالإِهْتِمَامِ وَالاستعَانَةِ بِالله، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ. وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ»[٤].

ومن سمات القاضي والحاكم:

«ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ... وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأُمُورِ»[٥].

---

(١) خ ١٢٢ /١٧٨.

(٢) الصِّغْوُ: الميل.

(٣) ك ٥٣ /٤٢٩.

(٤) ك ٥٣ /٤٣٢.

(٥) ك ٥٣ /٤٣٤_٤٣٥.

«وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذلِكَ مَحْمُودَةٌ»[١].

«وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ، إلى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ»[٢].

حديث صبره -صلوات الله وسلامه عليه:

١- ملابسات الحكم والخلافة:

أ) «فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً»[٣].

ب) «فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ»[٤].

ج) «فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ وأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى وشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَا وصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ وعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ»[٥].

د) «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا

---

(١) ك ٥٣ /٤٤١_٤٤٢.

(٢) ك ٥٣ /٤٤٣.

(٣) خ ٣ /٤٨.

(٤) خ ٣ /٤٩.

(٥) خ ٢٦ /٦٨.

رَحِمِي وَأَكْفَئُوا إِنَائِي وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي وَقَالُوا أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ فَاصْبِرْ مَغْمُوماً أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ»[١].

هـ) «إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَئُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِي وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ»[٢].

و) وفي جوابه لأخيه في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء، وقد بثّ فيه همومه وعظيم بلائه وشديد محنته من قريش ومن مالأهم ووالاهم- تمثّل وقال:

«وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ:

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي ... صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ

يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ ... فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ»[٣]

٢- وفي عظيم رزئه بفقد رسول الله ﷺ:

أ) قال وهو يلي غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه:

«بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ

---

(١) خ ٢١٧ /٣٣٦.

(٢) خ ١٦٩ /٢٤٤.

(٣) ك ٣٦ /٤١٠.

غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّئُونِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً وَقَلَّا لَكَ وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ»[١].

ب) «إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ وَإِنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ»[٢].

٣- وفي عظيم مصيبته ببضعة النبي السيدة الزهراء عليها السلام قال عند دفنها كالمناجي رسول الله صلى الله عليه وآله:

«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ قَلَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي إِلَّا أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ... فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ»[٣].

٤- البشرى بالشهادة:

«فَقُلْتُ يَا رَسُولُ اللهِ أَ وَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي أَبْشِرْ

---

(١) خ ٢٣٥ /٣٥٥.

(٢) م ٢٩٢ /٥٢٧.

(٣) خ ٢٠٢ /٣٢٠.

فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ فَقَالَ لِي إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ»(١).

وبعد...

فهذا حديث الإمام عليه السلام في الصبر بثّه في كلمه، وأداره في متّسع شؤونه من حياة الإنسان فكرًا وعقيدة وعملاً وخلقًا وسمتًا، وهو يمثّل حكاية خلقه وسريرة ذاته وسيرة حياته سلمًا وحربًا وتربية لولاته ورعيته.

هذا وقد كان من دعائه عليه السلام ختام خطبه وشدائد خطوبه:

«أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ»(٢).

---

(١) خ ١٥٦ /٢٢٠.

(٢) خ ١٧٣ /٢٤٩، وخ ٢٠٥ /٣٢٢.

الرضى

«نِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَى»[1].

وأعظم بها حكمة ناجعة، ومفردة جامعة، تختزن طيّها شعب الرضى في متنوع مواطنه، وكافة متعلقاته وشؤونه، فمهما تشعبت فهو محورها ومدارها تتمحور حوله فهو خدينها وأنعم به قريناً.

وهذا ما نقف عليه مبثوثاً في كلم الإمام عليه السلام ونسعى إلى استقصائه وايراده معنوناً.

١) ما يتعلق بالله جلّ جلاله

الشهادة له:

«فَإِنَّها عَزِيمَةُ الْإِيمان، وَفَاتِحَةُ الإحسان، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمنِ»[2].

ومن صفاته:

---

(١) م ٤ /٤٦٩.

(٢) خ ٢ /٤٦.

«**يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ**»(١).

الحمد له:

«اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي. حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ»(٢).

«أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو **بِحِلْمٍ**»(٣).

«وَلَمْ يَتْرُكْ شَيئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلاَّ وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُم، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَولٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ، قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ»(٤).

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً»(٥).

---

(١) خ ١٨٦/ ٢٧٤.

(٢) خ ١٦٠/ ٢٢٤_٢٢٥.

(٣) خ ١٦٠/ ٢٢٤.

(٤) خ ١٨٣/ ٢٢٦.

(٥) خ ١٥٣/ ٢١٤.

«وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ»[١].

٢) وبرسوله ﷺ:

«ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّد ﷺ[٢] لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا»[٣].

«وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ ﴿الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ -فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ- دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ»[٤].

«وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلى رِضْوَانِ الله كُلَّ غَمْرَةٍ[٥]»[٦].

«اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، وَنَوَامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، الْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، وَالْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، وَالْمُعْلِنِ الْحَقَّ بِالْحَقِّ، وَالدَّافِعِ جَيْشَاتِ الْأَبَاطِيلِ، وَالدَّامِغِ صَوْلَاتِ الْأَضَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ، قَائِماً

---

(١) خ ١٨٣ /٢٢٦.

(٢) في المطبوع صلاة بتراء هنا.

(٣) خ ١ /٤٤.

(٤) خ ٨٦ /١١٧.

(٥) الغَمْرة: الشدة، وأصلها ما ازدحم وكثر من الماء.

(٦) خ ١٩٤ /٣٠٧.

بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزًا[١] فِي مَرْضَاتِكَ»[٢].

الأنبياء والأولياء:

«وَلكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ»[٣].

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ ﷺ»[٤].

«وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وَاجْزِهِ مِنَ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ **المَقَالَةِ»[٥].**

٣) الملائكة:

«جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إلى الْمُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ»[٦].

٤) الإسلام:

«جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِ»[٧].

---

(١) المستوفز: المسارع المستعجل.

(٢) خ ٧٢ /١٠١.

(٣) خ ١٩٢ /٢٩٠.

(٤) خ ١٨٥ /٢٦٩ـ٢٧٠.

(٥) خ ٧٢ /١٠١.

(٦) خ ٩١ /١٢٩.

(٧) خ ١٩٨ /٣١٤.

ومما قاله وقد بلغه خبر الناكثين والمطالبين بدم عثمان:

«يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ، وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ. يا خَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلاَمَ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاض بِحُجَّةِ الله عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ»[١].

٥) الراضون والمرضيون:

الإمام عليه السلام:

في خطبة قالها بعد النهروان يذكر فيها فضائله وخلائقه:

«رَضِينَا عَنِ الله قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا لله أَمْرَهُ»[٢].

المؤمنون المخلصون:

ومما قاله عند تلاوته: «﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ والْآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله﴾ قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّماءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ»[٣].

«طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، ورَضِيَ عَنِ الله»[٤].

المتقون:

---

(١) خ ٢٢ /٦٣.

(٢) خ ٣٧ /٨١.

(٣) خ ٢٢٢ /٣٤٣.

(٤) م ٤٤ /٤٧٧.

«﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ»[1].

السالك إلى الله:

«وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ»[2].

وفي خطبته العجيبة في وصف المتقين التي صعق بعد سماعها همّام صعقة كانت فيها نفسه: «وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ»[3].

الجهاد من دعائم الإيمان وهو على شعب:

«وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: ... وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ... وَمَنْ شَنِىءَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ للهِ غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4].

«وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ»[5].

---

(١) خ ١٩٠ /٢٨٢.

(٢) خ ٢٢٠ /٣٣٧.

(٣) خ ١٩٣ /٣٠٤.

(٤) م ٣١ /٤٧٣.

(٥) م ٣٤٩ /٥٢١.

خباب بن الأَرَتِّ[١]:

«يَرْحَمُ اللهُ خَبَّابَ بْنَ الأَرَتِّ، فلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا، وهَاجَرَ طَائِعًا، وقَنِعَ بِالْكَفَافِ، ورَضِيَ عَنْهُ اللهُ، وعَاشَ مُجَاهِدًا»[٢].

مالك الأشتر:

«فَرَحِمَهُ اللهُ! فَلَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلاَقَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ،

---

(١) خبّاب بن الأَرَتِّ التميمي:

صحابي أسلم أول الدعوة ولعله سادس ستة، وكان حدَّادًا يعمل السيوف، وعُذّب في الدين فلم يعط الكفار ما سألوه، فروي أن قريشًا أوقدوا له نارًا وسحبوه عليها، فما أطفأها إلا ودك (شحم) ظهره، وشهد بدرًا والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وروى عن رسول الله ﷺ حديثًا كثيرًا، وتوفّي ٣٧هـ بالكوفة، وعمره ٧٣ سنة، وحضر أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة منصرفًا من صفين بعد موت خبّاب، وقال فيه: رحم الله خبَّابًا، أسلم راغبًا، وهاجر طائعًا، وعاش مجاهدًا، وابتلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيع الله أجره.

وخبَّاب أول من دفن في ظهر الكوفة (النجف الأشرف).

وأصل اسم أبيه (الأَرَتّ) من في لسانه عقدة لا يطاوعه لسانه عند إرادة الكلام، فإذا شرع فيه اتصل كلامه، ولعل أباه كان كذلك.

وحين أُتِي بكفن قباطي بكى وقال: لكن حمزة عمَّ النبي ﷺ كُفِّن في بردة... ولقد خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا.

فقد ذكر أن خبَّابًا رضي الله عنه تموّل، أي وسَّع الله -تعالى- عليه في رزقه، والظاهر أن ذلك مصداق للآية التي نزلت فيه وجماعة من الضعفاء وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾. أعيان الشيعة ٦/٣٠٤-٣٠٧ بتلخيص.

(٢) م ٤٣ /٤٧٦.

أَوْلاَهُ اللهُ رِضْوَانَهُ»[١].

غير المرضي عنهم:

«وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذلِكَ إلى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ»[٢].

وقال في ذمّ العاصين من أصحابه:

«وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ، **وَأَحْرَزَ رِضَى سَيِّدِهِ**»[٣].

«إِنَّهُ لاَ يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ»[٤].

«أُفٍّ لَكُمْ !لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضاً؟ وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً؟»[٥].

«فقُبْحًا لَكُمْ وتَرَحًا، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى: يُغَارُ عَلَيكُمْ ولا تُغِيرُونَ، وتُغْزَونَ ولا تَغْزُونَ، ويُعْصَى اللهُ وتَرْضَونَ»[٦].

«فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالْاختبار فِي مَوَاضِعِ الْغِنَى وَالْاقتدار»[٧].

---

(١) ك ٣٤ /٤٠٧ـ٤٠٨.

(٢) خ ١٥٣ /٢١٤.

(٣) خ ١١٣ /١٦٨.

(٤) خ ١٨٠ /٢٥٩.

(٥) خ ٣٤ /٧٨.

(٦) خ ٢٧ /٧٠.

(٧) خ ١٩٢ /٢٩١.

«الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ: إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ، وَإِثْمُ الرِّضَى بِهِ»(١).

وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلاَّ مَنْ عَصَمَ الله، سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَى وَالسُّخْطُ»(٢).

«وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَاكَ الأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ»(٣).

«أَلاَ وَإِنَّ هذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ»(٤).

الدنيا: «أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ الله، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ الله!»(٥).

«لاَ تَعْدُو -إِذَا تَنَاهَتْ إِلى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا- أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَي سُبْحَانَهُ: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾»(٦).

ومن شؤون الرضى في جميل كلمه وبليغ حِكَمِه:

---

(١) م ١٥٤ /٤٩٩.

(٢) م ٣٤٣ /٥٣٥.

(٣) م ٣٤٩ /٥٣٦.

(٤) خ ١٧٣ /١٤٨.

(٥) خ ١٦١ /٢٣٠.

(٦) خ ١١١ /١٦٤.

١- «رَضِيَ بالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ ضُرَّهُ»(١).

٢- «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى وَالسُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بالرِّضَى»(٢).

٣- «فَلَيْسَ أَحَدٌ -وَإِنِ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى الله حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ- بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ»(٣).

٤- ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية بعد تمام البيعة له:

«وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ للهِ رِضىً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْبِدْعَةٍ رَدُّوهُ إلى مَاخَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ اللهُ مَا تَوَلَّى»(٤).

أقول:

والكتاب جلي في أهدافه بيّن في غرضه، فلم يكن المقام، ولا مقصد الإمام الاستدلال على إمامته والاحتجاج على حق خلافته، وإنما هو الإلزام كما جاء في صدر كلامه عليه السلام حيث قال:

«إِنَّما بَايَعَنِي القَوْمُ الذينَ بَايَعُوا أَبا بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمانَ على ما بَايَعُوهُمْ عليهِ، فلَمْ يَكُنْ للشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، ولا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ».

---

(١) م ٢ /٤٦٩.

(٢) خ ٢٠١ /٣١٩.

(٣) خ ٢١٦ /٣٣٤.

(٤) ك ٦ /٣٦٧.

والمقام تولي الإمام الحكم، وقيامه بالأمر بعد إلحاح الأمة وانثيالها عليه، وإلا فإمامته الإلهية ثابتة بنص الله وتبليغ رسوله وقوله ﷺ.

٥- ومن وصيته الجليلة لولده الإمام الحسن عليه السلام:

«فَارْضَ بِهِ (النبي ﷺ) رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً»[١].

«يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، **وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ**، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، واسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ»[٢].

٦- ومن كتابه إلى محمد رضي الله عنه بن أبي بكر:

«وَلاَ تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ»[٣].

٧- وكتب إلى مالك الأشتر رضي الله عنه:

أ- «وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ»[٤].

---

(١) ك ٣١/ ٣٩٦.

(٢) ك ٣١/ ٣٩٧.

(٣) ك ٢٧/ ٣٨٤.

(٤) ك ٥٣/ ٤٢٩.

ب- «وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لله فِيهِ رِضىً»[١].

ج- «فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ»[٢].

٨- وقال في شأن قلب الإنسان وتقلباته:

«وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَى نَسِيَ التَّحَفُّظَ»[٣].

٩- «وَلاَ مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مَنَ الرِّضَى بِالْقُوتِ»[٤].

١٠- وقال في ذمّ الاختلاف وأهل الرأي:

«أَمْ أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى؟»[٥].

١١- وكتب إلى الحارث الهمداني:

«وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ، وَيُكْرَهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ»[٦].

---

(١) ك ٥٣ /٤٤٢.

(٢) ك ٥٣ /٤٢٨.

(٣) م ١٠٨ /٤٨٧.

(٤) م ٣٧١ /٥٤٠.

(٥) خ ١٨ /٦١.

(٦) ك ٦٩ /٤٥٩.

١٢- وعن الدنيا:

أ- «وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً»[(١)].

ب- «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَاباً لِأَوْلِيَائِهِ، وَلاَ عِقَاباً لِأَعْدَائِهِ»[(٢)].

١٣- «أَغْضِ عَلَى الْقَذَى وَالْأَلَمِ تَرْضَ أَبَداً»[(٣)].

«لاَ يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ»[(٤)].

١٤- وبعد...

عبودية الإمام ودعاؤه:

«اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ تَحْسُنَ فِي لاَمِعَةِ الْعُيُونِ عَلاَنِيَتِي، وَتَقْبُحَ فِيمَا أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي، مُحَافِظاً عَلَى رِيَاءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ مَا أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي، فَأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي، وَأُفْضِيَ إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إِلى عِبَادِكَ، وَتَبَاعُداً مِنْ مَرْضَاتِكَ»[(٥)].

«وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلاَّ فَضْلُكَ، وَلاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلاَّ مَنُّكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنَا فِي هذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الْأَيْدِي إِلى مَنْ سِوَاكَ، ﴿إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾»[(٦)].

---

(١) خ ٢٢٣ /١٤٥.

(٢) م ٤١٥ /٥٤٨.

(٣) م ٢١٣ /٥٠٧.

(٤) خ ١٢٩ /١٨٨.

(٥) م ٢٧٦ /٥٢٤.

(٦) خ ٩١ /١٣٦.

الفكر

«ولاَ عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ»[1].

«الْفِكْرُ مرْآةٌ صَافِيَةٌ»[2].

وبجلاله يسمو الإنسان، وبفضله يمتاز، أكمل هبة وأكرم منحة وهبها ومنحها الله كرّم بها بني آدم ونفخها من روحه فهي من عالم اللطائف والنفس الرحماني والملأ الأعلى.

«فَجَبَلَ مِنْها صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ ووُصُولٍ، وأَعْضَاءٍ وفُصُولٍ: أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، ومَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ»[3].

وكما هو ديدن الإمام وسجيته في استيفائه لما يُعنى بمعالجته فقد بث

---

(١) م ١١٣ /٤٨٨.

(٢) م ٥ /٤٦٩ و م ٣٦٥ /٥٣٨.

(٣) خ ١ /٤٢.

في متناثر خطبه وقصار كلمه نفائس فكره وذخائر هديه نقف على دقائق تلكم المعارف في مادة الفكر ومشتقاتها.

الله جل جلاله منزه عن الروية وإجالة الفكر:

«الْمُنْشِيءُ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا، وَلاَ قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلاَ تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ»[١].

«الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلاَ رَوِيَّةٍ وَلاَ ضَمِيرٍ»[٢].

«فَاعِلٌ لاَ بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لاَ بِجَوْلِ فِكْرَةٍ»[٣].

الله جل جلاله لا تدركه الأفكار:

«هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ، رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ، مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ الْاِعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ»[٤].

---

(١) خ ٩١ /١٢٧.

(٢) خ ٢١٣ /٢٣٠.

(٣) خ ١٨٦ /٢٧٢.

(٤) خ ٩١ /١٢٥-١٢٦.

«الْحَمْدُ لله الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، الْبَاطِنِ بِجَلاَلِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِلاَ اكتساب وَلاَ ازْدِيَاد، وَلاَ عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ»[١].

«وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ. **فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ** عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً»[٢].

«وَإِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً»[٣].

سليمو التفكير:

الملائكة الكرام:

«وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ[٤] بِرَيْنِهَا[٥] عَلَى فِكْرِهِمْ»[٦].

---

(١) خ ٢١٣ /٢٢٩.

(٢) خ ١٦٠ /٢٢٥.

(٣) خ ٩١ /١٢٧.

(٤) تقترع: من الاقتراع بمعنى ضرب القرعة.

(٥) الرين: الدنس وما يطبع على القلب من حجب الجهالة.

(٦) خ ٩١ /١٢٩.

والجملة من مقطع جليل -وكل خطبه جليلة- في وصف الملائكة وخلقهم وخلائقهم ووظائفهم، وهي عجيبة بديعة، فسبحان من وهبه فيض العلم وأقدره على كشف سره وإبراز مكنونه جوامع الكلم وفصل الخطاب فما أكمل الموهوب وأعظم الواهب.

الأولياء أهل الفكر:

«**وَمَا بَرِحَ لله -عَزَّتْ آلاَؤهُ- فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ،** فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقظَةَ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ الله، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ، مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ»[١].

المؤمن:

«بَعِيدٌ هَمُّهُ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ، مشْغولٌ وَقْتُهُ، شَكُورٌ صَبُورٌ، مغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ»[٢].

مواقع الفكر:

الإبداع في الخلق:

«انْظُرُوا إلى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ

---

(١) خ ٢٢٢/ ٣٤٢.

(٢) م ٣٣٣/ ٥٢٣.

بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إلى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا، لاَ يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلاَ يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أُكْلِهَا، وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ **بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ** يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ. وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلاَلَةُ إلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ»[1].

هدي النبي ﷺ:

«فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفْلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ مِمَّا لاَبُدَّ مِنْهُ وَلاَ مَحِيصَ عَنْهُ، وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذلِكَ إلى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ»[2].

نتائج الفكر وآثاره:

الاستقامة والسلامة:

«وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إلى الطَّرِيقِ،

---

(١) خ ١٨٥ /٢٧٠ـ٢٧١.

(٢) خ ١٥٣ /٢١٤.

وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ، وَالْأَبْصَارَ مَدْخُولَةٌ!»[١].

عبرة التاريخ:

«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، تَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ»[٢].

«واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ. فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ حَالَهُمْ، وَزَاحَتِ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الإِجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا. وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي. وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمحِيصِ وَالْبَلاَءِ»[٣].

«وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ،

---

(١) خ ١٨٥ /٢٧٠.

(٢) ك ٣١ /٣٩٣ـ٣٩٤.

(٣) خ ١٩٢ /٢٩٦.

وَالْإِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذلِكَ إلى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، والْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا»[١].

«فَإِنَّ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ وَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَّطَ، والْإِمْسَاكُ عَنْ ذلِكَ أَمْثَلُ»[٢].

الجنة ونعيمها:

«فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إلى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصطفاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ. فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إلى مَا يَهْجُمُ

---

(١) ك ٣١ /٣٩٤_٣٩٥.

(٢) ك ٣١ /٣٩٥.

عَلَيكَ مِنْ تِلْكَ المَنَاظِرِ المُونِقَةِ، لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هذَا إلى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا. جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إلى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ»[١].

فصل من خطبة غراء حفلت ببيان صفات المتقين والفاسقين وموقع عترة النبي وكمالهم وأنهم الحجج على الخلق وشطر من خلاله وخصاله **ودوره في هداية الأمة بعلمه وخلقه -صلى الله على كمالاته.**

وأعيد هنا ما قلته عن حديثه ﷺ عن الملائكة وتلكم إنباءات غيب خُصّ بها فما أجل مواهبه التي لا تحصى.

«مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ»[٢].

«رَحِمَ اللهُ امْرَأً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، واعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ»[٣].

«فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ»[٤].

«فَاتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ»[٥].

دين الله لا يصاب بالعقول:

«فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ

---

(١) خ ١٦٥ /٢٣٩.

(٢) ك ٣١ /٤٠٢.

(٣) خ ١٠٣ /١٤٩.

(٤) خ ١٥٣ /٢١٣.

(٥) خ ٨٣ /١١١.

الْفِكَرُ»[١].

ولات ساعة فكر:

«اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ. ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ، **عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ** أَمْوَالاً جَمَعَهَا، أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا»[٢].

---

(١) خ ٨٧ / ١٢٠.

(٢) خ ١٠٩ / ١٦٠.

العقل

«إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وأَكْبَرُ الحُمْقِ الجَهْلُ»[1].

«لاَ غِنَى كَالْعَقْلِ، وَلاَ فَقْرَ كَالجَهْلِ»[2].

«وقيل له عليه السلام: صف لنا العاقل. فقال عليه السلام: هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ. فقيل: فصف لنا الجاهل. قال: قَدْ فَعَلْتُ»[3].

والعقل قوام الإنسان، وجوهره الفريد، وبه امتاز عن سواه، ولولاه لفضل عليه غيره بما أودع فيه من قوى.

والعقل يمثل الركيزة الأولى في إدراك الحقائق، والبرهان على إثبات العقائد والتمييز بين الحق والباطل.

ومن ثمّ كانت له المنزلة الأسمى فقال عنه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله:

---

(١) م ٣٨ /٤٧٥.

(٢) م ٥٤ /٤٧٨.

(٣) م ٢٣٥ /٥١٠.

«والعقل أصل ديني»[١]، كما وصف بأنه: «حجة باطنة»[٢].

وأنه مركز (الأمر والنهي) ومعقد (الثواب والعقاب)[٣].

والإمام عليه السلام بثّ في كلمه حديثاً مستفيضاً حول (العقل) ودوره وإعماله وإهماله وآفاته التي تميته وتودي به.

نقف على ذلك في استقرائنا والتقاطنا لدرره وغرره من (نهجه) - صلوات الله وسلامه عليه.

واهب العقل لا تدركه العقول:

«لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، ولَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ»[٤].

فالعقل وإن كان مظهر الإبداع وقمة الاختراع إلا أنه الممكن الموهوب فأنّى له الإحاطة بواجب الوجود، والوقوف على حدود صفاته،

أجل اقتضت حكمته أن يفسح له طرفاً يدرك به العقل خالقه،

---

(١) مستدرك الوسائل ١١ /١٧٣.

(٢) عن الإمام الكاظم عليه السلام: "يا هشام، إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول" الحدائق الناضرة ١ /١٣٠.

(٣) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي: إن أول خلق خلقه الله عز وجل العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب. من لا يحضره الفقيه ٤ /٣٦٩.

(٤) خ ٤٩ /٨٨.

ويذعن لفاطره.

وما أجمل هذه الموازنة، وأبلغ المقارنة لم يطلع، ولم يحجب .

«وَلاَتُقَدِّرْ عَظَمَةَ الله سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ. هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتِ الْأُوهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، وَحَاوَلَ الْفِكْرُ الْمُبَرَّأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمَ ذَاتِهِ، رَدَعَهَا وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ الْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ -سُبْحَانَهُ- فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ، مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ الْإِعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أُولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ...

وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتبُوعِينَ إِذْ يَقُولُونَ: ﴿تَالله إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ، إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَامِهِمْ وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّأُوكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى، بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ...

وَإِنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا فَتَكُونَ مَحْدُوداً مُصَرَّفاً»(١).

«الْحَمْدُ لله الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إلى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! هو اللهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ،

(١) خ ٩١ /١٢٥-١٢٧.

أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً»[١]

وقال ضمن توصيفه العجيب لخلقة الطاووس:

«فَكَيْفَ تَصِلُ إلى صِفَةِ هذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ! **وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ** جَلاَّهُ لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً»[٢].

وقال في عجز الخلق عن إحداث شيء من الخلق:

«وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، ومَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلاَ عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إلى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذلِكَ وَتاهَتْ، وَعَجِزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إفْنَائِهَا!»[٣].

«وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ،

---

(١) خ ١٥٥ /٢١٦_٢١٧.

(٢) خ ١٦٥ /٢٣٨.

(٣) خ ١٨٦ /٢٧٥.

وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً»[١].

«بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ»[٢].

وليس هذا الظهور بمدرك على حقيقته وكنهه بل بما تعلق بالفعل (ظهر)، وهو بما أرانا من علامات، وقد قرر عليه السلام **أن** هذه المشاهدة للمخلوق المعاين المحسوس الملموس لم تمكن من القدرة على وصفه فضلاً عن الإحاطة به وإدراك حقيقته، فهي عن إدراك الخالق المتعال أضعف قدرة وأكثر عجزاً.

وعلى هذا النحو جاء قوله عليه السلام:

«لاَ يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْآلاَتُ إِلى نَظَائِرِهَا، مَنَعَتْهَا (مُنْذُ) الْقِدْمَةَ، وَحَمَتْهَا (قَدُ) الْأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا (لَوْلاَ) التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ»[٣].

«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلاَلِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ

---

(١) خ ١٦٠ /٢٢٥.

(٢) خ ١٨٢ /٢٦١.

(٣) خ ١٨٦ /٢٧٣.

صِفَتِهِ»[١].

وحتى الملائكة:

«بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ[٢]، **مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُوالْهَيْئَاتِ وَالْأَدوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ. فَلاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ**»[٣].

كاملو العقل:

الملائكة:

«لاَ يَغْشَاهُمْ نَوْمُ العُيُونِ، وَلاَ سَهْوُ العُقُولِ، وَلاَ فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ، ولاَ غَفْلَةُ النِّسْيَانِ»[٤].

الأنبياء:

«وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ[٥] أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ، واتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقتَطَعَتْهُمْ

---

(١) خ ١٩٥ /٣٠٨.

(٢) الْمُرْجَحِنّ: كالْمُقْشَعِرّ المائل لثقله والمتحرك يميناً وشمالاً.

(٣) خ ١٨٢ /٢٦٢.

(٤) خ ١ /٤١.

(٥) آدم عليه السلام.

عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَـرَ إِلَـيْهِمْ أَنْبِيـاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَـاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّـوا عَلَـيْهِمْ بِـالتَّبْلِيغِ، وَيُثِـيرُوا لَهُـمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»[١].

آل محمد صلوات الله عليهم:

«عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لاَ عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَـةٍ. فَـإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ»[٢].

«وَمَـا بَـرِحَ لله -عَـزَّتْ آلاَؤُهُ- فِي الْبُرْهَـةِ بَعْـدَ الْبُرْهَـةِ، وَفِي أَزْمَـانِ الْفَتَرَاتِ، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِى فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَـصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْئِـدَةِ، يُـذَكِّرُونَ بِأَيَّـامِ الله، وَيُخَوِّفُـونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ»[٣].

والمقطع من كلام له عليه السلام قال عند تلاوته: ﴿يُسَبِّحُ لَـهُ فِيهَـا بِالْغُـدُوِّ وَالآصَالِ ۞ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله﴾.

والنص وإن لم يكن معنوناً بـ (آل محمد) إلا أنهـم مـصداقه الأكمـل إن لم يكن المنفرد، فهم هداة السادة وسادة الهداة.

والتأمل في مفردات كلامه عليه السلام ولا سيما في: «نَاجَـاهُمْ فِى فِكْـرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ» يؤكد ويحـدد أنهـم المعنيـون أولاً بالـذات، وإن يكن ثمت سواهم فبالتبع والاقتداء.

---

(١) خ ١ /٤٣.

(٢) خ ٢٣٩ /٣٥٨.

(٣) خ ٢٢٢ /٣٤٢.

الإمام علي عليه السلام:

«مَا لِعَلِيّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَى! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ»(١).

«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يُصبِحْ بِي مَيِّتاً... وَلاَ مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي، وَلاَ مُنْكِراً لِرَبِّي، وَلاَ مُسْتَوْحِشاً مِنْ إيماني، وَلاَ مُلْتَبِساً عَقْلِي»(٢).

السالك إلى الله:

«قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ... وَبَرَقَ لَهُ لاَمِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إلى بَابِ السَّلاَمَةِ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ»(٣).

التقيّ المراقب:

«فَاحْذَرُوا، عِبَادَاللهِ، حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ»(٤).

فاعتدّ الإمام عليه السلام الناظر بعقله ممن وعى واتقى، فهو دليل كمال عقله، وسيماء شرفه وفضله.

---

(١) خ ٢٢٤ /٣٤٦.

(٢) خ ٢١٥ /٣٣٢، وهو من جملة دعاء كان عليه السلام يدعو به كثيراً.

(٣) خ ٢٢٠ /٣٣٧.

(٤) خ ١٦١ /٢٣١.

أصناف من لا يعقلون وضعاف العقول:

أهل الجاهلية:

«وَلاَ تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ: لاَ فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلاَ عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ، كَقَيْضِ(١) بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ(٢) يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً»(٣).

معاوية:

«وَإِنَّكَ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ الْأَغْلَفُ الْقَلْبِ، الْمُقَارِبُ(٤) الْعَقْلِ»(٥).

«وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ، إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّى؛ فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ! وَالسَّلاَمُ»(٦).

المتخاذلون عن الجهاد:

---

(١) القيض: القشرة العليا اليابسة على البيضة.

(٢) الأداحي: جمع أُدْحِيّ ـ كلُجِّي ـ وهو مبيض النعام في الرمل تدحوه برجلها لتبيض فيه.

(٣) خ ١٦٦ /٢٤٠.

(٤) المقارب: الناقص الضعيف، كأنه يكاد يكون عاقلاً وليس به عقل.

(٥) ك ٦٤ /٤٥٥.

وجاء في الكافي ١ /١١: عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ما العقل؟ قال: ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان، قال: قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء! تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل.

(٦) ك ٦ /٣٦٧.

«يَـا أَشْـبَاهَ الرِّجَـالِ وَلاَ رِجَـالَ! حُلُـومُ الأَطْفَـالِ، وَعُقُـولُ رَبَّـاتِ الحِجَالِ»[١].

«أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الـدُّنْيَا مِـنَ الآخِـرَةِ عِوَضاً؟ وَبِالذُّلِّ مِـنَ الْعِـزِّ خَلَفـاً؟ إِذَا دَعَـوْتُكُمْ إلى جِهَـادِ عَـدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ المَوْتِ فِي غَمْـرَةٍ، وَمِـنَ الـذُّهُولِ فِي سَـكْرَةٍ، يُـرْتَجُ[٢] عَلَـيْكُمْ حَـوَارِي[٣] فَتَعْمَهُـونَ[٤]، فَكَـأَنَّ قُلُـوبَكُمْ مَأْلُوسَـةٌ[٥]، فَـأَنْتُمْ لاَ تَعْقِلُونَ»[٦].

وفي أهل البصرة بعد وقعة الجمل:

«أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ المَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ السَّماءِ، خَفَّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لِآكِلٍ، وَفَرِيسَةٌ لِصائِلٍ»[٧].

وفي مخالفي أمره المتقاعدين عن نصرته:

«أَيُّهَـا الْقَـوْمُ الـشَّاهِدَةُ أَبْـدَانُهُمْ، الْغَائِبَـةُ عَـنْهُمْ عُقُـولُهُمْ، الُمخْتَلِفَـةُ أَهْوَاؤُهُمْ، المُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ... يا أَشْبَاهَ الإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا!»[٨].

---

(١) خ ٢٧ /٧٠.

(٢) يرتج: يغلق.

(٣) الحَوار ـ بالفتح وربما كسر ـ: المخاطبة ومراجعة الكلام.

(٤) العمه: الحيرة والتردد.

(٥) المألوسة: المخلوطة بمس من الجنون.

(٦) خ ٣٤ /٧٨.

(٧) خ ١٤ /٥٦.

(٨) خ ٩٧ /١٤٢.

عشاق الدنيا:

«أَوَلَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ، وَفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ!»(١).

«وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلاَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ لَكَ نَفْسَهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ(٢) بَعْضُهَا بَعْضاً، يَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ(٣)، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، رَكِبَتْ مَجْهُولَهَا، سُرُوحُ عَاهَةٍ(٤) بِوَادٍ وَعْثٍ(٥)، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلاَ مُسِيمٌ(٦) يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا»(٧).

النساء:

---

(١) خ ٩٩ /١٤٥.

(٢) يهر: يعوي وينبح.

(٣) النعم: الإبل.

معقلة: من عَقَلَ البعير إذا شد وظيفه إلى ذراعه.

(٤) سروح: المال السارح السائم من إبل ونحوها.

العاهة: الآفة أي أنهم يسرحون لرعي الآفات.

(٥) الوعث: الرخو يصعب السير فيه.

(٦) المُسِيم: من أسام الدابة، يسيمها: مَنْ يسرِّحها إلى المرعى.

(٧) ك ٣١ /٤٠٠ـ٤٠١.

«إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمانِ، نَوَاقِصُ الْحُظُوظِ، نَوَاقِصُ الْعُقُولِ: فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ مِنْهُنّ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْإِنْصَافِ مِنْ مَوارِيثِ الرِّجَالِ؛ فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلاَتُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لاَ يَطْمَعْنَ فِي الْمُنكَرِ»[1].

«ولاَ تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذىً، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى والأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ[2] أَوِ الْهِرَاوَةِ[3] فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ»[4].

إضاءة:

المقطع الأول «إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمانِ» كان من خطبة خطبها عليه السلام بعد فراغه من حرب الجمل.

والمقطع الثاني «ولاَ تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذىً» كان قبل لقائه عدوه بصفين، فلهما ارتباط بالحرب قبل وبعد.

أ) وقد كان للمرأة في المعركة الأولى الدور القيادي، (فعائشة) ربة

---

(١) خ ٨٠ /١٠٥ـ١٠٦.

(٢) الفَهْرُ: الحجر على مقدار ما يُدَقُّ به الجوز أو يملأ الكف.

(٣) الهراوة: العصا أو شبه المقمعة من الخشب.

(٤) ك ١٤ /٣٧٣.

الجمل ولها أنصار من شاكلتها من النساء، وأتباع من الرجال تربطها وبعضهم وشيجة القربى، وفيهم من غيرهم من صحبوا رسول الله ﷺ وعاشوا حياته دهراً.

وقد غصّ التاريخ بما أفرزته تلكم الوقعة من فجائع وفضائع وعداء وتحزّب وولاء.

وقد تجلى في ذلكم الخطب ما يحمله ابن أبي طالب عليه السلام من ملكات وخلائق، وكلها فرائد من مواهبه وامتيازاته.

وقد حكى بعض ما جرى، كما حكى خلقه الأعلى قوله عليه السلام:

«وَأَمَّا فُلاَنَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللهِ تَعَالَى»[١].

فلا غرو لو جهر الإمام وأعلن للملأ رأيه في خلل القيادة التي عصفت بالأمة فألقتها في حرب أتت على أخضرها ويابسها.

وإذا ما صنفنا كلم الإمام ألفيناه يدور في محاور تولى عليه السلام شرحها وإيضاحها.

١) نقص الإيمان:

وليس الحديث عن الإيمان بالله ودينه، وإنما عن أمر عارض به خُصِصْنَ، وقضت به طبيعتهن، فهن آنذاك لا يقمن بأداء الفريضتين،

---

(١) خ ١٥٦ /٢١٨.

وتلك حقيقة قائمة.

٢) نقص العقل:

وقد تمثل أيضاً في أمر شرعي يعود كذلك إلى طبيعة نوعية في المرأة أو هو نتيجة **الإذعان إلى حكم الخالق الحكيم المبدع الذي فاوت بين الصنفين كما فاوت في مواطن قبول شهادتين وردها وأنحاء ذلك مما أملته الشريعة من أحكام في هذا الشأن.**

وليس القصد -و الله أعلم- أن كل رجل أكمل عقلاً وأتم ذكاءً من كل امرأة.

٣) نقص الحظوظ:

فعلى شاكلتهما، وقد جرى تقسيم مواريثهن من لدن شرع ذلك لهن، كما مايز بينهن وبين الرجال في كثير من التشريعات والأحكام فألقى بثقل المرأة الزوجة في نفقاتها على الرجل الزوج.

وقد عُني الباحثون بدراسة ذلك وتحليله ومقارنته فتجلى لهم دقة تشريع العليم الحكيم.

ومنطق المؤمن من منطلقه بالتسليم المطلق لمن خلق الطبيعة ووضع الشريعة فهو الحكم العدل والحكيم الرحيم والمربي القويم سواء لاح لنا من وجهه الحكمة أو بارق لامع.

وبعد...

فالإمام عليه السلام في تلكم الشؤون حاكٍ لحكم الله، ومبلغٌ لقوله، أمين.

٤) شرارهن:

كما يتقى شر الرجال، وقد تفقأت (الجمل) شرًّا في العسكر[1] وقيادته.

٥) خيارهن:

وليس في الأمر أو النهي إلا الحذر، وهو الإشارة إلى الحيطة، وإلفات إلى الإلتفات إلى بواعث ونوازع الخيار فربما اختلط عليهن الواقع فحسبن ما ليس بخير خيراً، وما ليس بصلاح صلاحًا.

والنص يحمل في طياته وصفاً لهن بالخير، وإن نص على الحيطة، فمن سلكه فليس بناكب عن الصراط.

ومن الدقة والانضباط عدم الانسياق إلى طاعة (خيارهن) ولو قلن معروفاً فيسترسلن في الأمر والنهي، ولا يعني ذلك ترك المعروف وتعطيله، وإنما التنبيه على تحكيمهن وإيكال الأمر إليهن.

وما ذلك كله إلا أن المرأة بطبع تكوينها مخلوق لطيف تطفح في دنياه العواطف، وتغلب عليه الرقة فيتقهقر العقل ويضعف أمام ذلك.

وهذه الجِّبلة موظفة لما ينسجم وطبيعتها، وما أعدت تكويناً لأجله ومن ثم فهي تقوى في ذلك عمّا يضعف عنه الرجل.

وبعد...

فالإمام عليه السلام انطلق في فكره وقوله من علمه بحقائق التكوين

---

(١) و(عسكر) اسم الجمل المشؤوم.

والتشريع ولم يكن باعث القول حول المرأة موقفه من عائشة وإن كان ذلك داعياً.

هذا ويجب أن لا نغفل قوانين الدين وتشريعاته ومقاييس التفاضل في الإيمان والعمل ومكافأة الأعمال سيان في ذلك الذكر والأنثى.

فليس في شرعة الحق ودستور العدل إكرام للرجل لإنه رجل، وتوهين للمرأة لأنها امرأة، إن ذلك بخس وغمط للحق، وضلال مبين.

وحياة البشر تكشف تفاوتهم وتمايزهم وإمتيازهم، وما أعظمه مقياساً، وأجله نبراسًا قول الحق -جل وعلا-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

ب) وأما النص الثاني فهو الحث على الإرفاق ومنطلقه الاشفاق، وباعثه اللطف بالنساء ومعاملتهن بالحسنى وإن أسأن وأثرن الحفائظ بشتم الأعراض وسب الأمراء، فإنه ينطلق من ضعف القوى، ووهن الأنفس، وغلبة العاطفة على العقول.

ويتسامى النص في روحه، ويتعالى في جوهره فيقرر بأن الإسلام أمر بالكف والإعراض والتجاوز عنهن، وهن مشركات، فكيف بالمسلمات حتى لو تجاوزن الحدود، وغلبتهن العواطف.

ويقرر ويعمق ركيزة العفو والصفح عنهن بنحو لا يجوز إغفاله فله

---

(١) سورة الحجرات /١٣.

سلبياته الإجتماعية حيث يلحق العار وسوء الذكر لمن خالفه بل ويمتد إلى عقبه فيبقى وصمة عار وتبعة تبقى في العقب والأجيال.

وبعد...

فإن من الضروري لمعالجة أي موضوع إستقراء كامل نصوصه ودراسة ركائزه ومنطلقاته وسائر ملابساته حتى نقف على الحقيقة فيه، ولا يتأتى مثل ذلك بدراسة جزئية وإغفال أخرى.

وعلى هذا الهدي تقرأ النصوص الأخرى كالتي وردت في وصية الإمام لابنه الحسن الإمام عليهما السلام[1].

اقتضاء التركيبة:

«إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِىءُ طِينِهِمْ، وَذلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وعَذْبِهَا، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلاَفِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ[2] نَاقِصُ الْعَقْلِ»[3].

آفات العقل وعوامل نقصه:

الأمل:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ»[4].

---

(١) في ظلال نهج البلاغة ٣١ /٤٠٥ تحت عنوان: الرأي في المرأة.

(٢) الرواء: حسن المنظر.

(٣) خ ٢٣٤ /٣٥٤-٣٥٥.

(٤) خ ٨٦ /١١٨.

الهوى:

«قَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ»(١).

«إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ شَهِدَ عَلَى ذلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عَلاَئِقِ الدُّنْيَا»(٢).

«وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ!»(٣).

العشق:

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْن غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُن غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ»(٤).

«قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، ورَكِبَتْ مَجْهُولَهَا»(٥).

«مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا، يَهْوِي إِلَيْهَا الْغِرُّ الْجَاهِلُ، وَيَحْذَرُهَا ذُواللُّبِّ الْعَاقِلُ!»(٦).

الخمر:

«وَتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ»(٧).

---

(١) م ٤٢٤ /٥٥١.

(٢) ك ٣ /٣٦٥.

(٣) م ٢١١ /٥٠٦.

(٤) خ ١٠٩ /١٦٠.

(٥) ك ٣١ /٤٠٠.

(٦) م ١١٩ /٤٨٩.

(٧) م ٢٥٢ /٥١٢.

الفقر:

«يَا بُنَيَّ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْه، فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ!»[١].

العُجب:

«عُجْبُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ»[٢].

المزاح:

«مَا مَزَحَ امْرُؤٌ مَزْحَةً إِلاَّ مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةً»[٣].

العصبية:

«فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلاَّ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلاَءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ[٤] بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلاَ عِلَّةٌ»[٥].

إطاعة الكبراء:

«وَلاَ تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ... اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَلٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ،

---

(١) م ٣١٩ / ٥٣١.

(٢) م ٢١٢ / ٥٠٧.

(٣) م ٤٥٠ / ٥٥٥.

(٤) تليط: تلصق.

(٥) خ ١٩٢ / ٢٩٥.

وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِىءَ قَدَمِهِ، وَمأْخَذَ يَدِهِ»[١].

اقتفاء الأولياء:

«نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ، وَلاَ تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلاَّ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً. منها: فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمنِ، إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا. فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ»[٢].

الآثار إيجاباً وسلباً:

النعمة بالإسلام:

«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلاَمَ... فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ... وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ»[٣].

«فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ. فَلْيَفْعَلْ»[٤].

التأمل في حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِىءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا:

---

(١) خ ١٩٢ /٢٩٠.

(٢) خ ١٥٤ /٢١٥.

(٣) خ ١٠٦ /١٥٣.

(٤) خ ١٥٦ /٢١٨.

إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّداً بِذلِكَ أَمْ أَهَانَهُ!»[١].

«وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ مِمَّا لاَبُدَّ مِنْهُ وَلاَ مَحِيصَ عَنْهُ، وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذلِكَ إلى غَيْرِهِ»[٢].

الاعتبار بالموت والنشور:

«**وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ... فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ**، وَكَفَى بِذلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ!»[٣].

«وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ (الماضون)، وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ... فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلاَقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلاَ أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلاَ قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ»[٤].

وهي من كلامه عليه السلام قاله بعد تلاوته: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۞ حَتَّى

---

(١) خ ١٦٠ /٢٢٨ـ٢٢٩.

(٢) خ ١٥٣ /٢١٤.

(٣) خ ١٩٠ /٢٨١.

(٤) خ ٢٢١ /٣٤٠.

زُرْتُمُ المَقَابِرَ﴾.

وقد مرّ ذكر كلام ابن أبي الحديد صدر شرح هذه الخطبة[١].

ولله ابن أبي طالب ومواهبه وعجائبه فقوله أجل من أن يوصف بالبديع البليغ، بل هو المعجز، فليتأمل ذو اللب في مادتها وهيئتها وأهدافها وعلو مقامها، وسموها من سمو قائلها.

الناصح الأمين:

«لَيْسَتِ الرَّوِيَّةُ كَالمُعَايَنَةِ مَعَ الْإِبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلاَ يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ»[٢].

المنقذ:

«مَا اسْتَوْدَعَ اللهُ امْرَأً عَقْلاً إِلاَّ اسْتَنْقَذَهُ بِهِ يَوْماً مَا!»[٣].

«كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ»[٤].

استخلاص ثمرة العقول:

«ومَنْ شَاوَرَ الرِّجالَ شارَكَها في عُقُولِها»[٥].

الاستجابة للآداب:

---

(١) ص٩١، عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١ /١٥٢_١٥٣.

(٢) م ٢٨١ /٥٢٥.

(٣) م ٤٠٧ /٥٤٨.

(٤) م ٤٢١ /٥٥٠.

(٥) م ١٥١ /٥٠٠.

«وَلاَ تَكُونَنَّ مِمَّنْ لاَ تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلاَّ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلاَمِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَبِ، وَالْبَهَائِمَ لاَ تَتَّعِظُ إِلاَّ بِالضَّرْبِ»[١].

صيانة السر:

«صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ»[٢].

الحذر من الدنيا:

«مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا، يَهْوِي إِلَيْهَا الْغِرُّ الْجَاهِلُ، وَيَحْذَرُهَا ذُواللُّبِّ الْعَاقِلُ!»[٣].

الدنيا: «فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ، بِيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ، وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ»[٤].

العناية بما يهم:

«وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ: مَرَمَّةٍ[٥] لِمَعَاشٍ، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ[٦]، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»[٧].

وما أخصرها وأخطرها من حكمة جامعة بالغة، فالمؤمن يستهلك

---

(١) ك ٣١ /٤٠٤.

(٢) م ٦ /٤٦٩.

(٣) م ١١٩ /٤٨٩.

(٤) خ ٦٣ /٩٤.

(٥) المرمة: الإصلاح.

(٦) المعاد: ما تعود إليه في يوم القيامة.

(٧) م ٣٩٠ /٥٤٥.

أيامه في سعيه لتدبير معاشه غير غافل عن معاده وما يقربه من ربه، مبـدداً ما يعرضه من سأم الكدح وعناء العمل بما يروحه مـن لهـو محلـل ولذائـذ مباحة تهواها نفسه وتجمُّ خاطره.

التعلق بالمقدسات وشريف الفضائل:

القرآن الكريم:

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُـوراً لاَ تُطْفَـأُ مَـصَابِيحُهُ، وَسِرَاجـاً لاَ يَخْبُـو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجاً لاَ يُضِلُّ نَهْجُـهُ، وَشُـعَاعاً لاَ يُظْلِـمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَانـاً لاَ تُهْـدَمُ أَرْكَانُـهُ... وَحَـبْلاً وَثِيقـاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ»(١).

التقوى:

«فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقـاً عُرْوَتُـهُ، وَمَعْقِـلاً مَنِيعـاً ذِرْوَتُهُ»(٢).

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ، بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ... تَـؤُولُ بِكُـمْ إلى أَكْنَانِ الدَعَةِ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ، وَمَنَازِلِ الْعِزِّ»(٣).

«أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللاَّمِحَةُ إلى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ للهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ!»(٤).

---

(١) خ ١٩٨ /٣١٥_٣١٦.

(٢) خ ١٩٠ /٢٥١.

(٣) خ ١٩٥ /٣٠٩.

(٤) خ ١٤٤ /٢٠١.

الورع:

«وَلاَ مَعْقِلَ أَحْصَنَ مِنَ الْوَرَعِ»[١].

قبول النصح:

«أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إلى الْإِسْلاَمِ فَقَبِلُوهُ؟ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ؟ ...

وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»[٢].

الإفادة من التجارب:

«وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ»[٣].

حفظ اللسان:

«إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلاَمُ»[٤].

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ»[٥].

«لَسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ»[٦].

التأمل والرعاية:

---

(١) م ٣٧١ /٥٤٠.

(٢) خ ١٢١ /١٧٧ـ١٧٨.

(٣) ك ٣١ /٤٠٢.

(٤) م ٧١ /٤٨٠.

(٥) م ٤٠ /٤٧٦.

(٦) م ٤١ /٤٧٦.

«اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لاَ عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ»[1].

أجل ما يملك:

«إِنَّ أَغْنَى الْغِنَىُ الْعَقْلُ»[2].

«لاَ مَالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ»[3].

«لاَ غِنَى كَالْعَقْلِ»[4].

جميل التصرّف:

«وَلاَ عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ»[5].

حسن المرونة:

«التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ»[6].

دقة اختيار الرسول:

«رَسُولُكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ»[7].

---

(١) م ٩٨ /٤٨٥.

(٢) م ٣٨ /٤٧٥.

(٣) م ١١٣ /٤٨٨.

(٤) م ٥٤ /٤٧٨.

(٥) م ١١٣ /٤٨٨.

(٦) م ١٤٢ /٤٩٥.

(٧) م ٣٠١ /٥٢٨.

الترغيب في قرب العاقل:

«وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ»[١].

الإفادة من التجارب:

«والعَقْلُ حِفْظُ التَّجارِبِ»[٢].

---

(١) ك ٣١ /٤٠٢.

(٢) ك ٣١ /٤٠٢.

وأما الآثار السلبية فقد مضى في الحديث عن ضعاف العقول ومن لا يعقلون كثير منها، ونضيف هنا نبذة أخرى تكمل ما مضى فتجتمع بذلك الآثار وتنتظم السلبيات.

عدم اليقظة والاستغفال:

«وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، وَلكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ![1] أَعَنْ دِينِ الله أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُوجِنَّة، أَمْ تَهْجُرُ؟ وَالله لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا، مَا لِعَلِيّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَى! نَعُوذُ بِالله مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ»[2].

والمقطع بل والخطبة جديرة بعميق الفكر والنظر ففيها الإيقاظ للدقيق من خبيث الحيل وموجبات الإغراء والإنخداع حيث يجعل الدين حبالة للدنيا فيؤسر العقل ويستمال، والمفزع الملجأ والمنجى بالاعتصام بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والاستعاذة به سبحانه من الغواية والردى فإنه الموفق المعين للرشاد والهدى.

---

(١) هبلتك: ثكلتك.

الهَبول: المرأة لا يعيش لها ولد.

(٢) خ ٢٢٤ /٣٤٧.

الشقاء في إهمال العقل:

«فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ»(١).

الفقر المدقع:

«وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ»(٢).

العجب المردي:

«عُجْبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ»(٣).

وبعد...

فهذه جولة رائعة ممتعة، ورؤى واسعة في آفاق (العقل) ودوره وعظيم خطره وما يبقي جذوته، ويخمد توهجه وشعلته، ومدى تفاوت البشر إعمالاً وإهمالاً ومكاسب وخسائر.

ولنختم الحديث فيه بما جهر به عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد مقتل عثمان، وقد أنبأ في ذلك بمشروعه وسياسة حكمه، وإقامة أمره وأمر الرعية على جادة الحق -و الحق مر- والهدى -والضال كثر.

فقال -صلوات الله على روحه وعقله-:

«دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي؛ فإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَـهُ وُجُوهٌ وَأَلْـوَانٌ؛ لاَ تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ

---

(١) ك ٧٨ /٤٦٦.

(٢) م ٣٨ /٤٧٥.

(٣) م ٢١٢ /٥٠٧.

قَدْ تَنكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إلى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ؛ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[1].

(١) خ ٩٢ /١٣٦.

الهيبة

١) المولى الحق هو المهاب حقاً:

أ- الملائكة:

«وَلا سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَا لاقَ[1] مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلالَتِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ»[2].

فقد تغلغلت عظمة الله ﷻ ونفذت وانبثت في ثنايا صدورهم حتى استقرت وتبوأتها سكناً واتخذته موطناً لا تبغي به بدلاً ولا عنه متحولاً.

ب- الكون خاضع لجلاله:

دنياً:

«وَكَانَ مِن اقتدار جَبَرُوتِهِ وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ يَبَساً جَامِداً ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ وَأَرْسَى أَرْضاً

---

(١) لاق: لصق.

(٢) خ ٩١ /١٢٩.

يَحْمِلُهَا الأَخْضَرُ المُثْعَنْجِرُ وَالقَمْقَامُ[١] المُسَخَّرُ قَدْ ذَلَّ لامْرِهِ وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ وَوَقَفَ الجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ»[٢].

وآخرة:

«**أَمَادَ السَّماءَ وَفطَرَهَا وَأَرَجَّ الأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا وَقَلَعَ جِبالَهَا وَنَسَفَهَا وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلالَتِهِ وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ**»[٣].

وقد جمع المقطع الشريف بلاغة التعبير ودقة التصوير، على نهج القرآن معنىً وانتزاع لفظ.

٢) عز الإسلام للداخلين فيه:

«وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ الله تَعَالَى لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَلا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ وَيَهَابُكُمْ مَنْ لا يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً وَلا لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ»[٤].

٣) ومن خطط الحرب:

أ- «فَإِذَا لَقِيتَ العَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً وَلا تَدْنُ مِنَ القَوْمِ

---

(١) الأخضر، والقمقام: البحر.

المُثْعَنْجِرُ: معظم البحر وأكثر مواضعه ماء.

(٢) خ ٢١١ /٣٢٨.

(٣) خ ١٠٩ /١٦١.

(٤) خ ١٠٦ /١٥٤.

دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ وَلا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ»[١].

ب- «وَإِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرْقِيسِيَا[٢] وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ لَيْسَ بِهَا مَنْ يَمْنَعُهَا وَلا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا لَرَأْيٌ شَعَاعٌ[٣] فَقَدْ صِرْتَ جِسْراً لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ غَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ وَلا مَهِيبِ الجَانِبِ»[٤].

٤) من آثار الصمت:

«بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الْهَيْبَةُ»[٥].

فالصمت حكمة، وأثره يتجلى فيمن يتحلى به، فيعلوه وقار، وتحوطه مهابة، يحتشمه لأجلها جليسه ومحدثه.

٥) الإقدام والإحجام:

أ- «إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فِيهِ فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ»[٦].

فالحيرة وخوف المستقبل باعثا القلق، ومعوقا النجاح، وقاطعا الأمل، ومعطلا العمل، وهذه سلسلة علل تشل الحياة، وأدواء تفتك

---

(١) ك ١٢ /٣٧٢.

(٢) قِرْقِيسِيَا: بلد على الفرات.

(٣) شَعاع: متفرق.

(٤) خ ٦١ /٤٥٠.

(٥) م ٢٢٤ /٥٠٨.

(٦) م ١٧٥ /٥٠١.

بالمبتلى، وبالإِقدام تتبدد الأوهام.

ب- «قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ»[١].

فبالإحجام يفوت المؤمل، ويضيع سانح الفرصة، ويذهب الأمر غير متدارك.

---

(١) م ٢١ /٤٧١.

الحياء

«لا إيمان كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ»[1].

وهو خلق كريم في ذاته، حاكٍ عن سمات من يتصف به.

ومن الطبيعي أن يكون اتصاف الخلق بـالجمال، مـادام منطلقـاً مـن مركزه، متحركاً في فلكه، غير خارج عن دائرته، فإذا ما اختلفت الأحوال، وتبدلت الأوضاع، تغيرت أساليب العمل، وحملت على معالجـة الحـاضر، بما يصلحه.

وفي هدي إمام الحكماء ونهج سيد الأولياء مايبصرنا سـواء الـسبيل، ويبصّرنا ويهدينا النجدين، ويحملنا على الجادة.

وعلى نسق ما جرينا عليه من تتبع كلماته وإشاراته، واقتفاء خطواتـه أينما توجه، وحيثما قصد.

(١) م ١١٣/ ٤٤٨.

١) مقياس الانضباط الدقيق:

«واحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ في السِّرِّ، ويُسْتَحَى مِنْهُ في العَلانِيَةِ»[١].

وهنا يسبق التأمل، ويُعمل الفكر قبل الإقدام على العمل، بل ويبدأ النظر في ذات الفعل أولاً فإن كان مما لايصح أن يقدم عليه فليبق طي الكتمان وإن جاز فعله جهراً وممارسته علناً فشأنه به سراً، فليس ثمة ما يُخشى لو أزيح الستر وانكشف الغطاء.

هذا ومن شأن مايتخفى منه أن يظهر على صفحة الوجه وفلتات اللسان، واطلاع ذوي الفضول على العورات.

والعاقل الناظر أملك بفعله قبل أن يفعله، وبعد ذلك يفلت الزمام من يده، فيبقى قلقاً والقلق يساوره ويعاوده مترقباً راجياً أن لا يطلع على أمره أحد.

والحق إنه الميزان الدقيق، والمقياس الحساس، والانضباط عنوان اكتمال خلائق عقلية ونفسية وحفظ تجارب واستيعاب عبر.

٢) العاصم من العيب:

أ- «مَنْ كَسَاهُ الْحَيَاءُ ثَوْبَهُ لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ»[٢].

تمثل الخلق الباطني سياجاً يحوط الجسم ويلفه برباطه الوثيق فلا يبدر من جارحة انفلات، فالزمام قد أخذ بأطرافها، هيمنةٌ آسرة، لطفت

---

(١) ك ٦٩ /٤٥٩.

(٢) م ٢٢٣ /٥٠٨.

الجوانح فخضعت الجوارح، فلا يرى الناظرون إلا كساء البهاء وجلباب الحياء.

ب- «مَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ»(١).

فثمة سلسلة مهالك، ومسالك مزالق، يتيه سالكها، فلا توصله إلا إلى الهاوية، ولا تقذفه إلا إلى النار.

فتراكم الأخطاء تغشي مرتكبها ظلمةً وريناً ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢).

فلا يستشعر الخشية، فيقل الحياء ويستمرئ الذنب وهو معنى قلة الورع فيؤول أمره ميتاً قلبه، وإن كان في عداد الأحياء.

٣) مواطن لا حياء فيها:

أ- التعلم:

«وَلا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ»(٣).

فالجهل مردٍ، ومفتاح العلم المسألة والتعلم، وما التخبط والضلال إلا بترك العلم والمعرفة، والإنسان لم يولد عالماً، فحياؤه بقاؤه جاهلاً «مَنْ

---

(١) م ٣٤٩ /٥٣٦.

(٢) سورة المطففين /١٤.

(٣) م ٨٢ /٤٨٢.

رَقَّ وَجْهُهُ رَقَّ عِلْمُهُ»[(١)] فلابد له من رفع نقيصته، وبلوغه كماله من التزود بما يرفع ذلك ويرقيه إلى مايليق به.

هذا ومسائل الاعتقاد والفقه والحلال والحرام وخير الخصال وشر **الأفعال، معارف شتى يسعد فيها المرء ويشقى فلا مناص له من الإحاطة بها والولوج إليها من أبوابها، وليس ثمة إلا العلم، فإذا منعه منه الحياء، فقد حرم نفسه الكمال، وتاه في غياهب الجهل والضلال، وعاش يرفل في** الفقر مكابداً «وَلا فَقْرَ كَالْجَهْلِ»[(٢)].

ب- القول بغير علم:

«وَلا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ لا أَعْلَمُ»[(٣)].

فقد ظن السائل بالمسؤول خيراً، فإن أجابه بجهل فقد خان الله وأضل عبدالله، وحكى بذلك نفسية خسيسة وعرض نفسه للهلكة والمؤاخذة «مَنْ تَرَكَ قولَ (لا أدري) أُصِيبَتْ مَقاتِلُهُ»[(٤)].

وهنا مظهر الشجاعة وغلبة النفس، بحط الكبرياء، وعنوان الإيمان بالصدق، ومدعاة لنيل فضيلة العلم، وشرف المعرفة، بتعلم مالا يعلم.

ج- إعطاء القليل:

---

(١) عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام. الكافي ٢ /١٠٦.

(٢) م ٥٤ /٤٧٨.

(٣) م ٨٢ /٤٨٢.

(٤) م ٨٥ /٤٨٢.

«لا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ»[١].

وهي تربية للنفس على البذل مما يجد قليلاً وكثيراً، وإبعادها عن الشح، والاستجابة لدعوة الشيطان «الشيطان يعدكم الفقر». فإن مقابل الإعطاء والبذل المنع والحرمان، وهما أسوء حالاً، وأشد ضرراً من إعطاء القليل فإنه نافع للمعطي والآخذ.

د- مواطن تحصيل الخير:

«قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ»[٢].

فمن مواطن ذلك الحياء الحائل دون المسألة والعلم وهكذا في كل موارد الحياة مما ينبغي فيها الإقدام، فالإحجام مانع من نيلها وإدراك خيرها، فهي من صور الحياء المذموم.

٤- ومما يستحى منه: الفرار من الزحف:

«وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الأَعْقَابِ وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ»[٣].

فالحياء هنا رذيلة النفس، وخور العزائم، وضعف الإيمان، والرغبة في الدنيا الفانية، والزهد في الحياة الباقية، يورث شر العاقبة في الأعقاب، فيعيّرون بخلال آبائهم، وربما ورثوها أبناءهم، ويورث الحسرة والندامة بعذاب الجحيم يوم القيامة، فياله من سوء بلاء، عار حاضر وعذاب

---

(١) م ٧٦/ ٤٧٩.

(٢) م ٢١/ ٤٧١.

(٣) خ ٦٦/ ٩٧.

آجل.

٥) ومن حياء أمير المؤمنين وبالغ زهده:

«وَالله لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي[(١)] هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ أَ لا تَنْبِذُهَا عَنْكَ فَقُلْتُ اغْرُبْ[(٢)] عَنِّي فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى»[(٣)].

وكان فصلاً ختامياً لخطبة جليلة عرض فيها الإمام عليه السلام زهد الأنبياء الكرام مما خبره من أمرهم، ووقف عليه وعايشه من سيرة خاتمهم سيد المرسلين ـصلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين ـ ثم ذكر عظيم منة الله لديه حيث أنعم عليه بنبيه سلفاً يتبعه، وقدوة يهتدي بهداه، وقائداً يطأ عقبه ويقتفي خطاه.

ثم ختمه بطرف من سيرته عُني منها بالحديث عن ملبسه، كما تحدث في موطن آخر عن مطعمه.

وزهد الإمام قناعة الواجد، لا وضع الفاقد، فهو التواضع الجم، والخلق الكريم في مواساته لأضعف رعيته، ومشاركته لهم في مكاره الدهر، وتلكم خلاله وخصاله على ذلكم النسيج الفريد.

ومن يزهد في الإمرة والحكم والسلطان فيراها عفطة عنز وأقل من

---

(١) المِدرعة: ثوب من صوف.

(٢) اغْرُبْ: اذهب وأبعد.

(٣) خ ١٦٠ /٢٢٩.

بقل وأذل من نعل فليس منه ذلك بعجيب، وإن كان كـل شـأنه العجيـب الغريب، حتى إنه ليستحي من راقع مدرعته، وليس هو إلا أحد أولاده أو من يشرّف بخدمته.

القناعة

«كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً»[1].

وهي خلق جميل، باطنه الرضا، وظاهره حسن التعامل بالمعطى، وجماع صفاته فاضلة، وخلال متكاملة.

وتقف في النهج الشريف على مآثر هذه الخصلة الكريمة، وعمق تأصلها في ذوات المتحلين بفضلها، المتجملين بخلائقها، وهم سادات الأولياء، والأمثل فالأمثل.

١ - «وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الأَعْيُنُ مِنْ حَالاتِهِمْ مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلا الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنًى وَخَصَاصَةٍ تَمْلا الأَبْصَارَ وَالأَسْمَاعَ أَذًى»[2].

٢ - أ) «أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أمير المؤمنين وَلا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ

(١) م ٢٢٩ /٥٠٨.

(٢) خ ١٩٢ /٢٩٢.

الطَّيِّبَاتِ»[١].

ب) «وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ أَلا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً وَأَبْطَأُ خُمُوداً. وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ»[٢].

وله عليه السلام في هذا المضمار وفي ذات الكتاب كلام عجيب وجميل وكل كلمه عجيب وجميل.

ج) «وَأَيْمُ اللهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ لأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً»[٣].

د) «يَرْحَمُ اللهُ خَبَّابَ بْنَ الأَرَتِّ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً وَهَاجَرَ طَائِعاً وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ وَرَضِيَ عَنِ اللهِ وَعَاشَ مُجَاهِداً»[٤].

هـ) -المتقي- «قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لا يَزُولُ وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لا يَبْقَى يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ قَلِيلاً زَلَلُهُ خَاشِعاً قَلْبُهُ قَانِعَةً نَفْسُهُ مَنْزُوراً أَكْلُهُ سَهْلاً أَمْرُهُ»[٥].

---

(١) ك ٤٥ /٤١٨.

(٢) ك ٤٥ /٤١٨.

(٣) ك ٤٥ /٤١٩.

(٤) م ٤٣ /٤٧٦.

(٥) خ ١٩٣ /٣٠٥.

الدنيويون غير قنّاع:

أ- وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه:

«لا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيُرَجِّي التَّوْبَةَ بِطُولِ الأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ»[1].

ب- «وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ وَانقطاع سَبَبِهِ فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ[2] وَلا مَغْدًى[3]»[4].

ج- من كتاب له عليه السلام لشريح بن الحارث قاضيه وقد اشترى داراً:

«اشْتَرَى هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالأَمَلِ مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالأَجَلِ هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ»[5].

ومن قصار كلمه في القناعة:

«الْقَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ»[6].

---

(١) م ١٥٠ /٤٩٧_٤٩٨.

(٢) المراح: العشيّ.

(٣) المغدى: الصباح.

(٤) خ ٣٢ /٧٥.

(٥) ك ٣ /٣٦٥.

(٦) م ٥٧ /٤٧٨.

«وَلا كَنْزَ أَغْنَى مِنَ الْقَنَاعَةِ»[١].

وسئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٢].

فقال عليه السلام: «هِيَ الْقَنَاعَةُ»[٣].

وبعد...

من جوامع كلمه وقوله الفصل:

«طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ وَرَضِيَ عَنِ اللهِ»[٤].

---

(١) م ٣٧١ /٥٤٠.

(٢) سورة النحل /٩٧.

(٣) م ٢٢٩ /٥٠٨.

(٤) م ٤٤ /٤٧٧.

الفصل الرابع: الأخلاق في المجتمع

أصناف الناس وخلائقهم

النصيحة مصدرها وأثرها

الوفاء

الأولاد والجنبة الأخلاقية

الفتنة

البدعة

الغيبة

البشاشة

الاحتمال

المخالطة

الأخوة وحقوقها

العثرة وإقالتها

اللهف وإغاثة الملهوف

الألفة وعواملها وآثار خيرها

العفو

الجود والسخاء والكرم

أصناف الناس وخلائقهم

ويحيا الإنسان عمره، والدنيا مضمار أعماله، ومسرح آماله، تتبدل فيها أحواله، وتتقلب شؤونه، من قوة وضعف وفقر وغنى، وآمر ومأمور، متمردًا بما شاء له الهوى، تدركه الرحمة فيؤوب إلى رشده ويذكر ربه، ويتمادى في الغي فينسى آخرته، ويرين على قلبه ما كسبه من سيء عمله.

ويشرح الإمام عليه السلام هاتيك الأحوال، ويصور واقع الأخيار والأشرار، ويجّسد عواقب أمرهم وماهم إليه صائرون وعنه مساءلون.

ومن تلكم الصور المعبرة والمشاهد المثيرة ما ابتلي به -سلام الله عليه- أيام سياسته الأمة وكيف قام فيهم بالعدل وحملهم على الاستقامة فعافوا المورد العذب والمنهل السلسال، ومصّوا الثماد، وخبطوا في دياجي الظلام ومتاهات الباطل، وتنمروا وتنكروا هذا ورائد الحق يدعوهم، والموت يحدوهم، والحساب العسير ينتظرهم، والجنة والنار مستقر لكل عامل لهما، ساع إليهما.

١) اشتات المجتمع وشتاته:

«وَ قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لاَ يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَالشَّرُّ فِيهِ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَلَا الشَّيْطَانُ فِي هَلاَكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً، فَهذا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ .اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ الله كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ الله وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً! أَيْنَ خِيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ !وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، والمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ، وَهَلْ خُلِّفْتُمْ إِلاَّ فِي حُثَالَةٍ لاَ تَلْتَقِي أَلَّا بِذَمِّهِمْ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ؟! فَـ ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ فَلاَ مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلاَ زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهَاتَ! لاَ يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللهُ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!»[1].

٢) فريقان: منعم عليه ومنتقم منه:

«وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفْرِيقِهِم، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مَنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هؤُلاَءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هؤُلاَءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلاَ تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلاَ تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ، وَلاَ تَنَالُهُمُ

---

(١) خ ١٢٩ /١٨٧ـ١٨٨.

الْأَسْقَامُ، وَلاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلاَ تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِيَ إِلى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلاَ تُفْصَمُ كُبُولُهَا. لاَ مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى»(١).

أجل وكما قال الله في كتابه:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۞ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۞ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٣).

٣) الانحدار إلى الهاوية مع قيام المنقذ:

قال عليه السلام في ذمّ العاصين من أصحابه:

---

(١) خ ١٠٩ /١٦١ـ١٦٢.

(٢) سورة الشورى /٧.

(٣) سورة هود /١٠٣ـ١٠٨.

«للهِ أَنْتُمْ! أمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ! وَلاَ حَمِيّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلاَ عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ -وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الْإِسْلاَمِ[1]، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ- إلى المَعُونَةِ أَوطَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لاَ يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلاَ سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاَقٍ إِلَيَّ المَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُكُمُ[2] الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ!»[3].

٤) البدع وحملة الحديث:

«وقد سأله سائل عن أحاديث البدع، وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر. فقال عليه السلام:

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلاً، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامّاً وَخَاصّاً، ومُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهْماً، وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

المنافقون:

---

(١) التريكة: بيضة النعامة بعد أن يخرج منها الفرخ، والمعنى أنتم خلف الإسلام وعوض الماضين.

(٢) دارستكم: قرأت عليكم القرآن وعلّمتكم وفهّمتكم إياه.

(٣) خ ١٨٠ /٢٥٨_٢٥٩.

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإيمان، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلاَمِ، لاَيَتَـأَثَّمُ وَلاَ يَتَحَـرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّـاسُ أَنَّـهُ مُنَـافِقٌ كَـاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُـولِ الله ﷺ رَآهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ المنَـافِقِينَ بِـمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَـكَ، ثُـمَّ بَقُـوا بَعْـدَهُ، فَتَقَرَّبُـوا إِلى أَئِمَّـةِ الضَّلاَلَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمُ الْأَعْمَالَ، وَجَعَلُـوهُمْ حُكَّامًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ، فَهذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ.

الخاطئون:

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ الله شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، يَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُـولِ الله ﷺ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَـوْ عَلِـمَ هُـوَ أَنَّـهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ!.

أهل الشبهة:

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَىٰ عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِـهِ وَهُـوَ لايَعْلَـمُ، فَحَفِـظَ المَنسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَـظِ النَّاسِـخَ، فَلَـوْ عَلِـمَ أَنَّـهُ مَنْـسُوخٌ لَرَفَـضَهُ، وَلَـوْ عَلِـمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

الصادقون الحافظون:

وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى الله، وَلاَ عَلَى رَسُـولِهِ، مُـبْغِضٌ لِلْكَـذِبِ،

خَوْفاً لله، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ الله ﷺ وَلَمْ يَهِمْ، بَلْ حَفظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، وَحَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ المَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ، وَمُحْكَمَ والمُتَشَابِهَ فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ. وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ الْكَلاَمُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلاَمٌ خَاصٌّ، وَكَلاَمٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ مَا عَنَى اللهُ بِهِ، وَلاَ مَا عَنَى بِهِ رَسُولُ الله ﷺ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ أَوْ الطَّارِىءُ، فَيَسْأَلَهُ عليه السلام حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلاَّ سَأَلْتُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ. فَهذِهِ وَجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلاَفِهِمْ، وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ»[1].

ونفيد من هذا النص على طوله حقائق مهمة:

الأولى: إن ما يحمله الناس ألوان من المعرفة والثقافة تجمع الغث والثمين مما يختلط أمره على السامع والناقل.

الثانية: إن داء الإختلاق وهو داء خطير دبّ في المجتمع في العصر النبوي الشريف وضاق بأمره فصدع بها قال.

الثالثة: قيام داء النفاق فيمن تشرّف بصحبة خير البشر ﷺ فاتخذ المنافق من نفاقه ذريعة خبيثة استغفل بها الأمة فبثّ الكذب متجرئًا على الله ورسوله.

---

(١) خ ٢١٠ /٣٢٥_٣٢٨.

إذاً فالصحبة لم تكن مانعة من النفاق، ولا حاجزة عن الافتراء.

الرابعة: إن أولئك المنافقين على عهد رسول الله ونجيّه لصقوا بأئمة الضلال!! والدعاة إلى النار وذلك من خبيث نفاقهم ودقيق خبثهم فارتبطوا بمركز القوة في الدولة واحتلوا منهم موقعًا مكنهم من الإمرة والسيطرة والنفوذ، فأضلوا العباد، وعاثوا في الأرض الفساد.

الخامسة: أن تلكم الجذور الخبيثة امتدت عروقها السوء وأنبتت الفكر الفج وأثمرت الحنظل وسيء النتاج فتسربت الإسرائيليات، وشوهت معالم الإسلام وحقائق الدين واختلط الحق بالباطل.

السادسة: وإن الأمة المتشرفة بعصر النبوة المشع فيها نور ونبراس الهدى لم تكن تمتلك الوعي، ولم تعرف جلال النعمة الموفورة وتعرف قدرها وتؤدي شكرها، فما كل ذي عينين ببصير، ولا كل ذي سمع بسميع، وقد شهد تاريخ صحابة الصدر الأول أمّة لم ترتفع عن حضيض الأمية حتى في ضروريات المسائل وبديهيات القضايا.

السابعة: الصفوة المنتقاة والقلوب الواعية المحافظة لما استودعت، والعاملة بما حفظت ممن وضعت كل شيء موضعه.

الثامنة: وهنا موطن الامتياز، والمرتقى الذي لم يبلغه أحد سوى من خص بالوصية وائتمان عهود الله ومواثيقه فكان باب علم مدينة المصطفى ﷺ الذي لا يدخل المدينة إلا من ولج منه، ذلكم هو فتى الإسلام ورجله وبطله علي أمير المؤمنين عليه أفضل صلاة المصلين.

٥) أصناف وأوصاف:

يصف زمانه بالجور ويقسم الناس فيه خمسة أصناف.

والحديث كسابقه وإن عني بعصره وأيام حكمه إلا أنه في الحقيقة حكاية عن واقع الإنسان وصراعه في الحياة في ميادين واسعة منطلقًا لتحقيق ما يرجو من دوافع عدة ورؤى مختلفة وقناعاتٍ سخر لانجاحها مايقوى عليه ولو كان أخسّ الحيل وأخبث السبل.

فلنقرأ رصين فكر الإمام ودقيق تقسيمه ومعمق تحليله لتلكم الأصناف والأوصاف في بديع القول والحكمة البالغة:

«في ذمّ الناكثين:

أَلاَ وإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إلى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إلى نِصَابِهِ، وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِفاً.

يذمّ عثمان:

وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي، فَمَا التَّبِعَةُ إِلاَّ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ، وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ. يا خَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وإِلاَمَ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ.

التهديد بالحرب:

فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ، وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ البَاطِلِ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ! وَمِنَ العَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ! وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلادِ ! هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ !وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي»[1].

وفي هذا النص التحليلي وقفات مهمة، وتأملات دقيقة نلقي الضوء على جملة منها.

فأولاً: التمهيد الذي صدّر به الإمام عليه السلام خطبته كاشفاً عن معنى جور الزمان، وملخصاً فيه ما فصله:

أ) فالدهر عنود، والزمن كنود، وليس العيب ملتصقاً بليله ونهاره ولا ذنب لسمائه وأرضه، ولا تقصير لهوائه وشمسه فما هو إلا ظرف الحوادث والحوادث تنسب إلى فاعلها.

نعيب زماننا والعيب فينا.

ب) فانقلبت الموازين، وتغيرت الأخلاق ووصفت بأضدادها، فمصدر الإحسان انعكست النظرة حوله فعدّ مسيئاً، ولا يرعوي الظالم فيقصر عن ظلمه بل يزداد عتوًا وعدوانًا، وتماديًا وغيًّا.

ج) إن لهذه الآفات عللًا وأسبابًا، فقد أستبدل العلم بالجهل وتحكم في النفوس فسيرها، ومسراه لا ينتهي إلا بالتهلكة.

ومن لم يسترشد بالعلم الذي يحمله فه عن رفع جهله أكسل وأبعد

(١) خ ٢٢ /٦٣ـ٦٤.

ويتخبط في جهله وغيه آمنًا مفاجآت الدهر وطوارق الحدثان حتى تحل بـه القارعة حيث لا مفر ولا مفزع ولات حين مناص.

وثانياً: التصنيف الدقيق لطبائع حملة الشر من البشر.

١) فصنف تعلق بالفساد وشغف بـه، فـلا يحـول بينـه وبـين خبـث مقاصده ولا يقعد به عـن تحقيـق مآربـه إلا ضـعة نفـسه وخـور عزيمتـه وإفلاسه.

٢) وآخر متمرد هائج لا يكبح جماحه لجام، مستميت فيما يهوى مـن الاستعلاء والاستيلاء، يجاهر بالشر ويقوم بالعنف في سـبيله، وكـان كـل همه حب ذاتـه والأثـرة والأمـرة والـسيطرة، وكـلٌ يعمـل عـلى شـاكلته، ومطامع هذه الفئة متفاوتة فربما تمثلت في امـتلاك حطـام وإن قـل، وربـما تمثلت في حب الظهور والجاه.

وأعظم بمقولة الإمام حكمة جامعة: «وَلَبِئْسَ المَتْجَرُ أَنْ تَرَى الـدُّنْيا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا، ومِمّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضًا»[1].

فتمرد واستماتة وتحقير المقدسات وتقديس المحقرات وبذل أعـز مـا لدى الإنسان وهو نفسه فداء لنزوات ورغبات ربما لا تنال.

وإذا أُدركت البغية فما هي إلا متاع سرعان ما يـزول وخيـال يتبـدد ويضمحل وما عند الله خير وأبقى، فأي جور بعد هذا أشنع وأفظع.

٣) وثالث منافق محتال وعلى ضد مسلك الصنف السابق وإن اتحـدا

---

(١) خ٣٢/ ٧٥.

غرضاً فقد تقمص هذا الرياء وارتدى رداء المساكين أحاط نفسه بما يغري من حوله من انحناء وخضوع ومظاهر خشوع وسكينة ووقار ولسان يلقلق بالذكر ومسكنة وزهادة وما ينجح الغاية من حيل التمويه وحبائل الشيطان.

هذا وقد غفل عن إملاء الله له وستره عليه فتمظهر بالصالحين وسيلة لنيل الدنيا ومعصية الملك الجبار.

٤) ورابع يغالط ذاته ويخادعها فهو يهفو إلى الأمرة والحكم ولكن أقعده مثبطات نفس حقيرة، ولا يمتلك ما به يملك فأوهم نفسه أنه قانع وزاهد غير راغب.

ولإحكام اتصافه بذلك تجلبب بلباس الزهد والتقشف، وليس هو من ذلك في شيء.

ثالثاً: الصفوة الخيرة:

وهم الأقلون عدداً، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وقد شغل أولئك وملأ قلوبهم حب الدنيا، وقد شغل هؤلاء الرغبة في الله، فأولئك أبناء الدنيا، وهؤلاء أبناء الآخرة.

وعامل الاستقامة فيهم: المرجع، والمحشر.

دائمو الذكر، مستمرو الخوف، ومن ذكر المرجع ارعوى، ومن خاف المحشر بكى.

وهــم قبالــة أضــدادهم يأنــسون بالوحــدة، يــستذلون فيقمعــون ويخافون، لا يسعهم إلا الـسكوت بعـد أن وعظـوا حتـى ملـوا، وقهـروا فأتقوا وأذلوا، تقاذفتهم أمواج المصائب، وعصفت بهم المكاره والمصاعب فعادوا بعد القتلة قلة.

٦) سواد الأمة الأعظم عشاق الدنيا:

ويلتقي هذا النص اللاحق بالسابق جـوهراً ومـضموناً مركـزاً عـلى استيلاء حب الدنيا على الكافة إلا من عصم الله ورحم، ومقارناً بـين جنـة من النعيم الدائم في متنوع صوره وأشكاله وبين مستنقع عفن شغفوا بقربه وحبه فعشقوه وتملوا منه حتى راحت أنفاسهم وأبدانهم بالنتن.

عصيان الخلق:

«سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ، خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُـصُوراً، وَأَنْهَـاراً، وَزُرُوعاً، وَثِمَاراً. ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُـوا، وَلاَ إِلى مَـا شَـوَّقْتَ إِلَيْـهِ اشْـتَاقُوا. أَقْبَلُـوا عَـلَى جِيفَـةٍ قَـدْ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَـيْئاً أَعْـشَى بَـصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْن غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُن غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَـدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَـهُ، وَوَلِهَـتْ عَلَيْهَـا نَفْـسُهُ، فَهُـوَ عَبْدٌ لَهَا، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا»[١].

---

(١) خ ١٠٩ /١٥٩ـ١٦٠.

ويسترعي الانتباه في مفتتح هذا الفصل تصديره بإجلال الله -جلّ وعلا- وأنه الخالق المعبود، فمن كان هو وحده الخالق فهو أهل العبادة لاسواه، ومن كان شأنه الإنعام وحسن البلاء بعباده فهو المولى المنعم المتفضل المحسن المجمل.

ثم يعرض الإمام -صلوات الله وسلامه عليه- صورتين متمايزتين فيما بينهما من تفاوت لا تصح فيهما مقارنة ولا مقايسة من وجه.

فالأولى وهي جنة الخلود الدائم والنعيم المقيم، وهي فياضة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مترعة بها هو أوفى وأجمل وأكمل لما تهواه النفوس وتستميت فيه الرغائب ودنيا الملاذ.

وقد عُني الخالق بعباده وشرفهم فدعاهم مرغباً مشوقاً على لسان سيد خلقه وأصدقهم لنيل مافوق أمانيهم وآمالهم، والله صادق الوعد ورسوله صادق الدعوة.

والثانية هي الدنيا الدنية وزخرفها المبهرج ولذتها الفانية ومباهجها الزائفة ومتعها الزائلة، وكلها مشوبة بالكدر، نافذة فيها الغصص، لا ينفك اللائذ بأطرافها من المكاره سرعان ما تفنى أو يفنى راغبها فتذهب اللذة وتبقى التبعة.

ثم يقرر الإمام الحقيقة المرة المتمثلة في هيام السواد الأعظم وتعلق الأعم الأغلب بالإدبار عن دعوة الحق والإقبال على الباطل الزهوق.

«فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيَما رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إلى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا».

بل «أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدْ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا».

إلى حد الوله والافتتان.

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ».

هذا ولا يخفى أن الإمام لا يهذب الأمة على عدم الاستمتاع بخيرات الله في الدنيا، وعدم النيل من نعم الله، فمنطقه وحكمته هي قول الله سبحانه:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾[2].

وفي بقية الخطبة الشريفة دقيق التبصير، وبالغ الموعظة، وشريف البيان، وعميق التذكير.

---

(١) سورة الأعراف /٣٢.

(٢) سورة الأعراف /١٥٧.

النصيحة مصدرها وأثرها

وهي ركيزة في الإصلاح قويمة، باعثة لسلوك المناهج المستقيمة وإن ثقلت على الكافة أداءً وقبولاً، يتحرج ملقيها ويمتعض متلقيها ويبرم بقائلها ويتصامم عن سماعها.

وقد حفل النهج الشريف بوافر الحديث حول شؤون النصح والنصيحة كما مثل الإمام دور الناصح الإلهي فيها مجسداً في فيضٍ من خطبه وكتبه.

ولاتساع دائرة مقال الإمام (عليه السلام) في هذا المضمار نرشد إلى تتبع مادة (نصح) في (نهج البلاغة)[1] ومشتقاتها متناولاً غرفاً من البحر أو قطراً من الديم.

١) الله هو الناصح الأعظم:

أ) «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ اسْتَنْصَحَ اللهَ وُفِّقَ، وَمَنِ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ

(١) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة /١٢٢٩ /١٢٣١.

لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ»[١].

وانقطاع العبد إلى مولاه سرّ سعادته، وعنوان استقامته، ودليل هدايته في مسيرته في سرّه وعلانيته، إذاً فليكن ذلك أول ما يتعلق به وينقطع إليه.

وماذا يرتجى من استنصاح العبد من المولى إلاّ التوفيق والهداية للتي هي أقوم.

وقد عقب ذلك الإمام عليه السلام بتلكم الآثار فقال:

«فَإِنَّ جَارَ الله آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ، وَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ الله أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلاَمَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ»[٢].

ب) «انْتَفِعُوا بِبَيَانِ الله، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الله، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ الله، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ»[٣].

وقد أبان الله السبل وأرشد إلى أهداها، وأتمّ الحجة من قبل ومن بعد، وأمدّ المكلف بالقوة والقدرة ورغب وحذر وأعذر وأنذر، والعاقل من عقل عن الله وتعلق به وأخذ بنصحه قاهراً بذلك النفس وما تهوى إلى

---

(١) خ ١٤٧ /٢٠٥.

(٢) خ ١٤٧ /٢٠٥.

(٣) خ ١٧٦ /٢٥١.

ما يأمر به المولى ويرضى.

٢) الرسول الناصح المبالغ:

أ) «بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاَءُ؛ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلاَءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»[(١)].

ب) «بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً، وَنَصَحَ لأُمَّتِهِ مُنْذِراً، وَدَعاَ إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً، وَخَوَّفَ مِنَ النَّارِ مُحَذِّراً»[(٢)].

ج) «أَرْسَلَهُ وَأَعْلاَمُ الْهُدَى دَارِسَةٌ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صلى الله عليه وآله وسلّم»[(٣)].

وقد أرّخ الإمام عليه السلام لعصر قيام النبي الناصح ﷺ ومدى تردي الأخلاق وبواعث الانحطاط وعوامل الضلالة والانحراف.

كما حكى استماتته ﷺ ومبالغته في الهداية والإرشاد منذراً مبشراً بأمثل السبل وأقوم الطرق قولاً وعملاً حتى مضى إلى ربه على منهاجه ناصحاً مجتهداً مكافحاً ﷺ.

---

(١) خ ٩٥ /١٤٠.

(٢) خ ١٠٩ /١٦٢.

(٣) خ ١٩٥ /٣٠٨ـ٣٠٩.

٣) القرآن ناصح مؤتمن:

أ) «وَاعْلَمُوا أَنَّ هذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لاَ يُضِلُّ، وَالمحَدِّثُ الَّذِي لاَ يَكْذِبُ»[١].

ب) ومن كتاب له ﷺ إلى الحارث الهَمْدَاني:

«وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرآنِ، وَاسْتَنْصِحْهُ، وَأَحِلَّ حَلاَلَهُ، وَحَرِّمْ حَرَامَهُ»[٢].

فكتاب الله حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد مأمون من الزيغ هاد إلى الرشد فلا يضل من استنصحه واهتدى بهداه فوقف على حدوده واتبع أوامره ونواهيه واقتص خبره واقتفى أثره.

٤) الإمام خير ناصح:

أ) «... فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ،... وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي المَشْهَدِ وَالمَغِيبِ»[٣].

ب) «وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْرًا فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا»[٤].

---

(١) خ ١٧٦ /٢٥٢.

(٢) ك ٦٩ /٤٥٩.

(٣) خ ٣٤ /٧٩.

(٤) خ ٩٧ /١٤١.

ج) ومن كتاب كتبه (بحاضرين) لولده الحسن عليهما السلام عند انصرافه من صفين: «فَإِنِّي لَمْ آلُك نَصِيحَةً[١]. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ -وَإِنِ اجْتَهَدْتَ- مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ»[٢].

والكتاب طويل في وصايا عريضة جليلة، مفعم بالتربية الأخلاقية العالية، محكم بالضوابط القويمة.

د) ومن كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج «وَلاَ تَدَّخِرُوا[٣] أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً»[٤].

٥) العقل دقيق النصح:

أ) «لَيْسَتِ الرَّوِيَّةُ كَالْمُعَايَنَةِ مَعَ الْإِبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلاَ يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ»[٥].

ب) «الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ، وَالْاعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ، وَكَفى أَدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ»[٦].

فالعقل أنفس جوهرة وهبها خالقها وكرّم بها من أودعه إياها فهو رسول باطني، ونبراس داخلي يهدي من استهداه، يدرك ما دق، ويكشف

---

(١) لم آلُكَ نصيحةً: أي لم أقصّر في نصيحتك.

(٢) ك ٣١ / ٣٩١.

(٣) ادّخر شيئاً: استبقاه، والمعنى لا تمنعوا أنفسكم شيئاً من النصيحة.

(٤) ك ٥١ / ٤٢٥.

(٥) م ٢٨١ / ٥٢٥.

(٦) م ٣٦٥ / ٥٣٨.

ما رق، ويميز ما خفي، وكفى به مرآة حقيقية تسمو على إدراك الجوارح ما تلامسه أو تقع عليه فيختلط عليها أمره ويغم عليها واقعه.

٦) النصيحة هدية تقبل من مهديها:

أ) «وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»[١].

يحضّ -سلام الله عليه- أصحابه على التأسي بمن نُصح فاستنصح وهُدي فاهتدى فعادوا أماثل الرجال، فلتكونوا على شاكلتهم، ولا تكونون حتى تعقلوا النصيحة على أنفسكم وثاقاً لا يفل، ورباطاً قد أبرم فلا ينقض.

ب) «فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ -وَإِنِ اشْتَدَّ عَلَى رِضَى الله حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ- بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ الله عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ امْرُؤٌ -وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ- بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ.وَلاَ امْرُؤٌ -وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَاقْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ- بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلى ذلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ»[٢].

فالنصيحة قضية مشتركة ، ووظيفة متكافئة، وضرورة متبادلة لا يرتفع عنها أحد، ولا ترتفع عن أحد، وبها قوام الفرد والجماعة، والراعي والرعية.

---

(١) خ ١٢١ /١٧٨.

(٢) خ ٢١٦ /٣٣٤.

ج) «وامْحَضْ أخاكَ النَّصِيحةَ، حَسَنةً كانتْ أَو قَبِيحةً»[١].

فذلك شأن المؤمن ومقتضى إخلاصه، وهو مرآة لأخيه المـؤمن. ولا يتبعض النصح وإن اختلف وقعه لدى المنصوح موافقـة ومخالفـة وقبـولاً وردًّا.

٧) طلب النصيحة الصحيحة:

«فَأَعِينُوني بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ»[٢].

٨) نصح النفس وقوامه:

«إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ؛ وَالمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ، وَالمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ»[٣].

والحق أنه الميزان الدقيق، والفكر السويّ والهدي القويم، إذ لا أعـز على المرء من نفـسه، ولا أحـب إليـه منهـا، فهـو بـالطبع يـود سـعادتها لا شقاءها، ومعيار ذلك كفتا الطاعة والعصيان، والانقياد والتمرد.

٩) آثار وعواقب:

أ) «أَمَّا بَعْدُ، فَـإِنَّ مَعْـصِيَةَ النَّاصِـحِ الـشَّفِيقِ الْعَـالِمِ الْمُجَـرِّبِ تُـورِثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَـةَ. وَقَـدْ كُنْـتُ أَمَـرْتُكُمْ في هـذِهِ الْحُكُومَـةِ أَمْـرِي،

---

(١) ك ٣١ /٤٠٣.

(٢) خ ١١٨ /١٧٥.

(٣) خ ٨٦ /١١٧.

وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى
فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلاَّ ضُحَى الْغَدِ»[1].

وفي هذا النص الشريف المتخم باللوعة، والمفعم بالحسرة وفورة التبرم المفتتح بقوله عليه السلام: «الْحَمْدُ لله وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ» وذلك في عاصفة التحكيم وما بلغه من أمر الحكمين.

أجل... في هذا البيان ركائز الفكر، وضوابط الرأي ونتائج مخالفة الحكمة، وعوامل ذلك وبواعثه لدى الصم البكم فاقدي البصيرة ذوي اللجاج وشدة العناد، والإصرار على الصمم عن الحق مجمعين حتى الاستماتة في التمادي في الغي حتى بان لهم غب ما عموا عنه وصموا.

ب) الساعي متهم:

«وَلاَ تَعْجَلَنَّ إلى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ»[2].

وذلك ما يقتضيه الاحتياط في الدين، ويمليه التثبت في مواطن الشك والشبهة ويدعو إليه التريث في ترتيب الآثار على سماع الأخبار.

---

(١) خ ٣٥ /٧٩ـ٨٠.

(٢) ك ٥٣ /٤٢٩ـ٤٣٠.

ج) الشيطان الغوي:

«وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ»(١).

خطاب لمعاوية يقرّر حقيقة: إن من أصم سمعه عن الله وقوله فقد تمكن منه شيطانه فأضله سواء السبيل، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(٢).

د) نصح الغاش وغش المستنصح:

«وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ»(٣).

فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها يأخذها أنّى وجدها، فربما ظهرت فلتة على لسان الاحمق والغاش، وربما أحسن الظن بمن لا خلاق له فأوغل في نصيحته، وهنا موطن الحيطة والحذر والتروي والنظر.

هـ) النصح والاتّهام:

«وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لاَ ذَنْبَ لَهُ. وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ(٤)

(١) ك ٧٣ /٤٦٣.

(٢) سورة الزخرف /٣٦.

(٣) ك ٣١ /٤٠٢.

(٤) الظِّنَّة: التهمة.

المُتَنَصِّحُ[(١)]»[(٢)].

والاتهام آفة، وربما وقفت سدًّا عن فعل الخير وإدامته، فهي من عوائق الإصلاح، وحواجزه لدى من لا يقوى على قهرها، وفي ذلك تتمايز الرجال، وتختلف المواقف.

و بعد... فقد عشنا النصح مع الإمام في خطبه وكتبه ووصاياه لأوليائه وولاته وأعدائه، وقد شملت بفكرها الرائع وفيضها الواسع معارف جمة وحقائق مهمة تعنى بالإنسان وشؤونه عقيدةً وسلوكاً وتاريخاً وتربيةً وإدارة وعظةً وعبرة.

---

(١) المتنصح: المبالغ في النصح.

(٢) ك ٢٨ /٣٨٨.

الوفاء

وهو خلق كريم ينمّ عن شرف النفس وطيب الذات وحسن التعامل وجميل التفاعل مع مقتضى الظروف والأحوال الطارئة في حياة الإنسان.

فما هي مواطن الوفاء، وماذا يقضي الخلق الفاضل فيها؟

هذا ما نسترشد في تجليته من حكم الإمام (عليه السلام) وغرر كلمه.

١) الله يوفّي الأجور:

«مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ -وَهُمْ بِصِفِّينَ- أَلاَّ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ الْغُصَصَ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ[1]! قَدْ -وَاللهِ- لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ»[2].

٢) الإمام الوفي ولو في المحرج:

وقد كتب (عليه السلام) إلى أبي موسى الأشعري في أمر التحكيم الذي أُكره عليه:

(١) الرنْق: الكدر.

(٢) خ١٨٢ /٢٦٤.

«وَلَيْسَ رَجُلٌ -فَاعْلَمْ- أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّـةِ مُحَمَّـدٍ ﷺ وأُلْفَتِهَـا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ المَآبِ، وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ[1] عَلَى نَفْسِي»[2].

٣) الوفاء والاستيفاء متكافئان:

«لاَ تَكُنْ مِمَّنْ يَحْكُمُ على غيرِهِ لنفسِه، ولا يُحْكَمُ عليهـا لغـيرِه، يُرْشِـدُ غيرَهُ، ويُغوي نَفْسَهُ، فهو يُطاعُ ويَعْصِيَ، وَيَسْتَوْفِي وَلا يُوفِي»[3].

٤) الوفاء حق متبادل:

من كتاب كتبه إلى بعض عمّاله وقد بعثه على الصدقة:

«وَإِنَّ لَكَ فِي هذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَـاءَ أَهْلَ مَسْكَنَة، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ، إِنَّا مُوَفُّـوكَ حَقَّـكَ، فَـوَفِّهِمْ، حُقُـوقَهُمْ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4].

٥) الوفاء ببيعة الحق:

«وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ»[5].

---

(١) أخذت على نفسي ووعدت.

(٢) ك ٧٨ /٤٦٦.

(٣) م ١٥٠ /٤٩٩.

(٤) ك ٢٦ /٣٨٢.

(٥) خ ٣٤ /٧٩.

٦) الوفاء جُنّة:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ، وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ»[١].

٧) ومن الخلال التي يتعصب لها:

«فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ الْحَمْدِ... وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ[٢]»[٣].

٨) رقابة الوفي في السر الخفي:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ»[٤].

٩) صيانة العهود بالوفاء:

«وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً، مَعَ تَفْرِيقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشْتِيتِ آرَائِهِمْ، مِنَ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ. وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا اسْتَوْبَلُوا[٥] مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ، فَلاَ

---

(١) خ ٤١ /٨٣.

(٢) الذّمام: العهد.

(٣) خ ١٩٢ /٢٩٥.

(٤) ك ٥٣ /٤٣٥.

(٥) استوبلوا: وجدوها وبيلة مهلكة.

تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلاَ تَخِيسَنَّ[١] بِعَهْدِكَ، وَلاَ تَخْتِلَنَّ[٢] عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِىءُ عَلَى اللهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلى مَنَعَتِهِ، يَسْتَفِيضُونَ[٣] إِلى جِوَارِهِ، فَلاَ إِدْغَالَ[٤]، وَلاَ مُدَالَسَةَ[٥]، وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ»[٦].

١٠) وفاءان متقابلان:

«الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ، وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ اللهِ»[٧].

١١) من صور وفاء الدنيا:

«وَحَقّاً أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ،... وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلاَءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ، أَوْ تَغُرَّكَ»[٨].

---

(١) خاس: نقض وخان.

(٢) الختل: الخداع.

(٣) يستفيضون: يفزعون مسرعين.

(٤) الإدغال: الإفساد.

(٥) المدالسة: الخيانة.

(٦) ك ٥٣ /٤٤٢_٤٤٣.

(٧) م ٢٥٩ /٥١٣.

(٨) خ ٢٢٣ /٣٤٥.

١٢) لا وفاء للطمع:

«إِنَّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ وَضَامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ»[١].

أي من ورده هلك فيه، ولم يصدر عنه.

١٣) الاستغفار من مخالفة ما يوجبه:

«اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ[٢] مِنْ نَفْسِي، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي»[٣].

---

(١) م ٢٧٥/ ٥٢٤.

(٢) وأى: وعد، وضمن.

(٣) خ ٧٨/ ١٠٤.

الأولاد والجنبة الأخلاقية

من العلائق المتأصلة في أعماق الإنسان تعلقه بولده فمنه تولّد وتفرّع، نيط قلبه بحبه، وهو بعد زينته وامتداده ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(١)، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ﴾(٢).

ولنظام الأخلاق حكمه في تنظيم المسار السليم للتعلق بأفلاذ الأكباد، ورسم المنهج القويم فيما يجب أن يعلم ويعمل من شأنهم ومنهم لأنفسهم فلنقتف آثار الإمام (عليه السلام) ونسايره في نهجه.

١) الفناء لما ولد:

«إِنَّ للهِ مَلَكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ: لِدُوا لِلْمَوْتِ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ»(٣).

تلك نهاية الأحياء وعاقبة المخلوقات، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾

---

(١) سورة الكهف /٤٦.

(٢) سورة آل عمران /١٤.

(٣) م ١٣٢ /٤٩٣.

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(١).

ولا يحمل قول الإمام عليه السلام انتزاع الرغبة والميل لإنجاب الذرية، وإنما يرمي إلى التبصير بالنهاية الحتمية، فيبعث ذلك إلى انضباط العواطف تجاه الإمتداد المحبوب، والحد من إيثار الولد على حساب المقدسات والوظائف الشرعية الواجبة الرعاية.

٢) للدنيا والآخرة أبناء:

«أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا، أَلاَ وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ»(٢).

وذلك تشبيه رائع، وتنزيل بارع، يدعوان إلى دقة التأمل وجميل التعامل بين وهم من النعيم زائل، ويقين نعيم دائم ومقيم.

٣) الاستعاذة من سوء يلحق بالأولاد:

«اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ...، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ. اللهُمَّ...، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ»(٣).

وهذا من دعائه عند وضع رجله في الركاب عند عزمه على المسير إلى

---

(١) سورة الرحمن /٢٦ـ٢٧.

(٢) خ ٤٢ /٨١.

(٣) خ ٤٦ /٨٦.

الشام ويمثل دعاؤه عليه السلام هذا خالص الانقطاع إلى الله سبحانه في كل أحواله وبالغ إهتمامه فيما يخلفه من أهله وماله فيستخلف مولاه فيه ويرجوه سلامته وبقاءه زيناً لا شيناً غير مفتون في دينه ولا مبتلى في دنياه.

٤) نتاج أزمان الفتنة والضلال:

«فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، واسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ، وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ،... فَعِنْدَ ذلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ،... فَإِذَا كَانَ ذلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً... وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً»[1].

إنها دراية العالم الإلهي الخبير، وطبيعة الظروف السوء أن تنضح سوء وتنتج وبيئاً، فشأن أمة ذلكم العصر النزوع إلى الباطل والإنحدار إلى الدنايا، فلا قيم ولا مروءة ولا شرف ولا فضيلة، فماذا يرتجى ممن ينحدر منهم وينسل من أصلابهم وأرحامهم؟! إلا من رحم الله وعصم وأكرمه فسلم.

٥) المؤمن لا يشغله عن دينه مال وولد:

«وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا -الصلاة- رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عنْهَا زِينَةُ مَتَاع، وَلاَ قُرَّةُ عَيْن مِنْ وَلَد وَلاَ مَال، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾»[2].

---

(١) خ ١٠٨ /١٥٧.

(٢) خ ١٩٩ /٣١٧.

٦) الحقوق بين الآباء والأبناء:

«إِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ حَقّاً، وَإِنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حَقّاً: فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ فِي مَعْصِيَةِ الله سُبْحَانَهُ، وَحَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ اسْمَهُ وَيُحَسِّنَ أَدَبَهُ وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ»[1].

وقد جمع عليه السلام في وجيز كلامه جماع الحقوق مركزاً على المحور الأساس الذي تدور واجبات كلٍ تجاه الآخر مداره، ألا وهو: الله ونظامه وهديه وإطاعته وخشيته ومعصيته.

٧) ومن الفتنة والاختبار الولد:

«لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ الْفِتْنَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ، وَلكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وَمَعْنَى ذلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِط لِرِزْقِهِ وَالرَّاضِي بِقِسْمِهِ، وإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلكِن لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الإِنَاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ المَالِ وَيَكْرَهُ انْثِلاَمَ الحَالِ»[2].

٨) لا قلق على الأولاد أولياء أو أعداء:

«لا تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغْلِكَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ فَإِنْ يَكُنْ أَهْلُكَ وَوَلَدُكَ

---

(١) م ٣٩٩/ ٥٤٦.

(٢) م ٩٣/ ٤٨٣ـ٤٨٤.

أَوْلِيَاءَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَوْلِيَاءَهُ وَإِنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ اللهِ فَمَا هَمُّكَ وَشُغُلُكَ بِأَعْدَاءِ اللهِ»[١].

وليس من غرض الإمام عليه السلام إغفال جانب التربية والرعاية مادية ومعنوية حاضرة ومستقبلة، فذلك من صميم الوظائف الدينية، وإنما هو التوجيه لعلاج ما يساور الآباء من قلق على مستقبل أولادهم، فيعيشون هم ذلك غافلين عن ما يجب قصده والنظر إليه وحسن الثقة والتوكّل عليه -وحده لا شريك له- ألا وهو موقع هؤلاء الأفلاذ من رضى الله وسخطه، وكفى بالله ناظرًا وراعيًا مدبّرًا.

٩) الخير وكثرة الولد:

«وَسُئِلَ عَنِ الْخَيْرِ مَا هُوَ فَقَالَ لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ»[٢].

والمنفي هو مقالة المترفين كما حكى عنهم الإمام عليه السلام:

«وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ فَقَالُوا ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾»[٣].

فكان مقياسهم وفق ما يحبون ويهوون، وإن كان عرضًا مفارقًا ولم يكن للخير موافقًا.

---

(١) م ٣٥٢/ ٥٣٦.

(٢) م ٩٤/ ٤٨٤.

(٣) خ ١٩٢/ ٢٩٥.

أما مقياس الحق فالخير في العلم الغزير والأدب الجمّ وما يقرّب من الله زلفى.

١٠) الوصايا الجامعة:

وقد أفاض الإمام عليه السلام في الحديث عن مقوّمات الرتبية وركائزها القويمة، وبثّه في مواطن عديدة من عهوده وخطبه ووصاياه حتى اعتدّ ذلك مقياسًا ومعيارًا لدرجة الاهتمام البالغ، كما جاء في عهده الأعظم لواليه مالك الأشتر، حيث قال: «ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا»[(١)].

وأجمع فكر صاغه وصية لولده الإمام الحسن المجتبى عليهما السلام[(٢)]:

حيث الحنوّ الأبويّ المجسّد:

«وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ المَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ».

وعصارة العلم وخلاصة التجارب:

«أَيْ بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ

---

(١) ك ٥٣ /٤٣٣.

(٢) ك ٣١ /٣٩١.

صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ».

ربيع الأدب:

«بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ».

«وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ».

الأدب الإلهي ركيزة التربية:

«وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ ﷻ وَتَأْوِيلِهِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ».

وقد حفل كتاب الوصية بفيض المعارف، وجوامع الخير، وطرائف الحكم، وشرائع الخلق الكريم، والأدب العظيم، تجدر دراسته وإعمال دقيق النظر في بنوده، واللهج بذكره وتلاوته، واتخاذه منهاجًا وسيرة وسريرة وخدينًا وسميرًا.

الفتنة

وهي: الابتلاء والامتحان والاختبار، أصله من فتنت الفضة إذا أدخلتها النار لتتميّز.

والفتنة: اسم يقع على كل شر وفساد[1].

والفتنة... ج فِتَنٌ وفتين. و-: الضلال: الإثم والمعصية: الكفر: الفضيحة والعذاب والظلم. و-: مايقع فيه الناس من الاختلاف أو الحرب والقتال... و-:الجنون:... الإعجاب بالشيء. و- في الصدر: الوسواس. وفي المحيا: أن يعدل عن الطريق الرشيد. و- في المـمات: أن يسأل في القبر. و-في الضرّاء: السيف. وفي السرّاء: النساء[2].

فالفتنة بلاء خطير وامتحان عسير يعصف بالإنسان في شؤونه نافذاً في أعماق حياته وآفاق دنياه، آخذاً بجوارحه وجوانحه قابضاً على أنفاسه.

فكيف السلامة من المحنة وفيها؟ وكيف النجاة من البلاء المحيط؟

---

(١) مجمع البحرين ٦ /٢٩١ـ٢٩٢.

(٢) معجم متن اللغة ٤ /٣٥٧.

هذا ما يبصّرنا بموضوعه، ويهدينا سبل السلام لجميل التعامل والأمن من المهلكة، والخلاص من الورطة والحسرة والندامة.

أجل يرشدنا إلى القيام بالدور اللائق الخبير الإلهي، والإمام الربّاني أمير المؤمنين عليه السلام فيما تناوله من شؤون (الفتنة) وأسبابها وأبعادها وطريق الهداية فيها وبثّه في بليغ كلامه وبديع حكمه.

١) الدنيا والفتنة:

«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لَا يُسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا فِيهَا وَلَا يُنْجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتَّى قَلَصَ وَزَائِداً حَتَّى نَقَصَ»[1].

٢) الشبهة والفتنة:

أ) «فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلَابِيبَهَا وَأَغْشَتِ الْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا»[2].

ب) «إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ يُنْكَرْنَ مُقْبِلَاتٍ وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِبْنَ بَلَداً وَيُخْطِئْنَ بَلَداً»[3].

---

(١) خ ٦٣ /٩٤.

(٢) ك ٦٥ /٤٥٦.

(٣) خ ٩٣ /١٣٧.

٣) موجبات الفتنة وبواعثها:

الغنى،

الولد،

حسن المقال،

السوق،

الفقر،

الزوجة،

خفق النعال.

«مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ وَآخِرُهَا فَنَاءٌ فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ»[١].

«إِنْ اسْتَغْنَى بَطِرَ وفُتِنَ، وإِنْ افْتَقَرَ قَنِطَ ووَهَنَ»[٢].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: يَا عَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ[٣].

«وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ وَأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ»[٤].

«أينَ الأممُ الذين فَتَنْتِهِم بزَخارِفِكِ فهاهُمْ رَهائِنُ القُبُورِ ومضامينُ

---

(١) خ ٨٢ /١٠٦.

(٢) م ١٥٠ /٤٩٨.

(٣) خ ١٥٦ /٢٢٠.

(٤) خ ١٩١ /٢٨٤-٢٨٥.

اللُّحُودِ»(١).

«فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمُ وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إِمَّا دَاعِيَ اللهِ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لَهُ وَإِمَّا رِزْقَ اللهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ وَإِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ»(٢).

«فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ وَالِاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالِاقْتِدَارِ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ»(٣).

ولما رجع عليه السلام للكوفة قادماً من صفين خرج إليه حرب بن شرحبيل الشبامي، وكان من وجوه قومه وأقبل يمشي معه، وهو عليه السلام راكب فقال له: «ارْجِعْ فإن مَشْيَ مِثْلِكَ مع مِثْلِي فتنةٌ للوالي، ومَذَلّةٌ

(١) ك ٤٥ /٤١٩.

(٢) خ ٢٣ /٦٤.

(٣) خ ١٩٢ /٢٩١.

للمؤْمِنِ»[١].

«وإيـاكَ ومَقاعِـدَ الأسـواقِ، فإنهـا محـاضرُ الـشيطانِ ومعـاريضُ الفِتَنِ»[٢].

«كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بالإحسان إليه، ومغـرورٍ بالـسترِ عليـهِ، ومفتـونٍ بحُسْنِ القولِ فِيه»[٣].

«رُبَّ مفتونٍ بحُسْنِ القولِ فِيه»[٤].

وفي حديثـه عـن نبـي الله عيـسى عليه السلام قـال: «وَلَمْ تَكُـنْ لَـهُ زَوْجَـةٌ تَفْتِنُهُ»[٥].

٤) الجاهلية والفتنة:

«أَرْسَلَهُ -الله- بِالدِّينِ المَشْهُورِ وَالْعَلَـمِ المَـأْثُورِ وَالْكِتَـابِ المَـسْطُورِ وَالنُّـورِ الـسَّاطِعِ وَالـضِّيَاءِ اللاَّمِـعِ وَالْأَمْـرِ الـصَّادِعِ إِزَاحَـةً لِلـشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيراً بِالْآيَاتِ وَتَخْوِيفـاً بِـالمَثُلاَتِ وَالنَّـاسُ فِي فِـتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ وَضَاقَ المَخْرَجُ وَعَمِيَ المَصْدَرُ فَالْهُدَى خَامِلٌ وَالْعَمَى شَـامِلٌ عُـصِيَ

---

(١) م ٣٢٢ /٥٣٢.

(٢) ك ٦٩ /٤٦٠.

(٣) م ١١٦ /٤٨١.

(٤) م ٤٦٢ /٥٥٦.

(٥) خ ١٦٠ /٢٢٧.

الرَّحْمَنُ وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ وَخُذِلَ الْإِيمان فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُكُهُ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ وَقَامَ لِوَاؤُهُ فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ»[١].

٥) حذار مخالب الفتنة وأشراكها:

«وَتَبَيَّنُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا وَظُهُورِ كَمِينِهَا وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا وَمَدَارِ رَحَاهَا تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ وَتَئُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ شِبَابُهَا كَشِبَابِ الْغُلَامِ وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ[٢] يَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ»[٣].

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ وَالْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقامة وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ وَتَدُقُّ أَهْلَ

---

(١) خ ٢ /٤٦ـ٤٧.

(٢) السِّلام: الحجارة الصمّ تَحْطِمُ البدن وترضّه.

(٣) خ ١٥١ /٢١٠.

الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ وَيُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ تُقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ بَرِيئُهَا سَقِيمٌ وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ منها: بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِغُرُورِ الْإِيمَانِ»[1].

«فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ وَالْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ وَاقْدَمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ»[2].

٦) مفتونون:

معاوية

«فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ»[3].

الكبراء

(١) خ ١٥١ /٢١٠ـ٢١١.

(٢) خ ١٥١ /٢١١.

(٣) ك ٦٤ /٤٥٤.

«أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ وَأَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ وَجَاحَدُوا اللهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ وَمُغَالَبَةً لِآلَائِهِ فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ»(١).

من وُكِلَ إلى نفسه

«إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللهِ رَجُلَانِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ... وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا مُوضِعٌ فِي جُهَّالِ الْأُمَّةِ عَادٍ فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ مَاءٍ آجِنٍ وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِياً ضَامِناً لِتَخْلِيصِ مَا الْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ ثُمَّ قَطَعَ بِهِ فَهُوَمِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ لَا يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالَاتٍ عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ لَمْ يَعَضَّ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ يَذْرُو الرِّوَايَاتِ ذَرْوَ الرِّيحِ الْهَشِيمَ لَا مَلِيٌّ وَاللهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ وَلَا أَهْلٌ لِمَا قُرِّظَ بِهِ لَا يَحْسَبُ الْعِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ وَلَا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ

---

(١) خ ١٩٢ /٢٨٩-٢٩٠.

جَهْلِ نَفْسِهِ تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدِّمَاءُ وَتَعَجُّ مِنْهُ المَوَارِيثُ إِلَى اللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالًا وَيَمُوتُونَ ضُلَّالًا لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ وَلَا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلَا أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ المَعْرُوفِ وَلَا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ..»[(١)].

الجاهل

«وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا مُوضِعٌ فِي جُهَّالِ الْأُمَّةِ عَادٍ فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ»[(٢)].

الضُّلاَّل

«قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً»[(٣)].

٧) ابتلاء الإمام بفتن العباد والبلاد:

البصرة – والخطبة من خطب الملاحم

«فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ لَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ وَلَا تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ

---

(١) خ ١٧ /٥٩.

(٢) م ن.

(٣) خ ١٥٤ /٢١٥.

قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ الله قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ فِي الْأَرْضِ مَجْهُولُونَ وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذَلِكِ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ الله لَا رَهَجَ لَهُ وَلَا حَسَّ وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ وَالْجُوعِ الْأَغْبَرِ»[1].

فتنة بني أمية

أ) «أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ الله وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا وَاشْتَدَّ كَلَبُهَا فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ وَلَا عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا وَمُنَاخِ رِكَابِهَا وَمَحَطِّ رِحَالِهَا وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلًا وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الْأُمُورِ وَحَوَازِبُ الْخُطُوبِ لَأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ وَذَلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ وَضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّامَ الْبَلَاءِ عَلَيْكُمْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الْأَبْرَارِ مِنْكُمْ إِنَّ الْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ يُنْكَرْنَ مُقْبِلَاتٍ وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِبْنَ بَلَداً وَيُخْطِئْنَ بَلَداً أَلَا وَإِنَّ أَخْوَفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطَّتُهَا وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا وَأَصَابَ الْبَلَاءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا وَأَخْطَأَ الْبَلَاءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا وَأَيْمُ الله لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ الضَّرُوسِ تَعْذِمُ بِفِيهَا وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا وَتَزْبِنُ

---

(١) خ ١٠٢ /١٤٨.

بِرِجْلِهَا وَتَمْنَعُ دَرَّهَا لَا يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّى لَا يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلَّا نَافِعاً لَهُمْ أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ وَلَا يَزَالُ بَلَاؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ انْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كَانْتِصَارِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ وَالصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى وَلَا عَلَمٌ يُرَى نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْهَا بِمَنْجَاةٍ وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ ثُمَّ يُفَرِّجُهَا اللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ الْأَدِيمِ بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لَا يُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ وَلَا يُحْلِسُهُمْ إِلَّا الْخَوْفَ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ الْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلَا يُعْطُونِيهِ»[١].

ب) «لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا وَبَدَا مِنَ الْأَيَّامِ كُلُوحُهَا وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ هَذَا وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ»[٢].

ج) لما اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على عثمان وسألوه مخاطبته واستعتابه لهم، فدخل عليه فقال:

---

(١) خ ٩٣ /١٣٧_١٣٨.

(٢) خ ١٠١ /١٤٧.

«فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ هُدِيَ وَهَدَى فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا .

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السِّنِّ وَتَقَضِّي الْعُمُرِ»[١].

د) وخطب عليه السلام:

«مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ».

هـ) وكتب إلى عبد الله بن العباس

«وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالإحسان إِلَيْهِمْ وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ».

---

(١) خ ١٦٤ /٢٣٤_٢٣٥.

٨) **الموقف في الفتنة والنجاة منها:**

أ) «كُنْ في الفتنةِ كابنِ اللبونِ، لا ظَهْرَ فيُرْكَبُ ولا ضَرْعَ فيُحْلَبُ»[(١)].

ب) وقال بعد أن قُبض رسول الله ﷺ وبويع أبوبكر في السقيفة:

«أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ وَضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ هَذَا مَاءٌ آجِنٌ وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا جَزِعَ مِنَ الْمَوْتِ هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي، وَاللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ»[(٢)].

ج) «قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ نَحْنُ الشِّعَارُ وَالْأَصْحَابُ وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً»[(٣)].

د) «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ وَنُوراً مِنَ

---

(١) م ١ /٤٦٩.

(٢) خ ٥ /٥٢.

(٣) خ ١٥٤ /٢١٥.

الظُّلَمِ»[١].

٩) رب مفتون لا يعاتب:

«ما كُلُّ مفتونٍ يُعاتَبُ»[٢].

١٠) استعاذة ودعاء:

أ) «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ»[٣].

ب) «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ وَلَكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ»[٤].

«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ... إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ»[٥].

«اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ وَلَا تَبْذُلْ جَاهِيَ بِالْإِقْتَارِ فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ إِنَّكَ عَلى كُلِّ

---

(١) خ ١٨٣ /٢١٦.

(٢) م ١٥ /٤٧١.

(٣) خ ٢١٥ /٣٣٢.

(٤) م ٩٣ /٤٨٤.

(٥) خ ١٧١ /٢٤٥.

شَيْءٍ قَدِيرٌ»[١].

وختم خطبته في فضل الإسلام والثناء على رسول ﷺ بقوله ﷺ:

«وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَادِمِينَ وَلَا نَاكِبِينَ وَلَا نَاكِثِينَ وَلَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ وَلَا مَفْتُونِينَ»[٢].

---

(١) خ ٢٢٥ /٣٤٨.

(٢) خ ١٠٦ /١٥٤.

البدعة

ولقد أقام الله دينه، وأحكم شرائعه، وأنـزل في ذلـك قرآنـاً كـريماً، فحلال محمدٍ حلال إلى يوم القيامـة، وحرامـه حـرام إلى يـوم القيامـة ولا كتاب بعد قرآن الله ولا سـنة بعـد رسـول الله ﷺ ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ﴾[1]، ﴿ قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾[2].

هذا هو الحق وهذه هي السنة، وما سوى ذلك ضلال وبدعة.

وللوقوف على بواعث البدعة وأسباب نشوئها، ومـدى تغلغلهـا في نفوس الجاهلين، ووخيم نتائجها نستلهم من إمـام الحـق ومميـت البدعـة الهدى والبصيرة.

١) أسبابها:

«إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ

---

(١) سورة يونس /٣٢.

(٢) سورة يونس /٥٩.

انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى»[١].

ما أجلَّ هذا النص وأجمعه! فمن عوامل نشوب الفتن الأهواءُ الزائفة التي تعصف بالأمة وتلفها بضلالها، وكذلك الأحكامُ المبتدعة المنطلقة من المنحرفين عن شرع الله وسنّة رسوله ﷺ.

وسواء الأهواءوالبدع في انبثاق شرهما من مخالفة كتاب الله الذي يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، ومن موالاة ذوي النفوذ من أهل الباطل والضلال، فمن كان على غير دين الله فماذا منه يرتجى؟!

ثم كشف الإمام عليه السلام عن دقيق المعنى وخبيئة الأمر، وأن القضية كثيراً ما تنطلي حقيقتها بما يغشاها من (الشبهة) وإلباسها رداء الدين وهنا مرتع الشيطان ومصيدته وشباكه وشراكه، وذلكم البلاء والعطب وعذاب في جحيم الآخرة ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[٢] وأمّا المعتصمون بالله فقد ضمن لهم الجنة ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٣].

---

(١) خ ٥٠ /٨٨.

(٢) سورة الأنبياء /١٠٠.

(٣) سورة الأنبياء /١٠١.

٢) وخيم عواقبها:

«إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ الله عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا وَالله لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ»[1].

صدّر الإمام عليه السلام خطابه -وقد كان عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة- بالتأكيد على هداية الله لعباده إذ بعث فيهم رسوله بكتابه عصمةً لهم من الضلالة والزيغ واتباع البدعة والهوى.

ثم أبان عن البدعة المهلكة وهي: ما غُلفت بصورة الحقيقة فينطلي زيفها، بخلاف البدعةالصلعاء فإنها مُعرّاة.

وموطن النص شاهد صدق على ذلك، فقد غُمَّ الأمر واستولت الحيرة على أمة من الناس لأنهم يرون قوّاد الجيش وأركان الحرب فئة من الصحابة يحوطون زوج رسول الله (أم المؤمنين!!) تجدُّ بهم ويجدُّون بها السير لحرب إمام المؤمنين وخليفة المسلمين ومن له البيعة في أعناقهم.

أجل هنا مكمن الابتلاء، وموطن الضلال إلا ما رحم الله وحفظ من العقول والنفوس بالفكر والإيمان والاعتصام بسلطان الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

---

(١) خ ١٦٩ /١٤٣_١٤٤.

كَافِرِينَ ﴾[1].

٣) من الموبقات المهلكات:

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْداً وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لَاقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ... أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ»[2].

وأي موبقة أعظم، وأي هلاك مدمّر من أن يبتدع في دين الله إنجاحاً لدنيّة في دنياه فيتخذ من دين الله مطيّة لبدعته ومآربه؟!

٤) الناس صنفان متبع ومبتدع:

أ) «وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ فَاتَّقُوا الْبِدَعَ وَالْزَمُوا الْمَهْيَعَ إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا»[3].

ب) «وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ»[4].

فالقضية محصورة بهذين القبيلين، فإما أن يكون مُتَّبِعًا شرعة الله فقد

---

(١) سورة آل عمران /١٠١.

(٢) خ ١٥٣ /٢١٤.

(٣) خ ١٤٥ /٢٠٢.

(٤) خ ١٧٦ /٢٥٤.

هُدِيَ إلى سواء السبيل، وإما أن لا يكون فهو على بدعة قد ضل السبيل يتخبّط في طخياء ليس على بينة من أمره، ولا نور يهديه إلى معالم طريق الحق.

وقد صدّر الإمام عليه السلام هذا المقطع (تحريم البدع) بثبات المؤمن على الالتزام والأخذ بأحكام الله وعدم التلوّن في ذلك كمن ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ فهو على يقين بأن «الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللهُ»[١].

٥) محيو السنن ومميتو البدع:

أ) الإمام العادل:

«فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ الله عِنْدَ الله إِمَامٌ عَادِلٌ هُدِيَ وَهَدَى فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ»[٢].

وقد كان هذا من حديثه لما اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على عثمان فدخل عليه وخاطبه وعاتبه.

ب) خالصو الإيمان:

«أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ

---

(١) خ ١٧٦/ ٢٥٤.

(٢) خ ١٦٤/ ٢٣٤.

فَاتَّبَعُوهُ»(١).

«أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ أَيْنَ عَمَّارٌ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ»(٢).

---

(١) خ ١٨٢ /٢٦٤.

(٢) خ ١٨٢ /٢٦٤.

١ ـ عمّار بن ياسر رضي الله عنه:

من أوائل الصحابة إسلامًا، ومن الذين عُذّبوا في سبيل الله، حتى ألقته قريش في النار فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا نار كوني بردًا وسلامًا على عمّار كما كنت بردًا سلامًا على إبراهيم. فلم يصبه منها مكروه. وقتلت قريش أبويه. ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة. وعمّار رضي الله عنه أخو أم سلمة رضي الله عنها من الرضاعة.

وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معرِّضًا ببعض الصحابة: ما لهم ولعمّار، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إن عمّار جلدة ما بين عيني وأنفي.

ومن أقواله صلى الله عليه وآله وسلم فيه رضي الله عنه: كثير خيره، ضيء نوره، عظيم أجره.

ائذنوا للطيب ابن الطيب.

إنه من يعادي عمّارًا يعاديه الله، ومن يبغض عمّارًا يبغضه الله.

عمار ملئ إيمانًا إلى مشاشه.

وعده فيمن تشتاق إليهم الجنة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: تقتله الفئة الباغية.

قتل يوم صفين.

وآخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين عمّار وحذيفة بن اليمان.

قال لعائشة بعد الجمل: يا أم المؤمنين ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك، قالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قالت: والله إنك ما علمت قوّال بالحق.

شهد بدرًا وذكروا قتلاه يوم بدر، وشهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أحد القادة

٦) مبتدعون:

أ) الإمام الجائر:

«وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا وَإِنِّي أُنْشِدُكَ اللهَ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولَ فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا وَيَبُثُّ الْفِتَنَ

يوم صفين.

أعيان الشيعة ج١ ومعجم رجال الحديث ج١٣، وتفسير مجمع البيان ٢٥١/١٠ بتلخيص.

٢ـ أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه:

صحابي أنصاري، ثالث من أسلم من الأنصار، شهد بدرًا، وكان هو وخزيمة ذو الشهادتين وأربعة من الأنصار ممن احتجّ على تأخير أمير المؤمنين عليه السلام عن الخلافة. شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام الجمل وصفين وقتل فيها.

أعيان الشيعة ج١.

٣ـ ذو الشهادتين رضي الله عنه:

خزيمة بن ثابت الأنصاري، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وكانت راية قبيلته خطمة معه يوم فتح مكة، سمي ذا الشهادتين لأن رسول الله صلى الله عليه وآله جعل شهادته كشهادة رجلين. وهو من رواة الأحاديث.

وكان من القادة يوم الجمل في ألف فارس، وله شعر جيد في أمير المؤمنين والحسنين ومحمد بن الحنفية عليهم السلام.

قتل يوم صفين سنة ٣٧هـ.

أعيان الشيعة ج١، ج٦.

فِيهَا فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً»[١].

ب) معاوية:

«فَسُبْحَانَ الله مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ الَّتِي هِيَ لله طِلْبَةٌ وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ وَالسَّلَامُ»[٢].

وكتب له أيضاً:

«إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لله رِضًا فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَّاهُ اللهُ مَا تَوَلَّى»[٣].

واحتجاج الإمام عليه السلام إفحام وإلزام، وافٍ بالغرض، كفيل بالفلج كما هو معلوم من منهج القوم في إثبات الإمامة وحكم الخارج عنها، وإلاّ فالإمام على بيّنة من ربه، ويقين من أمره أن إمامته من الله سبحانه لا من

---

(١) خ ١٦٤ /٢٣٥.

(٢) ك ٣٧ /٤١٠.

(٣) ك ٦ /٣٦٦-٣٦٧.

خلقه.

وحوادث محنة الخلافة والاستخلاف وشؤونها وشجونها تفصح عن رأي كل قبيل، وتثبت مجتمعة حق الإمامة والإمام وترغم الخصم على الإذعان والاعتراف بذلك إن جنح إلى الطاعة ولم يخرج عن الجماعة.

ج) ناكثو البيعة:

«يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي مَنْ دَعَا وَإِلَامَ أُجِيبَ وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ الله عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ»(١).

د) علماء السوء:

«وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلَّالٍ وَنَصَبَ لِلنَّاسِ أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ يُؤْمِنُ النَّاسَ مِنَ الْعَظَائِمِ وَيُهَوِّنُ كَبِيرَ الْجَرَائِمِ يَقُولُ أَقِفُ عِنْدَ الشُّبُهَاتِ وَفِيهَا وَقَعَ وَيَقُولُ أَعْتَزِلُ الْبِدَعَ وَبَيْنَهَا اضْطَجَعَ فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ وَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ»(٢).

---

(١) خ ٢٢ /٦٣.

(٢) خ ٨٧ /١١٩.

٧) المبتدع أبغض الخلق إلى الله:

«إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللهِ رَجُلَانِ رَجُلٌ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ بِدْعَةٍ وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ افْتَتَنَ بِهِ ضَالٌّ عَنْ هَدْيِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مُضِلٌّ لِمَنِ اقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ»[١].

٨) طوبى للمؤمن الحق:

«طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَطَابَ كَسْبُهُ وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى الْبِدْعَةِ»[٢].

---

(١) خ ١٧ /٥٩.

(٢) م ١٢٣ /٤٩٠.

الغيبة

وهـي مـن متفـاقم الأمـراض الاجتماعيـة، وشر خـصال الـنفس الإنسانية. يحوك الخاطر السوء سوءاً فلا يقر له قرار حتى يلفظـه في محفـل وقد ارتاح بما أزاح من علته، وقذفه من خبيثه وقد هتـك بـه حرمـات الله حيث استباح عرض أخيه المؤمن وأكل لحمه ولم يرعَ له حرمة ولم يحفظ لـه غَيبة ولم يدخر له كرامة.

ويتناول الإمام حديث الداء العضال والمرض الفتـاك بنظـرة المـربي الإلهي الخبير والحكيم البصير فينفذ إلى الأعـماق فكـرة وهـدياً وإصـلاحاً وعلاجاً، فاستمع إلى ما يُتلى عليك من الحق عبر النقاط التالية:

الأولى: موقف المطيعين من العصاة:

«وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي الـسَّلَامَةِ أَنْ يَرْحَمُـوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُـوَ الْغَالِـبَ عَلَـيْهِمْ وَالْحَـاجِزَ لَهُـمْ عَنْهُمْ»[1].

فهم فئتان: معافاة ومبتلاة.

---

(١) خ ١٤٠ /١٩٧.

وجدير بأهل العافية من الذنوب والسلامة من العيوب أن يعرفوا عظيم توفيق الله لهم، وجليل نعمته عليهم، وتجلي ذلك قلباً وقالباً فيهم.

أ) رحمة أهل الطاعة أهل الذنوب والمعصية.

ب) شكرهم الغامر للنعمة السابغة.

ج) أن يكون صلاحهم حاجزاً لهم عن الخوض في شأنهم.

الثانية: الغيبة عيب أكبر:

«فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ»[١].

فإذا كان اللائق بشأن المعافى تجاه المبتلى ما مر ذكره من التحلي بطيب الذات وكريم الخلق، فكيف إذا خرج وتجاوز الحد فاشتغل عائباً، ولمن؟! «أخاه»، ومعيراً له بـ «بلواه» متجرداً بذلك عما تقتضيه الإنسانية وتوجبه الأخوة مماثلاً بذلك صنيع العدو الشامت.

الثالثة: حواجز وموانع الاغتياب:

«أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ الله عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللهَ فِيمَا سِوَاهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ وأَيْمُ الله لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ لَجَرَاءَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ»[٢].

---

(١) م ن.

(٢) م ن.

فليُعْنَ العاقل بشأن ذاته، وليكن همه خاصة نفسه، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيب سواه، فطالما ستر الله عيباً وأخفى فاضحة، ولم يشهر مرتكبها بين الملأ، فكيف بهذا يجهد في إسقاط غيره بما لا يرضاه لنفسه، أما في ذلك ذكرى لمدكر وعبرة لمعتبر!

ويوغل الإمام عليه السلام في التذكير والتوجيه فينفذ إلى أعماق طبيعة الإنسان ودخيلته فإن ذاكر أخيه بسوء ومعيّره بعيب لا يخلو من ذنب ارتكبه أو جرم اقترفه إن لم يكن مثل ما نبز به أخاه عيناً فهو قد عصى الله بغير ذلك فهو في واقعه من أهل معصية الله.

بل وإن ألمّ بذنب صغير ولم يجترح كبيراً فليس ذلك بمجرده من العيب، ولا بمبيح له الوقوع في الغير، ألا يدري أن إقدامه وجراءته على النيل من الناس بنشر عيوبهم أعظم عيباً وأكبر ذنباً.

الرابعة: تحذير وتبصير:

«يَا عَبْدَ الله لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ»[١].

ترويض للنفس العجِلة الوثابة، ودعوة حكيمة لعقل صاحبها ليكبح جماحها، فالعاقل لا يوقع نفسه في ورطة غيره فقد يسلم الغير

---

(١) م ن.

ويبقى هو المبتلى، وربما كان أمر السلامة خفياً وقد تاب الجاني توبة نصوحاً وآب إلى ربه منيباً فغفر له ذنبه وتجاوز عن خطيئته فصحيفته بيضاء.

وهذا العَجِل يطلق لسانه ويكشف ما عنه الله ستر وله غفر فمحي الذنب عن ذاك وسُجل على هذا فصحيفته سوداء.

والعاقل يأخذ نفسه بالتقصير دائماً، ولا يستهنين صغير ذنب فشر الذنب ما استهان به صاحبه فيربو حتى يكون كبيراً.

إذاً فالعقل يحكم والحكمة تقضي بأن المرء لا يخلو من وضعين:

أ) مبتلى بعيب:

فليكن همه إصلاح عيبه وسد خلله، وتدارك تقصيره.

ب) معافى:

فهو في نعمة فليشكر المولى المنعم عيها حيث عافاه مما ابتلى به غيره.

الخامسة: حكم سماع الغيبة:

«أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي وَتُخْطِئُ السِّهَامُ وَيُحِيلُ[1] الْكَلَامُ وَبَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ فسُئل عليه السلام عن معنى قوله هذا فجمع أصابعه ووضعها بين

(١) يحيل: يتغير عن وجه الحق.

أذنه وعينه، ثم قال: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ»[١].

والحق إنه ميزان دقيق، فالغالب على طباع الناس وأوضاعهم إصغاؤهم للقالة وأهل الإذاعة وفي ذلك خطر عظيم فالعواطف لا تضبط، والانفعالات لا تقف عند حد، وربما كان إفراز ذلك غلطاً وإبرازه شططاً فإذا ما أصغى إليه السامع ورتّب عليه أثراً فَحُشَ الغلط وعَمَّ الشطط.

وفي تصوير الإمام عليه السلام الحق والباطل محسوساً تأكيد على لزوم الدقة وتحري الحق «الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ»[٢].

وهذه نظرة أخلاقية اجتماعية مهمة قويمة.

وأما حديث البينة والشهادات وجرح الشهود وما إلى ذلك من شؤون الفقه ومسائله فلا تنافي بينه وبين الخلق الكريم الفاضل ولكلٍ بابه ومجاله.

السادسة: جهد العاجز وسلاح الضعيف:

أ) «وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ»[٣].

---

(١) خ ١٤١ /١٩٧ـ١٩٨.

(٢) خ ١٤١ /١٩٨.

(٣) خ ٩٨ /١٤٣ـ١٤٤.

ب) «الْغِيبَةُ جُهْدُ الْعَاجِزِ»(١).

والجملة الثانية بيان للأولى، فالعبد وهوانه على مولاه وبطش مولاه به وشدته عليه تضطره لإطاعته حاضراً، فإذا ما استراح من مشهده نفّس عن بلواه بالوقيعة فيه فهو لا يملك سوى ذلك متنفّساً.

وهكذا شأن كل مغتاب فهو عاجز أن يصنع شيئاً إصلاحاً أو رداً لمن ذكره بسوء، وغاية جهده وقصارى قدرته أن ينفّس عن نفسه بثلبه في مغيبه.

هذا وكما ألمحت آنفاً إنّ للمسألة بعداً فقهياً يراعى كما للجنبة الأخلاقية موطن يراعى، وبالله العصمة ومنه السداد.

---

(١) م ٤٦١ /٥٥٦.

البشاشة

«وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ[1] الْمَوَدَّةِ»[2].

وهي سمة أخلاق المؤمنين، بشره في وجهه وحزنه في قلبه، تعلـوهم البشاشة فيكسبون المودة، ويحققون بها مصالح خيّرة، وليست شعار نفـاق وعنوان إحتيال بل الحكاية عن أريحية الطباع ولين العريكة وسلامة الذات

وقد قيل:

بشاشةُ وجهِ المرءِ خيرٌ من القِرَى.

(١) الحبالة: شبكة الصيد.

(٢) م ٦ /٤٦٩.

الاحتمال

أ) «وَالْاحتمالُ قَبْرُ العُيُوبِ»[1].

فالإيذاء عيبٌ، والبرم به، ومقابلته بمثله بلاء ومحنة وشقاء وفتنة، وتجرع غصصه وكتمانه دفع له ومنع من الإظهار وسوء مقابلته بالانتشار.

ب) «وَبِاحتمال المُؤَنِ[2]، يَجِبُ السُّؤْدَدُ[3]»[4].

فاحتماله لمؤنة نفسه شرف في ذاته ولدى غيره حيث لم يلقِ على أحد كَلَّه ولا حمّله ثقله.

واحتماله لمؤنة سواه إزاحة لعلّته وحمل أعبائه تستوجب شكراً وذكراً ورفعة وامتيازاً وذلكم هو الشرف والسؤدد لدى الناس منبعثًا من طيب الذات وسمو النفس.

ج) وليتخلق به الحاكم:

---

(١) م ٦ /٤٦٩.

(٢) المؤن: جمع مؤنة: القوت.

(٣) السؤدد: الشرف.

(٤) م ٢٢٤ /٥٠٨.

«وَاجْعلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً، فَتَتَواضَعُ فِيهِ للهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقعِدَ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ». ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ[1] مِنْهُمْ وَالْعِيَّ[2]»[3].

فهو أولى من يتحلى بخلق الاحتمال غير ضجر ولا متبرم بما يلقى من عنت وجفاء من رعيته بل يحتملهم ويتحملهم بقوة صبره وسعة حلمه.

د) ومن ثمار خيره:

١- «فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ»[4].

وذاك نتاج غرس الخلق الكريم من الوالي فينتج ثمراً طيباً في الرعية.

٢- الفرج والرخاء بعد الشدة والبلاء:

«حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، والْاحتمال لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاَءِ فَرَجاً»[5].

---

(١) الخُرق: العنف وعدم الرفق.

(٢) العي: العجز عن النطق.

(٣) ك ٥٣ /٤٣٩.

(٤) ك ٥٣ /٤٣٦.

(٥) خ ١٩٢ /٢٩٦-٢٩٧.

هـذا وللرجـوع إلى مـادة (حمـل) ومـشتقاتها فـيما يتـصل والطبـاع والخلائق أثر وأهمية للتوسع يراجع (المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغـة ٤٧٣/ ٤٧٦).

المخالطة

«خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ»[1].

وإن ذلك لميزان دقيق ومقياس عادل قويم في معاشرة المجتمع فيما بينهم، بحفظ الحقوق وتعاهد الواجبات، ورعاية أدب العشرة وإنزال الناس منازلهم.

ومن رعى ذلك وراعى أحبته القلوب، ومالت إليه النفوس فحنت لقربه، ورغبت في صلته، ونشرت مدحته وجميل خصاله وخير فعاله.

وإن اخترمه المنون ورحل إلى عالم آخر عزّ عليها فقده، وحزنت لفراقه، وذرفت عليه دمعة، وحفظت له حسن الذكر وجميل الأحدوثة.

وإنما المرءُ حديثٌ بَعْدَهُ   فكنْ حديثًا حسنًا لمن روى

---

(١) م ١٠ / ٤٧٠.

الأخوة وحقوقها

وليس الحديث عنها من وشيجة الرابطـة الرحميـة، وإنـما المعنـي بهـا العلاقة الإنسانية والإجتماعية، وإن كانت الأولى آكد وأشد ثبوتاً.

وهي التي أشاد بفضلها قرآن الله العظيم، وامتـدح رسـوله الكـريم بالتوفيق في إقامتها وإنجاحها:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْـتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِـنَّ اللهَ أَلَّـفَ بَيْـنَهُمْ إِنَّـهُ عَزِيـزٌ حَكِيم﴾[1].

وقال -عظمت نعمته-: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْـدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[2].

وقال الإمام عليه السلام في حديثه عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

«دَفَنَ اللهُ به الضغائِنَ، وأَطْفَأَ بهِ الثوائِرَ، أَلَّفَ بـه إِخوانًـا، وفـرَّقَ بـهِ

(١) سورة الأنفال /٦٢ـ٦٣.

(٢) سورة آل عمران /١٠٣.

أقرانًا، أَعَزَّ به الذِّلَّةَ، وأَذَلَّ بِهِ العِزَّةَ»[١].

«فإِنَّ حقًّا على الوالي أَلاّ يُغَيِّرَهُ على رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نالَهُ، ولا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وأَنْ يَزِيدَهُ ما قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبادِهِ، وعَطْفًا على إِخوانِهِ»[٢].

ونظرًا لعناية التربية الدينية بتلكم الصلة وعوامل إحكامها وعلاج إنفصام عراها عُني بها الإمام عليه السلام فأدار بصره في وافر من شؤونها مرشداً هادياً موجهاً ناصحاً.

فلنسترشد بهديه وتوجيهه الناصح.

١) الرعية صنفان:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ»[٣].

«فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِي أَلاَّ يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلاَ طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ»[٤].

---

(١) خ ٩٦ /١٤١.

(٢) ك ٥٠ /٤٢٤.

(٣) ك ٥٣ /٤٢٧.

(٤) ك ٥٠ /٤٢٤.

ويحمل هذا النص الشريف روحاً كريمة يعم خيرها وينقبض الشر عنها لكافة من ولي الوالي أمرهم برهم وفاجرهم معللاً ذلك كله بعاملين:

(الأخوة، النظير) وهما وإن تفاوتا شأناً ومقاماً إلا أن الخلق الكريم والحق الإنساني يشملهما ويشرّك بينهما.

ولا يلغي ذلك ما تحلى به الأخ المؤمن، وتخلى عنه النظير الكافر بما يوجب امتياز أحدهما عن الآخر كما فصلته الأحكام الإلهية.

ويمثل النص قاعدة واسعة عريضة لأسلوب التعامل قوامها الحق وجوهرها العدل وروحها العطف واللطف.

٢) حقوق الأخوة وآداب رعايتها:

«احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ[١] عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ[٢] عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُونِعْمَة عَلَيْكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ، لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَمْ قَبِيحَةً»[٣].

«وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ

---

(١) الصرم: القطيعة.

(٢) الجمود: البخل.

(٣) ك ٣١ /٤٠٣.

بَدَا لَهُ ذلِكَ يَوْماً مَّا»[١].

«وَلاَ تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّه»[٢].

«وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلاَ تكُونَنَّ على الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإحسان»[٣].

مقياس الأخوة الإيمانية ومثلها:

«كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ فَلاَ يَشْتَهِي مَا لاَ يَجِدُ وَلاَ يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً فإِنْ قَالَ بَذَّ الْقَائِلِينَ وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً! فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ غَابٍ وَصِلُّ وَادٍ لاَ يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً، وَكَانَ لاَ يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ، وَكَانَ لاَ يَشْكُو وَجَعاً إِلاَّ عِنْدَ بُرْئِهِ، وَكَانَ يقُولُ مَا يَفْعَلُ وَلاَ يَقُولُ مَا لاَ يَفْعَلُ، وَكَانَ إِذَا غُلِبَ عَلَى الْكَلاَمِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَكَان إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إلى الْهَوَى فيُخَالِفُهُ. فَعَلَيْكُمْ بِهذِهِ الْخَلاَئِقِ فَالْزَمُوهَا وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ»[٤].

---

(١) ك ٣١/ ٤٠٣.

(٢) ك ٣١/ ٤٠٣.

(٣) ك ٣١/ ٤٠٣.

(٤) م ٢٨٩/ ٥٢٦.

وقال ﷺ في الصالحين من أصحابه:

«أَنْتُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ، وَالْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ، بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ، فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ؛ فَوَ اللهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!»[1].

أخوة الباطل:

«صَدَّقَهُ (الشيطان) بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ»[2].

«إن شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ، فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ»[3].

وهذه مجامع آداب وجماع حقوق، وخير علاج لما يعرض علائق الأخوة ويشوبها من كدر، تستبطن الخفايا، وتنفذ في الأعماق لو روعيت لأقامت بناء المجتمع على أتم إحكام.

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ ... على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ ... وإنْ أنت أكرمتَ اللئيمَ تمَرَّدا

---

(١) خ ١١٨ /١٧٥.

(٢) خ ١٩٢ /٢٨٧ـ٢٨٨.

(٣) ك ٥٣ /٤٣٠.

«عَاتِبْ أَخَاكَ بِالإحسان إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ»[١].

«وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ! أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مَنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ!»[٢].

«لاَ يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلاَثٍ: فِي نَكْبَتِهِ، وَغَيْبَتِهِ، وَوَفَاتِهِ»[٣].

و ذلك عنوان الأخوة الصادقة والصداقة الحقة فيحفظه شاهداً حياً وميتاً.

«إِذَا احْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ»[٤].

وليس معنى ذلك توقيره وإجلاله فهو من المعروف، وإنما هو إغضابه، وإخجاله وكل ما هو مظنّة إبعاده ومفارقته.

«شَرُّ الْإِخْوَانِ مَنْ تُكُلِّفَ لَهُ»[٥].

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَتُخْطِيءُ السِّهَامُ،

---

(١) م ١٥٨ / ٥٠٠.

(٢) خ ١٤٠ /١٩٧.

(٣) م ١٣٤ /٤٩٤.

(٤) م ٤٨٠ /٥٥٩.

(٥) م ٤٧٩ /٥٥٩.

وَيُحِيلُ الْكَلاَمُ[(١)]، وَبَاطِلُ ذلِكَ يَبُورُ، وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلاَّ أَرْبَعُ أَصَابعَ. فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ثمّ قال: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ!»[(٢)].

أرأيت كيف تتدفق الحكمة من منبعها، ويبرهن عليها بالحق والوجدان وضرب المثل، وبالغ الأنذار والتذكير، وعميق مراقبة الله مراقبة الله الحاضر الناظر في جمال البيان وجلال التصوير؟!

«أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجزَ عَنِ اكتساب الْإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ»[(٣)].

«وَإِنَّمَا أَنْتُم إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ الله، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمائِرِ، فَلاَ تَوَازَرُونَ، وَلاَ تَنَاصَحُونَ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ، وَلاَ تَوَادُّونَ»[(٤)].

«وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلاَّ مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ»[(٥)].

«فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ إلى الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ المَطَرِ إلى كُلِّ نَفْسٍ

---

(١) يُحيل: يتغير عن وجه الحق.

(٢) خ ١٤١ /١٩٧-١٩٨.

(٣) م ١٢ /٤٧٠.

(٤) خ ١١٣ /١٦٨.

(٥) خ ١١٣ /١٦٨.

بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلاَ تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً»[١].

أخو الحرب:

«وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الأَرِقُ[٢]، وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عنْهُ»[٣].

«أَجْزَأَ[٤] امْرُؤٌ قِرْنَهُ[٥]، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ»[٦].

«وَأَيُّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ»[٧].

التأوه على إخوان الصدق:

«مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ ـ وَهُمْ بِصِفِّينَ ـ أَلاَّ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ الْغُصَصَ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ![٨] قَدْ ـ وَاللهِ ـ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.

---

(١) خ ٢٣ /٦٤.

(٢) الأرق: الساهر.

(٣) ك ٦٢ /٤٥٢.

(٤) أجزأ: كفَّ.

(٥) القرن: الكفؤ.

(٦) خ ١٢٤ /١٨١.

(٧) خ ١٢٣ /١٧٩ـ١٨٠.

(٨) الرنْق: الكدر.

أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وَأَيْنَ ذُوالشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلى الْفَجَرَةِ؟

قال: ثمّ ضرب بيده إلى لحيته الشريفة الكريمة، فأطال البكاء، ثمّ قال عليه السلام:

أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوا»[1].

وحنّ إلى إخوانه الأماثل، فنعتهم أولاً بمآثرهم ثم تمنّى اللحوق بهم:

«مُرْهُ[2] الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ أُولَئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ وَنَعَضَّ الْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ»[3].

حسن العتاب وجميل رد الشر:

«عَاتِبْ أَخَاكَ بِالإحسان إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ»[4].

من يؤمّل فيه خلال الخير:

---

(١) خ ١٨٢ /٢٦٤.

(٢) مره: جمع أمره، كأحمر وحمر، فساد العين أو ابيضاض حمالتها.

(٣) خ ١٢١ /١٧٨.

(٤) م ١٥٨ /٥٠٠.

«إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ[١] رَائِقَةٌ فَانْتَظِرُوا أَخَوَاتِهَا»[٢].

(١) الخَلّة: الخَصلة.

(٢) م ٤٤٥ /٥٥٤.

العثرة وإقالتها

العثرة:

وقد جاء في النهج الشريف جمل تربوية تقي مراعاتها الوقوع في العثرات وتحمل على ما يجمل عند الابتلاء بها في خاصة المرء ذاته وما يراه من غيره.

١) الاسترسال في الأمل والعثرة بالأجل:

«مَنْ جَرَى فِي عِنَان أَمَلِهِ عَثَـرَ بِأَجَلِـهِ»[1]. فـإذا كـان يحـدوه الأمـل، ويمتلكه ويقوده حيث شاء دونما روية وتأمل فهو الغافل عمَّا يعترضه مـن مواطن السقوط والهلكة فإذا به في قبضة الأجل يباغته لا يسطيع خلاصـاً ولا يجد مناصاً يتفادى به الوقوع في الهوة السحيقة سواء منه ذلك في قـول أو فعل.

٢) الاتعاظ بعثرات الدنيا الزائلة:

«أَ فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيـهِ وَالرَّمْـضَاءِ

---

(١) م ١٩ /٤٧١.

تُحْرِقُهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ ضَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينَ شَيْطَانٍ أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ»[1].

فليكن فيما يرى ابن آدم في عوارض أيامه واعظاً ومزدجراً عمَّا هو معدٌّ له جزاء لسوء فعله وقبيح عمله.

٣) رهبة المؤاخذة على العثرات في البرزخ:

«حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ وَعَثْرَةِ الامْتِحَانِ»[2].

فالقبر صندوق العمل، وهو إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، يعود ويقعد حياً، ويسأل دقيقاً، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، وهناك الرهبة والحيرة وتجلي العثرة.

وهي الحالة المثيرة، والصورة المدهشة لكلٍ من الحي والميت المشيِّع والمشيَّع، يسلم الحي حبيبه إلى القبر وترابه مرتهناً بعمله مؤاخذاً بجريرته، ويرجع عنه مفرداً كما أسلمه مفرداً، ثم يؤتى به لمرقدٍ أضجع فيه صاحبه وخليله وكفى بالموت واعظاً وزاجراً.

٤) وعندها لا عثرة تقال:

«وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ وَمَدِينُونَ بِمَا

---

(١) خ ١٨٣ /٢٦٧.

(٢) خ ٨٣ /١١٣.

قَدَّمْتُمْ وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ فَلا رَجْعَةَ تَنَالُونَ وَلا عَثْرَةَ تُقَالُونَ»[١].

بلى والله:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢].

٥) حكومة من لا أهلية له مجمع العثرات:

«فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا وَيَخْشُنُ مَسُّهَا وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا وَالاعْتِذَارُ مِنْهَا»[٣].

فمن يكثر قوله يكثر زلله، فكيف بإدارة أمر الأمة، وحكم الرعية والشؤون جمة والقضايا شتى، وفي كل واقعة حكم يؤخذ عن الله ورسوله.

فأنَّى للقاصر الإحاطة بذلك، وأنَّى للجاهل القيام بوظائف الحق فيضطر إلى اللجوء إلى ركن غير وثيق، وعروة منفصمة، من استعمال البدع، وإعمال الرأي المخترع، وذلكم هو الضلال المبين، ودين الله لايصاب بالعقول، وإجهاد الرأي، والارتجال، فتطفح العثرات، وتستشري الهنات.

---

(١) خ ١٩٠ /٢٨٢.

(٢) سورة المؤمنون /٩٩ـ١٠٠.

(٣) خ ٣ /٤٨.

٦) إقالة الكرام:

«أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلا وَيَدُ اللهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ»(١).

فالمرء عرضة للمخالفة والوقوع في بلائها، والعصمة لمن عصمه الله منها، والكمال لمن وهبه ذلك، فإذا جنح امرؤ ذو مروءة لما ينقصه فليس من الحكمة العجلة في حقه فإن له من خلال الخير خير شافع، وإن زلت به قدم فقد ثبتت له أخرى، فهو بعين الله يرفعه حيث اتّضع.

أجل إن ذلك أسلوب في التربية قويم، وعامل في الحمل على الحق في الصميم، وذو المروءة جدير بأن يراعى فلا ينتظر منه إلا الخير، ولا يؤمل منه إلا ما يليق بالصبغة القائمة في خلاله وجميل خصاله.

هذا وقال الإمام عليه السلام:

«إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِقَةٌ فَانْتَظِرُوا أَخَوَاتِهَا»(٢).

٧) اليقظة والانقطاع إلى الله جل جلاله:

«وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ اللهَ عَثْرَةَ الْغَفْلَةِ»(٣).

وهذه الجملة الشريفة ختام حكمة بالغة بيّن فيها الإمام عليه السلام تردي أوضاع الناس وتقلب أحوالهم وذهاب دينهم، واستشراء الفتن والضلال

---

(١) م ٢٠ /٤٧١.

(٢) م ٤٤٥ /٥٥٤.

(٣) م ٣٦٩ /٥٤٠.

فيهم، وهم في غيهم سادرون، وعمَّا يحيق بهم ساهون غافلون، ولا منجى ولا عاصم إلا بالانقطاع إلى الله والاستقالة من مفتاح البلاء وهو العثرة والغفلة عن السقوط في الزلة.

«واجْعَلْ لِساني بِذِكْرِكَ لَهِجاً، وقَلْبِي بِحُبِّكَ مُتَيَّماً».

اللهف وإغاثة الملهوف

نحو من التعلق بشدة وشوق، واستنجاد ملح لكفاية مهمة عاجلة وسأجمع بين العنوانين لوحدة موضوعهما.

١) الله جل جلاله المفزع:

«كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ»[١].

٢) الأولياء بوليهم يتعلقون:

«اللهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَئُوا إِلَى الاستجَارَةِ بِكَ عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ»[٢].

---

(١) خ ١٠٩ /١٥٨.

(٢) خ ٢٢٧ /٣٤٩.

٣) تمايز المؤمن عن غيره في بذل المال ومصرفه:

الزكاة: «فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً فَلا يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ وَلا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ»(١).

والنص وإن جاء بعنوان الإرشاد والتوجيه لبذل المال في مورده بنفس طيبة وروح كريمة إلا أنه حاكٍ عن نمط ممن يقدم ماله ولكنه كمن يعتده مغرماً وثمرة مهدورة يكثر منه اللهف، ويعلو منه الحنين والأسف.

٤) وتلك عاقبة عشاق الدنيا:

«مَعَاشِرَ النَّاسِ اتَّقُوا اللهَ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مَا لا يَبْلُغُهُ وَبَانٍ مَا لا يَسْكُنُهُ وَجَامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ أَصَابَهُ حَرَاماً وَاحْتَمَلَ بِهِ آثَاماً فَبَاءَ بِوِزْرِهِ وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ آسِفاً لاهِفاً قَدْ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ»(٢).

٥) إغاثة الملهوف وعظيم خطرها:

«مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ»(٣).

فالملهوف يعيش محنته، يكابد فقراً، ويشكو ضراً، ويحيا مراً، وذلكم الفقر وذانك الضر والمر بؤس وشقاء، فالباذل رفده، والمحسن بجميل

---

(١) خ ١٩٩ /٣١٧.

(٢) م ٣٤٤ /٥٣٥.

(٣) م ٢٤ /٤٧٢.

صنعه، يحمل في قلبه رحمة، تمثل خيراً ونعمة فهو بذلك مؤهل للمكافأة من المولى الكريم الرحيم، وهو الجواد مضاعف الحسنات، وخير جزاء لمن رحم العباد أن يرحمه رب العباد، وأفضل مجازاة أن تذهب حسناته سيئاته ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

وفي ذلك تربية راقية لتعميق فعل الخير والإحسان ومحبة الخلق وتطميع في نيل مرضاة الرب وإبعاد اليأس من روح الله وإن اقترفت النفوس من الذنوب عظيماً.

الألفة وعواملها وآثار خيرها

وفي نهج الإمام عليه السلام عنها حديث مستفيض، فقد عرض لنجاح النبي صلى الله عليه وآله الباهر وانجازه المعجز في إقامتها واقتلاع الأحقاد والضغائن والإحن والتباين من القلوب، كما أبان عمّا يحمله في قلبه من خلق يجهد أن يحمل عليه ولاته، ويشيعه بين عامّة الرعية والأمة.

والحديث المستفيض والعرض الطويل مبثوث في كلمه في مواطن عدة، تلتقي مجتمعة في عنوان البحث، نلملم طرفاً منها ونماذج.

١) الله مؤلف الأشياء وعاقد القلوب على الألفة:

ماء السماء:

«حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ»[١].

«كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ

---

(١) خ ٩١ /١٣٢.

السَّحَابِ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ»[١].

وفي غيره مما خلق:

«فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ»[٢].

«ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا»[٣].

«فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا وَيَأْوُونَ إِلى كَنَفِهَا بِنِعْمَةٍ لا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ»[٤].

«وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ وَعِزّاً لِدِينِهِمْ»[٥].

---

(١) خ ١٦٦ /٢٤١.

(٢) خ ١٦٥ /٢٣٨.

(٣) خ ١٨٦ /٢٧٣.

(٤) خ ١٩٢ /٢٩٨_٢٩٩.

(٥) خ ٢١٦ /٣٣٣.

٢) الرسول الأعظم ﷺ ونجاحه في تأليف القلوب:

«دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً»(١).

«فَانْظُرُوا إلى مَوَاقِعِ نِعَمِ الله عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا»(٢).

«فَلَمَّ اللهُ بِهِ الصَّدْعَ وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي الأَرْحَامِ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ(٣) فِي الصُّدُورِ وَالضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ(٤) فِي الْقُلُوبِ»(٥).

٣) الإمام والألفة هدياً وهداية:

وقد كشفت الأحداث والخطوب الجسام عمّا يحمله قلبه من تعلق بجمع الكلمة، ونبذ الاختلاف والفرقة، فهو -سلام الله عليه- القائل:

«لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي وَوَ الله لأسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلاّ عَلَيَّ خَاصَّةً الْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ

---

(١) خ ٩٦ /١٤١.

(٢) خ ١٩٢ /٢٩٨.

(٣) الواغرة: الداخلة.

(٤) القادحة: كأنها تقدح النار فيها.

(٥) خ ٢٣١ /٣٥٣.

وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ»[١].

وذلك في معترك الحكم والخلافة وأوج الصراع والنزاع، وهو القائل في محنته وبلاء الأمة بإفرازات حرب صفين الضروس وما آل إليه أمر التحكيم، والهياج والتخبط في تلكم العواصف، ومكاره الشدائد:

أ- «فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا وَنَطَقُوا بِالْهَوَى وَإِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَنْزِلًا مُعْجِباً اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَأَنَا أُدَاوِي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَلَقاً وَلَيْسَ رَجُلٌ فَاعْلَمْ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُلْفَتِهَا مِنِّي أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ وَكَرَمَ الْمَآبِ وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي»[٢].

«وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ[٣] خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ وَلا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَئُونَةً وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً»[٤].

ب- «وَلا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الأُمَّةِ وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ»[٥].

---

(١) خ ٧٤/ ١٠٢.

(٢) ك ٧٨/ ٤٦٥-٤٦٦.

(٣) أي: من شر الوزراء.

(٤) ك ٥٣/ ٤٣٠.

(٥) ك ٥٣/ ٤٣١.

وقال ﷺ: «قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ»[(١)].

فالقلوب وإن كانت متقلبة، تقسو وتتنمر، ولكن مروضها بتألفها، ومربيها بالإحسان إليها، وتحمل شدتها، والتغافل عن جهالاتها، فإنها بالتالي تسكن إليه وتقبل عليه، وربما ضرعت بين يديه.

أحسنْ إلى الناسِ تستعبدْ قلوبَهُمُ ... فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

«التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ»[(٢)].

٤) عبر الدهر وعظة الأمم:

«فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأمْلاءُ[(٣)] مُجْتَمِعَةً وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً وَالأيْدِي مُتَرَادِفَةً وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً أَ لَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأرَضِينَ وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ فَانْظُرُوا إلى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ وَتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالأفْئِدَةُ وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ وَقَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ»[(٤)].

«فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيل فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الأحْوَالِ وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الأمْثَالِ... لا يَأْوُونَ إلى جَنَاحِ دَعْوَةٍ

(١) م ٥٠ /٤٧٧.

(٢) م ١٤٢ /٤٩٥.

(٣) الأملاء: جمع ملأ، بمعنى الجماعة والقوم.

(٤) خ ١٩٢ /٢٩٧.

يَعْتَصِمُونَ بِهَا وَلا إلى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا»[١].

«افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ مَالَ مَعَهُ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ»[٢].

٥) الدين والاستقامة عاملا ائتلاف واختلاف:

«فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إلا كَرْهاً وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الإسْلامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِزْباً»[٣].

ويؤرخ هذا الكتاب للقبيلين المختلفين جاهلية وإسلاماً، فكان الإيمان قائماً والاستقامة ماثلة في حزب الله النجباء، شيبة الحمد وشيخ الأباطح وأفذاذ بني هاشم وسراتهم، وكان الكفر والزيغ والافتتان قد أناخت بحزب الشيطان الطلقاء والعتاة المردة من عبد شمس وأمية، كشيخ السوءات صخر أبي سفيان بن حرب، ومن نسل، والتفّ بحبله من حاشية وبطانة.

وإنه التحديد الدقيق والتحليل العميق، فما أسلم من أسلم! عن رغبة وحب للإسلام وإنما ألجأته الظروف القاهرة فلم يجد عن إظهار الإسلام بُداً، فأيُّ إسلام هذا؟! أجل إنه الاستسلام والرضوخ للأمر الواقع الذي لا محيص عن الإذعان لإملاءاته.

---

(١) خ ١٩٢ /٢٩٨.

(٢) خ ١٦٦ /٢٤٠ـ٢٤١.

(٣) ك ٦٤ /٤٥٤.

هذا وقد جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

العفو

وهو خلق من أخلاق الله الكريمة، وصفاته العالية، وجـدير بالعبـد التخلق بأخلاق الرب.

وقد تناول الإمام عليه السلام هذا الخلق في جملة من أطرافه، فلنـتربَّ عـلى نهج الإمام وهديه.

الله جل جلاله

«يَعْفُو بِحِلْمٍ»[1]، «الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا»[2].

«فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ»[3].

ومما قاله عن البصرة:

---

(1) خ ١٦٠/ ٢٢٤.

(2) خ ١٩١/ ٢٨٣.

(3) ك ٢٧/ ٣٨٣.

«المُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ وَالْخَارِجُ بِعَفْوِ اللهِ»[١].

«وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ يَدْعُوكَ إِلى عَفْوِهِ وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلى غَيْرِهِ فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ!»[٢].

«وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ المُجَاهِدِ وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ المَكَارِهِ إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً[٣] إِلى فَضْلِهِ وَأَسْبَاباً ذُلُلًا لِعَفْوِهِ»[٤].

وقال لمالكٍ واليه: «فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ وَوَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ»[٥].

«فَإِنَّهُ لا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ وَلا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ»[٦].

ونستخلص من هذه النصوص:

أ- إن منطلق العفو الحلم والكرم فهو -سبحانه- حليم لا يغضب فيعفو وكريم لا يؤاخذ على الجريرة.

ب- القوي الرحيم الرب الكريم، يتمرد عليه عبده ويعرض عنه

---

(١) خ ١٣ /٥٦.
(٢) خ ٢٢٣ /٣٤٤.
(٣) فُتُح: واسعة مفتوحة.
(٤) خ ١٩٢ /٢٩٤.
(٥) ك ٥٣ /٤٢٨.
(٦) ك ٥٣ /٤٢٨.

وهو -تعالى- يقبل عليه ويدعوه.

ج- يمحص عباده بالبلاء حتى تشملهم النعماء ويعمهم العفو والرضاء.

د- الميزان الدقيق فكما يرجو المذنب عفو ربه فليكن منه ذلك إذا وَلِيَ غيره. وليجعل نفسه دائماً مقياساً، فكما لا غنى به عن عفو ربه ورحمته، فليكن منه شأن لذلك الرعية المقصر، وأعظم بذلك ميزاناً، وأجلَّه مقياساً.

الإمام مؤدب بآداب ربه:

قيل إنه خطب بعد مقتل عثمان في أول خلافته:

«وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ وَمَا عَلَيَّ إِلا الْجُهْدُ وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ»[١].

«يَقُولُ مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ أَ حِينَ أَعْجِزُ عَنِ الِانْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي لَوْ صَبَرْتَ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لِي لَوْ عَفَوْتَ»[٢].

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة:

«وَقَدْ كَانَ مِنِ انتشار حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا[٣] عَنْهُ فَعَفَوْتُ

---

(١) خ ١٧٨ /٢٥٧.

(٢) م ١٩٤ /٥٠٣_٥٠٤.

(٣) غبا: جَهِلَ.

عَنْ مُجْرِمِكُمْ وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ»[١].

وقال عليه السلام لما ضربه ابن ملجم -لعنه الله-:

«إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا، أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ»[٢].

وقال صلوات الله عليه لما سبه الخارجي -لعنه الله-:

«وذلك أَنَّهُ عليه السلام كَانَ جَالِساً فِي أَصْحَابِهِ فَمَرَّتْ بِهِمُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ فَرَمَقَهَا الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الْفُحُولِ طَوَامِحُ[٣] وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هِبَابِهَا[٤] فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلامِسْ أَهْلَهُ فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كَامْرَأَتِهِ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ: قَاتَلَهُ اللهُ، كَافِراً مَا أَفْقَهَهُ، فَوَثَبَ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ عليه السلام: رُوَيْداً[٥] إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ»[٦].

حمل ولاته على هديه:

«فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ

---

(١) ك ٢٩ /٣٨٩.

(٢) ك ٢٣ /٣٨٧.

(٣) طمح: ارتفع، وأبعد في الطلب.

(٤) الهباب: الهيجان.

(٥) رويدًا: مهلاً.

(٦) م ٤٢٠ /٥٥٠.

فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ وَوَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاكَ وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ وَابْتَلاكَ بِهِمْ وَلا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ الله فَإِنَّهُ لا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ وَلا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ وَلا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ وَلا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً»[١].

حلية المتقين:

«يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ»[٢].

وشكر القدرة وزكاتها:

«إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ»[٣].

«أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ»[٤].

«وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ»[٥].

وهكذا قرأنا الإمام عليه السلام في كَلِمِهِ، ورويناه في سيرته، في ذاته، ووصيته لولاته وكافة رعيته.

أجل وقفنا على ملكة الكمال وكمال الملكة، اتسعتا فوسعتا الأحداث

---

(١) ك ٥٣ /٤٢٧ـ٤٢٨.

(٢) خ ١٩٣ /٣٠٥.

(٣) م ١١ /٤٧٠.

(٤) م ٥٢ /٤٧٨.

(٥) م ٢١١ /٥٠٦.

الجسام والخطوب العظام، وتلكم رحمة الله الواسعة وقدرته الجامعة تمثلتا وتجسدتا في الإمام العظيم.

ووقفنا على السر ومحور الأمر ألا وهو النظر إلى المولى تبارك وتعالى في عموم لطفه وكريم عطفه، فهو -جلّ وعلا- مبدأ الفيض والإحسان وغاية الإفضال والامتنان.

فطوبى لعبدٍ اتخذ إلهه رباً مؤدِّباً فتخلق بأخلاقه، وتحلى بجمال صفاته، وتقمص أبراد آلائه.

هذا وقد كان من ختام دعاء يلجأ فيه إلى الله ليهديه إلى الرشاد:

«اللّهمّ احمِلْني على عفوِك، ولا تحمِلْني على عدلِك»[1].

---

(١) خ ٢٢٧ /٣٥٠.

الجود والسخاء والكرم

من مكارم الأخلاق، ودلائل طيب الذات، وسماحة النفس والأريحية، وليست تعني هذه الصفات نداوة الكف، وإقراء الضيف، ومد الخوان، بل هي أسمى من ذلك وأوسع، كما نقف على ذلك في نصوصها.

وتتفق تلكم السمات في الحكاية عن شرف النفس ولين العريكة وأريحية الطباع، بل ربما ترادفت أو تقاربت في معانيها ومواطن استعمالها، ولذلك جمعناها في عنوان واحد، ولكن لكثرة ورودها في نهج الإمام عليه السلام وتمايزها في جملة من مواردها أفردنا كل صفة بحديث الإمام فيها، وليُعلم بذلك جهات الترادف والتقارب والافتراق.

الجود:

١) الله الغني المطلق والجواد الدائم:

أ) «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لا يَفِرُهُ[1] الْمَنْعُ وَالْجُمُودُ وَلا يُكْدِيهِ[2] الإعْطَاءُ

(١) يَفِرُ: من وفر أي يزيد في ماله.

(٢) يكدي: يفقره وينفد خزائنه.

وَالْجُودُ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاهُ وَهُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ وَعَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَالْقِسَمِ عِيَالُهُ الْخَلائِقُ ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ... وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ[1] اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَلا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الأَنْعَامِ مَا لا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الأَنَامِ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لا يَغِيضُهُ[2] سُؤَالُ السَّائِلِينَ وَلا يُبْخِلُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ. وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لا يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلا فَضْلُكَ وَلا يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلا مَنُّكَ وَجُودُكَ فَهَبْ لَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الأَيْدِي إِلى سِوَاكَ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[3].

ب- «الْحَمْدُ للهِ النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ وَالْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ»[4].

ج- «الْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ خَلَقَ الْخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ»[5].

---

(١) الفِلِزُّ: الجوهر النفيس.

(٢) لا يَغِيضُهُ: من غاض الماء، والمعنى هنا لا ينقصه.

(٣) خ ٩١ /١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

(٤) خ ١٠٠ /١٤٥.

(٥) خ ١٨٣ /٢٦٥.

٢) موقع الجود:

أ- «الْجُودُ حَارِسُ الأعْرَاضِ»[١].

ب- وسئل عليه السلام: أيهما أفضل: العدل أو الجود؟

فقال عليه السلام: «الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا»[٢].

ج- «وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾»[٣].

د- وقال عليه السلام لجابر بن عبدالله الأنصاري: «يَا جَابِرُ قِوَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ عَالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ وَجَاهِلٍ لا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ وَجَوَادٍ لا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ وَفَقِيرٍ لا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ وَإِذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ»[٤].

---

(١) م ٢١١/ ٥٠٦.

(٢) م ٤٣٧/ ٥٥٣.

(٣) خ ١٨٣/ ٢٦٧.

(٤) م ٣٧٢/ ٥٤١.

السخاء:

أ- «أَمَّا الاستبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الأعْلَوْنَ نَسَباً وَالأشَدُّون بِالرَّسُولِ ﷺ نَوْطاً[١] فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً[٢] شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ وَالْحَكَمُ اللهُ وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ»[٣].

ب- «بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ»[٤].

ج- «ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالأحْسَابِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ[٥] مِنَ الْكَرَمِ وَشُعَبٌ[٦] مِنَ الْعُرْفِ[٧]»[٨].

«وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ»[٩].

د- «السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ

---

(١) النوط: التعلّق والالتصاق.

(٢) الأَثَرَة: الاختصاص بالشيء دون مستحقّه.

(٣) خ ١٦٢ /٢٣١.

(٤) ك ٤٥ /٤١٧.

(٥) جماع: مجموع منه.

(٦) شُعَب: جمع شعبة.

(٧) العُرْف: المعروف.

(٨) ك ٥٣ /٤٣٣.

(٩) ك ٥٣ /٤٤١.

وَتَذَمُّمٌ[١]»[٢].

الكرم:

الله أكرم الأكرمين:

«فتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ»[٣].

«أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ»[٤].

«فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ»[٥].

«إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلى الله سُبْحَانَهُ حَاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلاةِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ فَإِنَّ اللهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الأُخْرَى»[٦].

«وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ الله سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ»[٧].

---

(١) التذمُّم: الفرار من الذمّ.

(٢) م ٥٣ /٤٧٨.

(٣) خ ٢٢٣ /٣٤٤.

(٤) خ ٨٣ /١٠٧.

(٥) ك ٢٧ /٣٨٣.

(٦) م ٣٦١ /٥٣٨.

(٧) ك ٣١ /٤٠٢.

الرسول الأكرم ﷺ:

«عِتْرَتُهُ ﷺ خَيْرُ الْعِتَرِ وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ»[١].

الإمام الأعظم عليه السلام:

«لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلى دَعْوَةِ حَقٍّ وَصِلَةِ رَحِمٍ وَعَائِدَةِ كَرَمٍ»[٢].

«وَاعْذِرُوا مَنْ لا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ -وَهُوَ أَنَا- أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الأَكْبَرِ وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الأَصْغَرَ قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الإِيمان وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الْحَلالِ وَالْحَرَامِ وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الأَخْلاقِ مِنْ نَفْسِي فَلا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ وَلا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ»[٣].

حدود وتوصيات:

«أَلا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلا حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلأَمُ

---

(١) خ ٩٤ /١٣٩.

(٢) خ ١٣٩ /١٩٦.

(٣) خ ٨٧ /١٢٠.

خَدِينٍ»[(١)].

«وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إلى الرَّغَائِبِ»[(٢)].

«وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ»[(٣)].

«وَلا كَرَمَ كَالتَّقْوَى وَلا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ»[(٤)].

«الْكَرَمُ أَعْطَفُ مِنَ الرَّحِمِ»[(٥)].

«أَوْلَى النَّاسِ بِالْكَرَمِ مَنْ عُرِفَتْ بِهِ الْكِرَامُ»[(٦)].

يا مالك: «فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ»[(٧)].

«احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ»[(٨)].

«مِنْ أَشْرَفِ أَعْمَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ»[(٩)].

---

(١) خ ١٢٦/ ١٨٣.

(٢) ك ٣١/ ٤٠١.

(٣) ك ٣١/ ٤٠٥.

(٤) م ١١٣/ ٤٨٨.

(٥) م ٢٤٧/ ٥١١.

(٦) م ٤٣٦/ ٥٥٣.

(٧) ك ٥٣/ ٤٤١.

(٨) م ٤٩/ ٤٧٧.

(٩) م ٢٢٢/ ٥٠٧.

«إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ»[١].

يا مالك: «وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الإِسْلامِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاقاً وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً»[٢].

«وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ»[٣].

مواطن لا تليق بالكرم:

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص:

«فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ»[٤].

وعند تردي الزمن يقلُّ الكرام:

فتنة بني أمية «وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً وَالْمَطَرُ قَيْظاً وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً وَتَغِيضُ[٥] الْكِرَامُ غَيْضاً»[٦].

---

(١) خ ١٢٣ /١٨٠.

(٢) ك ٥٣ /٤٣٥.

(٣) م ٣٨ /٤٧٥.

(٤) ك ٣٩ /٤١١.

(٥) تغيض: من غاض الماء إذا غار في الأرض وجفّت ينابيعه.

(٦) خ ١٠٨ /١٥٧.

المحتويات